

أرب المقالة الصحفية

مكتتاب
أبجدياتي

تأليف

دكتور عبد اللطيف حمزة

أستاذ ورئيس قسم الصحافة
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الطبعة الثالثة مزيّدة ومنقحة

مكتبة المطبع والنشر
دار الفكر العربي

١٩٦٥

وَلَا تُخَيِّرُ الْإِنَّمَاءَ
شَاعِ الْجَبَشِيِّ - كَنِيسَةُ الْأُرْمَنِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مقدمة

في الجزء الأول من أجزاء هذا الكتاب ، أذكر أني تحدثت إلى القراء عن نشأة الرأي العام في مصر ، ثم عن نشأة الصحافة بها ، ثم عن الحركة الفكرية المصرية منذ بداية القرن التاسع عشر ، ثم عن تطور الأساليب الكتابية العربية منذ بدايتها إلى ذلك القرن ، متخذاً من الفصول الأربعة السابقة تمهيداً للحديث عن المدرسة الصحفية الأولى في مصر وعلى رأس هذه المدرسة رفاة رافع الطمطاوى . وقد أفضى بنا البحث إلى أن تلك المدرسة الصحفية في مصر كان قصارها أن حاولت لإنشاء ما يسمى « بالمقال الصحفي » .

ذلك أنها كانت مقيدة في هذه المحاولة بقيود كثيرة ، كان معظمها نتيجة للظروف السياسية والاجتماعية والفكرية التي اكتشفت رجال تلك المدرسة .

وحسبنا أن نشير من الظروف السياسية إلى واحد فقط ، ونعني به الظروف الذي قضى على الصحافة المصرية أن تكون في أول أمرها من وحي الولاية والحكام ، وأن تولد في حجورهم ، وتعيش بأموالهم ، وتنمى بأفكارهم ، ولا تكاد تتحدث إلا بأسننهم ، بل لا تكاد تعبر إلا عن رأيهم وبقية الصحافة المصرية رسمية على هذا النحو ، حتى ظهرت إلى جانبها صحافة أخرى هي الصحافة الشعبية وحتى هذه الأخيرة لم تكن في أول أمرها إلا صورة دقيقة من الصحافة الرسمية التي نتحدث عنها .

ثم حسبنا كذلك أن نشير من الظروف الاجتماعية والفكرية إلى واحد فقط ، ونعني به الجهل ، الذي خيم على مصر طوال الحكم العثماني ، وجمال

في سماءها سحباً كثيفة داكنة مظلمة ، يركب بعضها فوق بعض ، فتعجب النور عن أهل مصر ، فلا يصل منه قبس إلى عقولهم ، وتذود عنهم الدفء ، فلا سبيل إلى أن تستمتع به أجسامهم ولقد ظل المصريون على هذه الحال السيئة من الحرمان ، حتى أتت الحملة الفرنسية ، وأتى محمد علي ، وكان لهذين الفضل في إنهاض المصريين من سيئاتهم ، ثم في الأخذ بيدهم إلى السير في ركب الحضارة الحديثة والمعالم الحديثة ، وذلك هو السبب الذي من أجله قضى المصريون ، حكاماً ومحكومين ، أكثر من نصف القرن الماضي في شيء واحد فقط ، « محاربة الجهل » ، واشترك كثيرون في هذه الحرب التي شنتها مصر يومئذ على ذلك العدو ؛ فمنهم الولاة بأموالهم وسلطانهم وتوجيهاتهم ، ومنهم طوائف الشعب على اختلافهم ، وذلك بدافع من الوعي القومي الذي نما نمواً كبيراً في بلادهم . ثم منهم رجال الصحافة الذين جرفهم تيار التعليم والثقافة ، فسكادت تنحصر جهودهم في هذه السبيل الأخيرة ، وجاءت أكثر الصحف التي أصدرتها المدرسة الصحفية الأولى مشحونة بالفصول العلمية والأدبية ، مترجمة عن الكتب الأجنبية حيناً ، ومأخوذة من الكتب العربية القديمة حيناً ، ومؤلفة بقصد أن يتكون منها كتاب في العلم أو الأدب في نهاية الأمر .

تلك إذن بعض القيود التي تقيدت بها المدرسة الصحفية الأولى في مصر ، وتلك إشارة موجزة إلى بعض الظروف التي كانت هذه القيود من نتائجها في ذلك الظرف وهكذا كانت صبغة المدرسة الأولى علمية أدبية ، أكثر منها سياسية واجتماعية . وذلك من حيث الموضوع .

أما من حيث الأسلوب فقد كان رجال تلك المدرسة مقيدين كذلك بقيود الماضي الغريب ، حين كان النثر العربي يميل إلى السجع وغيره من ألوان البديع ، التي قتن بها أدباء العربية منذ القرن الرابع الهجري . غير أن البديع أو الزينة اللفظية لا تحسنان — كما أشرت إلى ذلك في موضعه من الجزء الأول من هذا الكتاب — إلا مع ثقافة واسعة ، وذوق في اللغة رفيع ، وحسن في الأدب دقيق ، وهو ما حرمت مصر أكثره طوال القرن الثامن عشر . ومن ثم ورث الصحفيون في القرن الماضي لونا باهتا من ألوان النثر العربي ، لم يكن خليقاً بأن يحتدى ،

ولا كان جديراً بأن يفسح على منواله . ومع ذلك فقد مضى رجال المدرسة الأولى يكتبون صحفهم بطريقة لا تبعد كثيراً عن هذه الطريقة ، ولا تسكاد تتحرر منها إلا في أوقات قليلة ، حتى جاء الوقت الذي سُموا فيه السجع ، وزهدوا فيه البديع وكان ذلك إيذاناً بمجيء المدرسة الصحفية الثانية . وهي المدرسة التي نعمت بقسط من الحرية في الموضوع ومن الحرية في الأسلوب ، ليس شك في أنه كبير بالقياس إلى القسط الذي نعمت به المدرسة التي سبقتها إلى الوجود .

ولئن كانت المدرسة الأولى للصحافة في مصر تجاهد في ظلام حالك ، ولم يكن أمامها مثل واضح يحتذى في الكتابة أو الصحافة ، لقد كانت الثانية تشق طريقها في شيء من النور الخفيف الذي يشبه نور الفجر ، وكان أمامها مثل — إن لم يكن كامل الوضوح — فهو كاف لأن يهدي القوم سواء السبيل .

ولئن كان رجال المدرسة الأولى يمثلون من الصحافة دور الطفولة ، لقد كان رجال المدرسة الثانية يمثلون من الصحافة دور الغلومة ، أو قل إنهم تجاوزوا هذه الغلومة إلى حيث قطعوا بالصحافة أول مرحلة من مراحل الشباب .

ولئن كانت المدرسة الأولى قريبة عهد بالعلوم الحديثة ، والأخذ بنصيب من الثقافة الأوروبية الجديدة ؛ بحيث قصروا جهودهم ، أو كادوا يقصرونها على نقل هذه الثقافة . لقد كانت المدرسة الثانية قد تخففت نوعاً ما من هذا الجهد ، وحطت عن كاهلها بعض هذا العبء ، والتفتت إلى لون آخر من ألوان الجهاد القومي ، ونزلت ميادين أخرى من ميادين الإصلاح ، ونعنى به الإصلاح الاجتماعي والإصلاح السياسي ، والإصلاح اللغوي .

وأخيراً — لئن كانت المدرسة الأولى تحاول إنشاء المقال الصحفي ، وتجسد عسراً شديداً ومشقة كبيرة في هذه المحاولة ، لقد كانت المدرسة الثانية قادرة على إنشاء المقال ، بلغة منه ما أريد به .

ومهما يكن من شيء ، فقد أبلى رجال المدرسة الصحفية الأولى في مصر بلاه حسناً في نشر الثقافة ، والتمكين لها ، ثم في إنشاء الصحف ، واقتناع الناس بها ، ثم في محاولة إنشاء المقال الصحفي بالطريقة التي أملأها جو العصر

من جهة ، والاسلوب الأدبي الذي كان من وحي ماضيهم وحاضرهم معاً من جهة ثانية .

ألا ما أعظم الجهد الذي بذله الرعيل الأول في ميدان الصحافة المصرية ، وما أجل خطر المهمة التي ألقى على عاتقه ، وما أعظم الواجب الذي قام به هذا الرعيل نحو الوطن ، حتى خطا خطوات سريعة إلى نهضة شملته من جميع جوانبه .

ومضى عهد المدرسة الأولى حميداً في مصر على هذا الوجه ، وأتى بعده عهد المدرسة الثانية ، فوجدنا المقالة الصحفية بالمعنى الصحيح تولد على أيدي رجالها ، ويتمتع القراء في مصر والشرق بطائفة من المقالات السياسية حيناً ، والاجتماعية حيناً آخر ، وإذا بإعلام هذه المدرسة لهم قدرة على أداء هذه المعاني في أدق صورها ، وأجل مناظرها وأيسر طرقها . أو قربها إلى أذهان الخاصة والعامة على السواء .

ألا ما أعظم الوثبة التي وثبها الرعيل الثاني في ميدان الصحافة المصرية ، وما أسرع الخطا التي خطاها بالمقال الصحفي ، في موضوعه وفي أسلوبه في وقت معاً .

واعنى كل ذلك ، وملاً نفسي إعجاباً ، وقلبي غبطة وسروراً ، فكتبت هذا الجزء الثاني في الحديث عن ثلاثة فقط من رجال هذا الرعيل ؛ وهم أديب إسحاق ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم . ولا شك في أن هؤلاء الثلاثة ايمسوا إلا أمثلة فقط لكتاب المدرسة الثانية ، وإن شئت فقل لأنهم زعماء هذه المدرسة التي نعتك غيرهم ، ممن لم يتسع الكتاب لذكرهم ، والإشادة بالجهد الصحفي الذي بذلوه في تلك المرحلة .

وفي ترجمتي لحياة أولئك الثلاثة الكتاب ، انتفعت بطائفة ، من الكتب الحديثة والتراجم الخاصة ، ومنها ترجمة عوني إسحاق لأخيه أديب إسحاق و ترجمة أحمد سيمر لصديقه عبد الله النديم ، و ترجمة رشيد رضا لشيخه محمد عبده . ثم كتاب زعماء الإصلاح ، لأستاذي الكبير أحمد بك ، أمين .

أما أساليب أولئك الثلاثة الكتاب . ودراستها ونقدها وتحليلها وما يتصل

بذلك من أبحاث غايتها استخلاص الطابع الصحفي للمقال . وشرح المنهج الصحفي
لكل واحد من أولئك الكتاب وبمجموعى الخاص . الذى أعتقد - فى حدود
علمى - أنى لم أسبق إليه

وأنا إذ أقدم هذا الجزء إلى القراء أرجو أن يتنفع به طلبة الجامعة عامة .
وقسم التحرير والترجمة والصحافة خاصة . والمتصلون بالصحافة نفسها اتصال
حرقة ، أو اتصال بحث وعلم على وجه أخص .

وقد عزمنا على أن نمضى فى الكتابة عن رجال الصحافة طبقة بعد طبقة ،
ورعيلا بعد رعييل . حتى نصل إلى الصحفيين الذين نعيش معهم فى هذا العصر .

والله تعالى نسال أن يوفقنا إلى هذه الغاية ويهديننا سواء السبيل ؟

مصر الجديدة فى فبراير سنة ١٩٦٥

عبد اللطيف حمزة

الفصل الأول

ظروف عاشت فيها المدرسة الصحفية الثانية

واجهت الصحافة العربية في مصر في النصف الثاني من القرن الماضي ظروفًا مخالفة بمض الشئ للظروف التي واجهتها في النصف الأول وهي ظروف أوجبت على الصحافة أن تجول جولات واسعة في ميدان الإصلاح الاجتماعي وميدان الإصلاح الأدبي أو اللغوي ، وميدان الإصلاح السياسي آخر الأمر ، على حين كانت في النصف الأول من القرن الماضي تكاد تنحصر جهودها كما قلنا في الميدان الثقافي وحده قبل كل شيء . وبعبارة أخرى في نقل الثقافة الأوروبية إلى اللغة العربية من جهة ، ونشر الكتب القديمة المعروفة في الأدب العربي من جهة ثانية .

وإذ أمعنا النظر في هذا النشاط الكبير الذي استغرق جهود المصريين في النصف الثاني من القرن الماضي وجدناه موزعا في الواقع على حركات ثلاث وهي :

- ١ - حركة التنوير .
- ٢ - حركة الدستور .
- ٣ - حركة المقاومة .

حركة التنوير

فأما حركة التنوير فنحن نعلم أنها بدأت بمجيء الحملة الفرنسية ، ثم بظهور محمد علي وعنايته بنشر التعليم الحديث ، وجذب المصريين إلى الثقافة الأوروبية كما سبق أن شرحنا وذلك في الجزء الأول من كتاب (أدب المقالة الصحفية) .

غير أن أسبابا أخرى جدت في النصف الثاني من القرن الماضي وكان من شأنها تقوية هذه الحركة والمضي بها أشواطاً بعيدة المدى . وأهم هذه الأسباب الجديدة مايلي :

أولاً - بقاء المصريين على إصرارهم القديم على التمسك باللغة العربية وإشارتها بالاستعمال على اللغة التركية وذلك في الصحافة والتعليم والتأليف في الدواوين الحكومية المختلفة

أجل - إن هذا الاتجاه نحو اللغة العربية والتعصب لها على هذا النحو من مسارات النهضة المصرية منذ بدايتها إلى نهايتها . وكان هذا الاتجاه من اتجاهات النهضة مؤيداً من المجالس النيابية أو شبه النيابية في مصر تأييداً تاماً وذلك منذ طالبت هذه المجالس بضرورة استخدام العربية في شئون التعليم . وكان قد ظهر منافس جديد للغة العربية منذ الاحتلال البريطاني . وهذا المنافس الجديد هو اللغة الإنجليزية فأصر النواب على أن تحمل اللغة العربية محل هذه اللغة الإنجليزية في جميع مراحل التعليم ولقى المشروع صعوبات جممة . ولسكن النواب ورجال الصحف تطلبوا عليها في النهاية على نحو ما هو معروف في التاريخ .

ثانياً - كان من تلك الأسباب التي جردت في النصف الثاني من القرن الماضي وأصبح لها أعمق الأثر في تقوية حركة التنوير مجيء السيد جمال الدين الأفغاني إلى مصر وإقامته فيها بين سنتي ١٨٧١ - ١٨٧٩ يبذر فيها بذور الحرية ، ويشجع المصريين والشرقيين على اليقظة الفكرية واليقظة السياسية . وجمع حوله الشباب العربي على هذه الفكرة وكان من هؤلاء على سبيل المثال : أديب إسحق ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم ، وإبراهيم المويلحي ، وسفي اللقاني ، وسعد زغلول ، وغيرهم كثيرون .

ثالثاً - ولعل من أقوى الأسباب التي ساعدت على تنمية حركة التنوير أن حركة الترجمة التي بدأت منذ أيام محمد علي واستمرت إلى أيام إسماعيل كانت قد أثمرت وأينعت وبدأت آثارها قوية في الدوائر الثقافية وفي نمو العقل العربي الجديد وهو العقل الذي وجدناه يدين بجزء كبير من تكوينه ونشاطه إلى التيار الأوروبي ممثلاً في ذلك السبيل الضخم من المكتب المترجمة في شتى العلوم المختلفة التي احتاجت إليها النهضة المصرية على النحو الذي فصلنا فيه القول في الجزء الأول من كتابنا (أدب المقالة الصحفية) .

رابعاً - ثم من الأسباب التي عادت بالخير على حركة التنوير نهضة الأزهر الشريف أو شعور الأزهريين في تلك الفترة من تاريخ مصر بأن عليهم واجباً هاماً نحو الثقافة الشرقية أو العربية حتى تقف على قدميها بجوار الثقافة الأوروبية . وكان الأزهر إذ ذاك يتأثر تأثراً عميقاً بالنقد الشديد الذي كان يصدر من أحد أبنائه - وهو الشيخ محمد عبده . ولهذا الأخير جهود مشكورة في نشر التراث العربي الإسلامي والعناية بطبع الكتب القديمة التي هي أمهات الأدب العربي . وحذا حذو الشيخ محمد عبده في ذلك عدد كبير من الذين تلقوا علومهم في الأزهر الشريف وتألفت لذلك جمعيات أدبية كثيرة لهذا الغرض ونحن نعلم أن الحكومة المصرية شاركت من جانبها في هذا المشروع وذلك منذ عهدنا بشيخ الصحافة المصرية رفاعة رافع الطهطاوي وتلاميذه من بعده .

خامساً - من أسباب تقدم هذه الحركة وهي حركة التنوير استعراار تدفق السوريين إلى مصر وعنايتهم إذ ذاك بالصحافة والأدب وبالمسرح وبالقصة المترجمة والقصة المؤلفة . والذي لا شك فيه أن جهود السوريين نجحت نجاحاً كبيراً في تنوير ذهن المصري ، وكانت في ذاتها مشاركة قوية في بناء الثقافة العربية .

سادساً - في ذلك الوقت كانت الحرب الروسية التركية قائمة (سنة ١٨٧٧) وكانت هذه الحرب - كما قلنا في الجزء الأول من أدب المقالة الصحفية - حجرة الزاوية من النشاط الذي بدأ من جانب الصحافة المصرية ، فقد انقسم الصحفيون المصريون وقتئذ فرقتين :

فريق يؤيد الأتراك ضد الروس .

وفريق يؤيد الروس ضد الأتراك

و بسطت الحكومة المصرية الحبل للصحافة في هذا المجال لأول مرة في حياتها . وكان ذلك من دواعي ظهور ما يسمى بالرأي العام في مصر وظهر فيها لأول مرة على هذا النحو .

غير أن الاتجاه العام من جانب الصحف الوطنية إذ ذاك كان ضد قيام الحرب

من حيث هي . وكان يهدف إلى إشاعة الكراهية لها أو الترويج لدعاتها . وجاءت مقالات أديب إسحق معبرة عن هذه الكراهية ، فقدم السكاتب للحرب صورة منقرة ؛ كتبها على طريقة الأدباء ، ولم يكتبها على طريقة السياسة ، ومن ثم جاءت هذه المقالات وهي لوحة فنية لا تقل في كمالها الفني عن أروع قصيدة من قصائد الحرب نظمها شاعر من أكبر شعراء العربية كإني تمام أو المتنبى وغيرهما .

هذه عوامل قليلة من أخرى كثيرة أفضت إلى التحول الصحفي من المدرسة الأولى إلى المدرسة الثانية ، كما أفضت إلى ازدهار حركة التنوير ، وكان لها فضل عظيم في الانتقال بالمصريين من مجرد الاكتفاء بالثقافة العربية إلى التطلع إلى المزج بين الثقافتين العربية والأوربية ، وقد كان تلاميذ المدرسة الصحفية الثانية في مصر من دعاة هذا التحول ، وثمر من ثمراته في مصر والعالم العربي .

حركة الدستور

أما عن حركة الدستور فخلاصة القول فيها أننا نجد الحياة النيابية في مصر تتمخض عن دساتير ومجالس نيابية أو شبه نيابية على النحو التالي :

أولاً - مجلس شورى النواب (١٨٦٦ - ١٨٧٩) وهو المجلس الذي أنشأه إسماعيل .

ثانياً - المجلس الذي تمخضت عنه الثورة العربية ولو أنه لم يدم أكثر من أربعة شهور (من ٢٤ نوفمبر سنة ١٨٨١ إلى ٢٤ فبراير سنة ١٨٨٢) . ثم أتى بعده الاحتلال البريطاني .

ثالثاً - مجلس شورى القوانين والجمعية العمومية (١٨٨٣ - ١٩١٢) وهو النظام الذي اقترحه الاحتلال البريطاني .

رابعاً - الجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ وهي الجمعية التي توقفت عن العمل بنشوب الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ .

خامساً - مجلس النواب المصرى سنة ١٩٢٤ وهو المجلس الذى كان ثمرة من ثمرات الثورة الكبرى سنة ١٩١٩ .

فإذا نحن أغفينا النظر عن المجلسين اللذين لم يدوما طويلا وهما مجلس الثورة العرابية من جهة والجمعية التشريعية من جهة - قلنا إن الحياة النيابية فى مصر خضعت لأطوار ثلاثة تمثلها مجالس ثلاثة وهى :

١ - مجلس شورى النواب

٢ - مجلس شورى القوانين

٣ - ومجلس النواب المصرى .

فأما المجلس الأول فكان رأيه استشارياً محضاً . وبالرغم من ذلك ظهرت فيه المعارضة شيئاً فشيئاً حتى بلغت غايتها فى وزارة رياض باشا منذ اصطدم بنائين جريئين هما محمد رضى وعبد السلام المويلحى ، كما سبق أن أشرنا إلى ذلك فى الجزء الأول من أدب المقالة الصحفية .

وأما المجلس الثانى - وهو مجلس شورى القوانين - فكان أعضاؤه يتألفون من عنصرين متعارضين كل التعارض وهما :

العنصر التركى أو الشركسى ومنه يتألف حزب السراى ، والعنصر الوطنى وقوامه الأعيان وأصحاب المصالح الحقيقية فى البلاد ، ومعهم المثقفون فى الأمة . وقد تألف من العنصر الأخير حزب أطلق على نفسه (حزب الفلاحين) تمييزاً له عن حزب السراى أو حزب الأتراك أو حزب الشراكسة . وكان الخلاف شديداً بين الحزبين . وكان لهذا الخلاف نتائج فى غاية الخطورة على البلاد ، وسنعود إلى الحديث عن بعض هذه النتائج عند الكلام عن حركة المقاومة .

ولانستطيع أن ندع الكلام عن حركة الدستور دون أن نشير إلى الانتصارات الباهرة التى أحرزها النواب المصريون فى داخل هذا المجلس الأخير ، برغم الظروف العصيبة التى أحاطت بأولئك الأعضاء ، والضغط الشديد الذى عانوه من قبل حكاهم الشرعيين من ناحية ، وجمال الاحتلال البريطانى من أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد من ناحية ثانية .

ومن ههذه الانصارات على سبيل المثال ما يقترن بشخصية الأستاذ الشيخ محمد عبده فقد كان له أعمق الأثر في مجالس شورى القوانين ، وذلك منذ دخل هذا المجلس في يونية سنة ١٨٩٩ ، ومنذ صار عضواً بارزاً في كل لجنة من لجانته وحركة من حركاته . وكان الشيخ محمد عبده يفتى سياسته دائماً على الوقوف موقفاً وسطاً بين الحكومة المصرية والاحتلال البريطاني ، وذلك في كل خلاف يقع بينهما حول مسألة من المسائل الهامة . على أن الشيخ لم يدخسر وسعاً كذلك في بث روح المسؤولية والكرامة في نفوس الأعضاء فيما يتصل بالمصلحة العامة (١) .

حركة المقاومة

وننظر كذلك في هذه الحركة الأخيرة فنجد أنها مرت في طورين كبيرين لا يعيننا منهما الآن إلا الطور الأول ، وهذان الطوران هما:

١ - طور التخلص من النفوذ التركي .

٢ - طور التخلص من النفوذ الأوروبي .

والذى لا شك فيه أن جميع حركات المقاومة التي ظهرت في مصر في طور التخلص من النفوذ التركي إنما صدرت عن (حزب الفلاحين) وهو الحزب الذى أطلق على نفسه أسماء أخرى منها (الحزب المصرى) و (الحزب الوطنى) وهو غير (الحزب الوطنى) المنسوب إلى مصطفى كامل ، وظهرت معه الأحزاب المصرية الأخرى بين عامى ١٩٠٦ ، ١٩٠٧ .

من ذلك الحزب الذى أطلق على نفسه (حزب الفلاحين) نبعث جمعيات سرية كثيرة منها :

(١) عبد اللطيف حمزة : أجواء فكرية وسياسية عاش فيها الأدب الحديث والصحافة المصرية . بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة : الجزء الثانى ، المجلد السادس عشر بتاريخ ديسمبر سنة ١٩٥٤ .

١ - الجمعية السرية للضباط المصريين سنة ١٨٦٧ .

٢ - جمعية مصر الفتاه التي ظهرت بمدينة الإسكندرية سنة ١٨٧٩ .

والأولى من هاتين الجمعيتين تسمت باسم (الحزب الوطني) . وكانت الحزب
عوانا بين هذين الحزبين الكبيرين أو التيارين المتنازعين وهما :

حزب السراى أو الشراكسة من جانب ، وحزب الفلاحين أو الحزب المصرى
من جانب آخر . كما سبقت الإشارة إلى ذلك .

وانظر إلى عبارة وردت في تقرير أحمد عرابى تعليقا منه على الحادث الذى وقع
في الحادى عشر من شهر يونية سنة ١٨٨١ وكان مقدمة من مقدمات الثورة العرابية
وفيها يقول : (إن حزب السراى المكون من الأتراك والشراكسة عدو للإنسانية .
فهم يعتقدون أن الله القدير لم يخلق المصريين إلا ليكونوا عبيدا لهم وخدامهم
الذين يتخذونهم آله لشرك سلطانهم المطلق وهم في كل ذلك يعاملونهم بكل قسوة
واحتقار حتى رأوا أن مجهودات الحزب المصرى بدأت تؤتى ثمارها ، وأن فريقا
نابها من هؤلاء الذين كانوا يظنونهم عبيدا لهم قد خطوا خطوات شاسعة إلى
الأمم ، وأصبح منهم وزراء يجلسون معهم على قدم المساواة في مجالسهم المقدسة
... الخ) (١) .

* * *

تلك إشارة عابرة إلى بعض الظروف التي عاشت فيها المدرسة الصحفية الثانية .
وهي المدرسة التي كان من تلاميذها أديب إسحق ، ومحمد عبده ، وعبدالله النديم ،
ولبراهيم المويلحى .

ومن هنا وجدنا صحافة هذه الطبقة تخوض في موضوعات اجتماعية ولغوية
وسياسية . منها على سبيل المثال :

(١) عبد اللطيف حمزة : العقدة المركبية عند مدرسة الشيخ محمد عبده وأثرها في صحافة
هذه المدرسة ، بحث مستخرج من مجلة كليه الآداب جامعة القاهرة المجلد الثامن عشر الجزء
الأول بتاريخ مايو سنة ١٩٥٦ هـ . علا عن التاريخ السرى للاحتلال الإنجليزى لمصر (المستربلات)
الترجمة العربية ص ٣٧٨ .

موضوع الخلاف بين الباب العالي والحديو إسماعيل ، وموضوع الدستور والمجالس النيابية أو شبه النيابية في مصر ، وموضوع إصلاح اللغة العربية والسير بها إلى الدرجة التي تستطيع فيها مواجهة المطالب الحضارية الجديدة ، وموضوع الثقافة الأوروبية والمنافسة التي بينها وبين الثقافة الشرقية ، وموضوع التبشير والمبشرين المسيحيين ، وهذا كله فضلا عن الموضوعات الاجتماعية الكثيرة التي أثارها الصحفيون وكان لها أكبر الأثر على الأدب المصري والفكر المصري منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر إلى أوائل القرن العشرين .

شهدت الصحافة المصرية على يد المدرسة الثانية كل هذه الظروف . وكان وجهاً لوجه كذلك أمام التدخل الأجنبي الذي ظهر بأشكال كثيرة من أهمها الوزارة الأوروبية . ومعناها في التاريخ المصري الحديث اشتراك عضوين أوروبيين في الوزارة المصرية ، أحدهما فرنسي والآخر إنجليزي ، ومن أهم أشكال هذا التدخل كذلك منافسة العناصر الشركسية للعناصر الوطنية في الجيش ، وفي وظائف الحكومة ، وفي المجالس النيابية كما قدمنا . فامتلات قلوب المصريين شعوراً بالكراهية الشديدة لهؤلاء الأتراك الشركسة الذين ظفروا بثقة الحاكم الشرعي ثم نجحوا في إيقار صدره ضد الوطنيين . وكان ذلك سبباً من أهم أسباب الثورة العرابية التي قامت تطالب بحقوق المصريين في مناصب الجيش . كما قامت هذه الثورة لغرض أهم من الغرض الأول ؛ وهو هنا المطالبة بدستور سليم يكون على غرار الدساتير الأوروبية الحديثة ، ومن ثم ذهب التاريخ إلا أن الثورة العرابية ثورة دستورية في جوهرها .

وأخيراً شهدت صحافة المدرسة الثانية التي تؤرخ لها في هذا الكتاب في أواخر عهدها بداية الاحتلال البريطاني نتيجة لفشل عرابي فقتلوا كثيرين من رجال هذه الطبقة كما تشرد الكثيرين من رجال الثورة العرابية ذاتها . واختفى الزعماء الصحفيون فترة من الميدان ، هي الفترة التي أصيبت فيها النهضة المصرية والأقلام المصرية والصحافة المصرية بشلل مؤقت لم يكبد يزيد عن عشر سنوات عادت بعدها هذه الأقلام إلى الظهور من جديد لتفقد حركة صحفية كبيرة بدت في نهاية المدرسة الصحفية التي تؤرخ لها هذا الكتاب . ولكنها بلغت أقصى قوتها على أيدي

المدرسة الثالثة من مدارس الصحافة في مصر . وهي المدرسة التي كان من أعلامها السيد علي يوسف صاحب المؤيد ، والزعيم الشاب مصطفى كامل صاحب اللواء والاستاذ أحمد لطفى السيد محرر « الجريدة » .

* * *

(وبعد) فأود أن أختم هذا الفصل بما بدأت به ، وهو الطابع العام لصحافة المدرسة الثانية في مصر ؛ فأقول إنه الطابع الاجتماعي لا الثقافي أو السياسي

وتفسير ذلك بإيجاز أنه إذا كانت المدرسة الصحفية الأولى في مصر تمتاز بالطابع الثقافي البحث . وكانت المدرسة الصحفية الثالثة في مصر تمتاز بالطابع السياسي ، فإن المدرسة الصحفية الثانية التي تؤرخ لها هذا الكتاب تمتاز بالطابع الاجتماعي .

فهذا أديب إسحق - من تلاميذ هذه الطبقة - يعلم الناس معاني الحرية والوطن والوطنية ، ويصبح بذلك حلقة الاتصال بين المدرسة الأولى والمدرسة الثانية .

ثم هذا هو الشيخ محمد عبده يقيم من نفسه مصلاً اجتماعياً لبلاده مصر ؛ حتى إذا نفي إلى باريس والتقى فيها بالسيد جمال الدين الأفغانى انقلب مصلاً اجتماعياً للعالم الإسلامى كله .

ثم هذا هو السيد عبد الله النديم يصدر جريدته (التسيكيت والتبكيك) لغرض أساسى هو الإصلاح الاجتماعى .

ثم هذا هو إبراهيم المويلحى من رجال هذه الطبقة الثانية من طبقات الصحفيين في مصر يسلك نفس السبيل ، وينادى بإصلاح الأزهر من جانب ، وإصلاح المجتمع المصرى الذى خضع لتيارات أوربية جديدة من جانب آخر .

وهكذا غمرت موجة الإصلاح الاجتماعى جميع الصحف المصرية التى صدرت فى تلك الفترة وكانت صدى لاحتياجات الشعب المصرى بعد إذ تم تحوله إلى الحالة الجديدة التى وجد نفسه فيها خاضعاً لتأثيرات الحضارة الأوربية يصلحها حيناً ، ويخالفها حيناً ، ثم يعقد الصلح النهائى بينهما فى نهاية الأمر .

(٢٠ - أدب المقالة ج ٢)

الفصل الثاني

حياة أديب إسحاق

(١٨٥٦ - ١٨٨٥)

لم تكن في مصر أو الشرق جامعات في القرن الماضي - وذلك باستثناء الجامعة الأزهرية - وكانت هذه الأخيرة من الركود على نحو ما وصفنا في الجزء الأول من هذه السلسلة . ومع ذلك فقد يعجب الباحث من أولئك الكتاب الذين أنجهم الشرق العربي في ذلك القرن ، كيف نشأوا أنفسهم هذه التنشئة الأدبية القوية . بل كيف كشف لهم في أنفسهم عن تلك المواهب ، التي انتفع بها الشرق العربي في أنسب وقت لهذا الانتفاع .

وهذا قتي من فتیان تلك الحلبية (وهو أديب إسحاق) ، ولد بدمشق عام ١٨٥٦ للميلاد ، ثم أدخله أبوه مدرسة « الآباء العازارين » ، حيث تلقى مبادئ اللغتين العربية والفرنسية ، وفي تلك السن المبكرة التي لم تنس بعد عهد الفطام يلفت الطفل نظر أستاذه في اللغة العربية ، حتى يقول أستاذه لأبيه يوماً ما : « إن ابنك هذا سيكون قوياً » . يريد شاعراً ، لكثرة ما كان يرد من كلام هذا الصبي مسجوعاً عفواً القريحة . ثم سرعان ما حقق الطفل نبوءة أستاذه ، فتعلق بالشعر ، ونظم القصائد وهو بعد لم يتجاوز العاشرة من عمره .

وقيل أن أسرة الطفل تعرضت بعد ذلك للتعطل ، واحتاجت يومئذ إلى معونة هذا الصبي . فالتحق وهو في الحادية عشرة من عمره بخدمة « الجرك » . وكان راتبه إذ ذاك لا يزيد على مائتي قرش .

فهل كان اضطلاع الصبي بتبعات أسرته في تلك السن المبكرة ، سبباً في حدة المزاج التي وصف بها فيما بعد ؟ أم كانت هذه في مزاجه طبيعة فيه ولدت معه ؟ لست أدري .

مهما يكن من شيء ، فإن هذا العمل الذي اشتغل به الصبي لم يكن يشغله عن صوغ الشعر ، وعمل الموشحات ، ونحو ذلك من الجهود الأدبية التي كان يملأها وقت فراغه .

ثم عرض لوالده بعد ذلك السفر إلى بيروت ، والاشتغال بخدمة د البوسطة العثمانية ، ، وهناك استدعى الوالد ابنه ليلحق به ويعينه في عمله ، فسافر الصبي في الخامسة عشرة من عمره إلى بيروت ، لتنفيذ لأمر والده ، وهناك تعرف هذا الصبي الشاعر بطائفة من رجال الأدب ، وكانت له معهم مطارحات ومراسلات شعرية .

واشتهر أمر الفتى في بيروت . ولفت إليه أنظار الناس هناك ، ثم نزلت به نازعة العلال إلى الاشتغال بفن الكتابة ، فتولى تحرير جريدة التقدم . وذلك بعد نشأتها بزمان قليل ، وجدد في هذه الجريدة ، وملأها بكثير من فصوله الأدبية ، التي كان لها أكبر الأثر في ترويض قلبه ، وإعداده للجهد الصحفي الذي كان ينتظره في حياته المستقبلية . ثم لم يكتب الفتى بذلك حتى سمى نفسه في بيروت إلى المشاركة في التأليف الأدبي ، كما سذكر ذلك فيما بعد . ولم نلث بعد ذلك أن رأينا هذا الفتى عضواً عاملاً في جماعة د زهرة الآداب ، وقد كشفت هذه الجماعة الأخيرة عن موهبة نائلة من مواهبه ، هي موهبة الخطابة ، وأتاحت له مساجلات هذه الجماعة فرصة المران في هذه الناحية . كل ذلك وسنه دون العشرين . وكان موضوع أول خطبة ألقاها في جماعة زهرة الآداب اليونان والرومان ، ثم ألقى بعد ذلك خطاباً ومحاضرات كثيرة في موضوع د النعصب والتساهل ، وموضوع الحرية ، وموضوع د نابليون الأول هل كان خير من شره ، الخ .

وفي بيروت كان الفتى قد ترجم رواية د أندروماك ، لراسين ؛ وذلك بإشارة من قنصل فرنسا هناك ، بل إنه نظم أشعار هذه الرواية ، وقام بتدريب الممثلين على أدوارها ، وذلك في مدى ثلاثين يوماً ، ثم مثلت الرواية ؛ وخصص وجهها لمساعدة البنات اليتيمات في المدينة .

وسافر الشاب بعد ذلك إلى الإسكندرية ، بمشورة بعض أصدقائه . وهناك ترجم رواية « شلمان » ، وأعاد النظر في « أندروماك » ، ولقيت الروايتان رواجاً عظيماً .

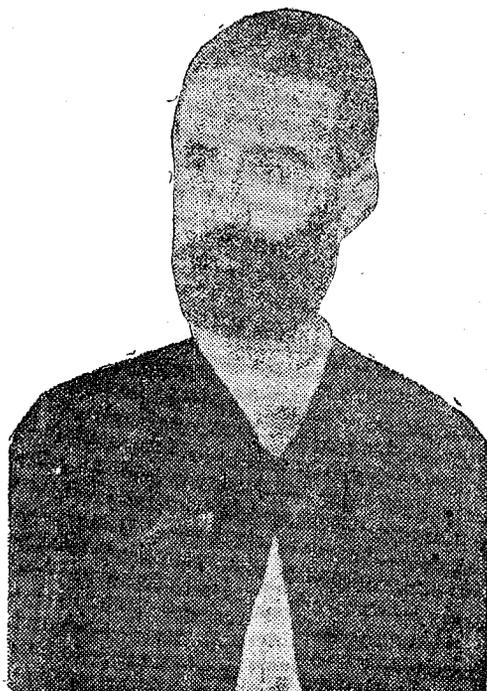
ثم لم نلبث أن رأينا هذا الفتى بالقاهرة ، وبها رجل الشرق وواحد السيد جمال الدين الأفغانى ، فاتصل به أديب إسحاق ، وحضر كثيراً من دروسه في المنطق والفلسفة ، وتوسم السيد جمال الدين في هذا الشاب النجابة واللسن وحسن الكتابة ، فأوعز إليه يومئذ أن ينشئ جريدة مصر ، فقام بإنشائها أديب إسحاق عام ١٨٧٧ ، وقيل لأنه لم يكن في جيبه يومئذ أكثر من عشرين قرناً .

وأقبل الناس على هذه الجريدة ، ومالوا إليها ، وبقيت إدارة الجريدة قائمة بالقاهرة حتى أشار عليه بعض أصدقائه أن ينقل إدارتها إلى الإسكندرية ، فوافقهم على ذلك ، وشاركه في تحريرها يومئذ صديقه « سليم النقاش » ، وبذل الرجلان في هذه الجريدة جهداً لغوياً مشكوراً ، لا يترك مجالاً للشك في عظم الدين الذى لهما في عتق اللغة والأدب . وكان أديب إسحاق - وهو بالإسكندرية - يشترك في تحرير القسم الفرنسى من جريدة « مصر الفتاة » ، وله فيها بحوث قيمة ، أهمها بحث بعنوان « سكان الأمة المصرية بإزاء التاريخ » كتبه بالفرنسية ، وترجمه بعد ذلك بنفسه إلى اللغة العربية (١) .

ولم يكتف الأديبان - إسحاق والنقاش - بذلك بل اشتركا معاً في تحرير جريدة أخرى اسمها « التجارة » ، أصدرها أسبوعية ، كما كانت جريدة « مصر » أسبوعية أيضاً . فكانتا في الحقيقة من أقوى دعائم النهضة القومية والأدبية ، ثم دعت شئون وأحوال إلى إلغاء الجريدتين معاً :

وربما كان من أم هذه الأحوال التى تشير إليها تعرض أديب إسحاق في جريدته «التجارة» لنقد الحكومة المصرية نقداً جارحاً في أمور كثيرة ، كاعتقادها

(١) ظهرت هذه الصحيفة بالإسكندرية في عام ١٨٧٩ وكانت لسان حال الجمعية السرية التى أنشئت ذلك باسم (جمعية مصر الفتاة) وكان من أعضائها أديب إسحاق والسيد عبد الله النديم .



أديب إسحاق

١٢٧٣ - ١٣٠٢ هـ

١٨٥٦ - ١٨٨٥ م

على الأجناب إلى درجة كبيرة ، فقد وصف أديب إسحاق ذلك بأنه « بربرية أوربية لا يجوز السكوت عليها ، لأن القوم نازعونا الأرض المجبولة بدم آبائنا ؛ وأصبحوا أمراء في بلادنا الخ » . ثم عادت الجريدتان فظهرتا ، ومضت كل منهما تناضل عن قضية الوطن ؛ حتى عطلت أولاهما « مصر ، لمدة أسبوعين ، وبقيت « التجارة » وحدها في الميدان ، وطفقت تقابل قرارات الإلغاء والتعطيل بازدياد وعناد ، وأمضت في خطتها التي ترى إلى حماية مجلس النواب من نفوذ الوزيرين الأجانبين وهكذا هددت « التجارة » هي الأخرى بالتعطيل فكتبت في عددها الصادر في ١٣ فبراير سنة ١٨٧٩ تقول :

والتجارة تحسب حب الوطن ديناً ؛ والمدافعة عنه جهاداً ؛ فإن عاشت فيه فهي سعيدة ، وإن ماتت فهي شهيدة ، ولقد آتاه الله التعمتين وأتاح لها الحسينين ، فعاشت به ، وماتت عليه . وستبعث بعد أسبوعين راقلة في ثوب الشهادة ، مزينة بحلى السعادة ، وعلى أنوف حاسديها الذين أولوا كلامنا بما لم تقصد وحاولوا إطفاء نور الحق ، ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره المبطلون » .

ولكن أديب إسحاق بعد إذ ألغيت جريدته التجارة ، فكر في السفر إلى فرنسا فسافر إلى باريس مدينه النور ؛ حيث لاذ بموطن الحرية ، ويومئذ كان الخديو قد نفي السيد جمال الدين الأفغانى من مصر ، وتخلص منه ، وكان قد أقال الوزارة المصرية ذات الميول الوطنية ، ونعى بها وزارة شريف . ولذا ذلك أيضاً كان الخديو قد أسند الوزارة إلى رياض باشا ، فقبل هذا أن يتولى رئاسة الوزارة ؛ وكان قبوله لها في تلك الظروف معناه العودة إلى الحكم الاستبدادى . وفي ذلك الوقت ألقت في حلوان الجماعة المعروفة باسم « الحزب الوطنى »^(١) ، وقيل إن هذا الحزب فكر يومئذ في أن يرسل على نفقته أديب إسحاق إلى باريس ، ليصدر هناك جريدته « مصر القاهرة » .

وكان رياض هو الذى أمر بإلغاء جرائد أديب إسحاق ، فرحل هذا الأديب

(١) وهو غير الحزب الوطنى المنسوب إلى مصطفى كامل . وهذا الاسم يقابل (حزب السراى) الذى كان يضم إليه الأتراك والشراكسة ، على حين كان الحزب الوطنى يضم إليه الفلاحين المصريين (راجع التاريخ السرى لاحتلال الإنجليز مصر . للدكتور بلانت : ص ٣٧٨ ، راجع برنامج الحزب الوطنى — الترجمة العربية : ص ٤٤٠) .

الصحنى إلى فرنسا والفيظ يأكل قلبه ، والثورة تستخدم في نفسه ، والدم يفل في عروقه والمرجح أن ذلك عام ١٨٨٠ ميلادية . وهناك في باريس صب الرجل جام خصبه أولاً على رياض باشا ، فلم يكذب مخلو عدد واحد من أعداد صحيفته من سخرية خبيثة ، تناولت كل جانب من جوانب هذا الرجل ، وتعرضت لخلقه وعرضه ، وهذه النقطة الأخيرة هي الجانب الذى فى كتابة أديب إسحاق ، أو الخطبة الخبيثة التى لا نواقته عليها ، فإذا صرفنا النظر عن هذه النقطة الأخيرة ، ونظرنا فى صحافة أديب إسحاق ومقالاته التى كتبها فى باريس ، فهنا نبدى إعجابنا به وبقلمه ، على النحو الذى سنشرحه فيما بعد .

والعجيب أن أديب إسحاق بدأ يحرر هذه الصحيفة فى باريس بخط يده ، وينسخ منها نسخاً عديدة بخط يده ، ولم يشأ أن ينتظر حتى يظفر بالمطبعة التى تقوم له بهذا العمل وكان يكتب فى صدر صحيفته دائماً كلمات مساواة ، حرية ، إخاء ، وجاء فى الأعداد الأولى من هذه الجريدة قوله :

... ما تغيرت الحقيقة بتغيير الرسم ، ولا تغيرت الصحيفة بتغيير الإسم ، بل هى . . مصر خادمة مصر (١) . . .

ومنذ يومئذ وهذه الجريدة متنفس لهذا الشاب الثائر ، الذى أحس بحريته فى باريس ، وشعر بأنه أصبح أشبه ما يكون بوحش قد أطلق سراحه . وهناك فى باريس أقام أديب إسحاق قرابة تسعة أشهر ، أفاد فيها من الفوائد السياسية والأدبية شيئاً كثيراً ؛ من ذلك أنه تعرف بكثير من رجال فرنسا ، حتى كتبت عنه بعض الصحف الفرنسية . ومن ذلك أنه شهد مجلس النواب الفرنسى ، ورأى بنفسه كيف يخطب الخطباء فى نقد الحكومة ، وكيف يعارضونها فى حرية وصراحة ، وكيف يوجهونها توجيهاً سليماً فى الساحتين السياسية والاجتماعية . وكان ذهنه فى هذه الحالة ينتقل سريعاً إلى مجلس النواب المصرى ، وكانت تسوؤه الموازنة بينه وبين مجلس النواب الفرنسى ، فكان يعد من المقالات اللاذعة فى نقد نوابنا المصريين ما سئرى أمثلة يسيرة منه بعد قليل .

(١) انظر عدد ديسمبر ١٨٧٩ ، وهو يدار الكتب المصرية .

ولم ينس أديب إسحاق في أثناء مقامه بفرنسا أن يكتب المقالات الكثيرة عن الشرق ، ولم ينس كذلك أن يفرغ لتأليف كتاب له باسم (تراجم مصر ، في هذا العصر) . والظاهر أن الكتاب الأخير فقد من جملة ما فقد من آثاره ، والظاهر أيضاً أنه تعرض فيه لكثير من الشخصيات المصرية ومن أهمها شخصية رياض باشا التي تناولها على عادته بالنقد والتجريح

واتهمز أديب فرصة وجوده بباريس فزار المكتبة الأهلية زيارات كثيرة ، واطلع فيها على طائفة كبيرة من المؤلفات الفرنسية والمخطوطات العربية . ويقال إنه نسخ منها قطعاً ليست باليسيرة وفي باريس بقى هذا الشاب الممتلئ بالحياة حركة دائمة ، ونشاطاً مستمراً ، وجدوة لا تنطفئ. حرارتها ، حتى ظهرت عليه أعراض مرض قديم ، كان قد بدأ معه وهو بالإسكندرية ، وهذا المرض هو مرض الصدر . وحين سافر إلى باريس كان البرد قارصاً ، حتى قيل إن ميزان الحرارة قد سجل فيها درجة الثلاثين تحت الصفر . وكان أديب يستجيب في باريس لدواعي الشباب ، فكان لا يرى إذ ذاك إلا منحوراً وأخيراً عاد هذا الشاب المصدور إلى بيروت . وكان عليه أن يأخذ نفسه بالراحة والهدوء ، ولكن أنى له ذلك وهو لم يتعود قط أن يستريح . فهذا هو صاحب جريدة «التقدم» ، يعرض عليه أن يتولى تحريرها للمرة الثانية ، فيعاوده الحنين إلى أول جريدة عمل بها في حياته ، وسرعان ما يقبل على تحريرها ، فيسكد خاطره ، ويقسو على نفسه في كتابة المقالات الشائقة ، والفصول الضافية سنة كاملة .

ثم دعاه لإخوانه وأصدقائه في مصر إلى اللحاق بهم ، واتصل دعاؤهم له وإلحاحهم عليه ، فلم يجد أديب بدأ من الخضوع لهم ، والذهاب إلى مصر ، فخرج من بيروت ، وودعه فيها أصحابه توديعاً حاراً .

ووصل إلى القاهرة ؛ وعين بها ناظراً لقلم الإنشاء والترجمة بنظارة المعارف ، وسمى حتى حصل من الحكومة المصرية مرة أخرى على ترخيص له بنشر جريدته «مصر» فأصدرها أولاً في شكل كراسة ، ثم أعاد مظهرها

الأول في أربع صفحات . وأشارت إلى ذلك جريدة « المنيد » لمحورها
« حسن الشمسى » وذلك بعددها الصادر بتاريخ ١٢ أكتوبر سنة ١٨٨١
- قالت :

« سينشأ في نظارة المعارف قلم تحرير وترجمة ، يكون المتعلمون فيه هم
التلامذة الذين تمموا الفنون التي تدرس في المدارس العالية ، وصاروا صالحين
للخدمة في دوائر الحكومة الخ ، وقد تعين لرياسته حضرة الجهد الحاذق ، والكاتب
الماهر ، صديقنا أديب إسحاق . ويقال إنه مع ذلك سيصدر جريدته الملقاة
« مصر » ، لكن على شكل كراسة تصدر في العاصمة سواء كانت سياسية أو
أدبية ، تاركة ذكر الأخبار الطارئة الأسبوعية أو اليومية إلى قريبتها : جريدة
العصر الجديد ، وجريدة المحروسة . ولا شك أن هاتين الخدمتين سيقوم بهما هذا
الفاضل فوق ما يؤمل ؛ فتروج بذلك صناعة الأدب ، وتتغير عما قليل هيئة
الكتابة في الدواوين إلى الفصحى ؛ وتنشر فيما بيننا الكتب العلمية المؤلفة
بلغة الأجانب . التي تشوقنا إلى رؤيتها لابساً للحلح العريية ؛ ولم يظفر بذلك
من عهد وفاة المرحوم رفاعه بك ، لفقدان معلمى الترجمة ، فخبذا المشروع ،
ونعم الغرض . »

ثم أضيفت إلى أديب إسحاق وظيفة أخرى إلى جانب الوظيفة الأولى إذ
عين كاتباً لأمرار مجلس النواب . ولذا ذلك منحه الخديو رتبة البكوية من الدرجة
الثالثة . قال أخوه عوني إسحاق في ذلك :

« وما اتفق له - رحمه الله - أنه لما التمت له الرتبة المشار إليها . سعى
أحدهم في إيفار صدر الخديو عليه . ليحول دون صدور البراءة . فاتصل نبأ
السماية بأديب إسحاق - وكان مريضاً ملازماً فراشه - فهب على الفور متأثراً
منفعلاً ؛ يغالب المرض والضعف ؛ وجاء إلى إدارة المطبعة التي كانت تطبع فيها
جريدة « مصر » ؛ فرأى الجريدة تحمط الطبع ؛ فاستوقف طبعها . وكتب في
بضع دقائق مقالة عنوانها « الجاسوسية » . جاء فيها قوله : « أو ما رأيت فيمن
رأيت دمياً قميئاً مسيخاً ضائع نور الحياء ناضب ماء الوجه زانغ إنسان العين

عجول هفدة اللسان . سريع حركة القدم ، جرباوى لون السحنة كلب الطباع فيما عدا الامانة ، خنزيرى النفس ؛ يرى في الساعة الواحدة على عشرة أبواب ، وينطق في اليوم الفرد بمائة لسان ساعيا إلى زيد بما يقول عمرو . وإلى عمرو بما يفعل زيد وإلى خالد بما يقول ويفعل الإثنان متجسسا للكل في الكل على الكل كاذبا مداهنا مواربا ، مختالا مخالبا ، ختالا مناققا ، مقتالا أعراض الكل ، كاسبيا مستهزئا ؛ ساليا غاضبا ضاحكا من الكل . فهذا المسخ من تنزلات إبليس أخزاه الله بين عباد الله . فإن رأيت بين أقدامك ، فارفع أطراف الثوب عنه ، وإن مسه فطهره من رجسه تطهيرا ، ثم ارمه بحجر الاحتقار ، إنه السكب الأجرى ، فلا تخش منه هديراً . الخ (١) .

تلك حادثة بسيطة ، وهي مع بساطتها تصور لنا جانبيين من جوانب أديب إسحاق : أحدهما العنف الذي جبل عليه وأضر به . والثانية الموهبة الكتابية التي كانت تطاوعه . وتجاهه أحيانا بقوة غريبة ، يتغلب بها على المرض والضعف .

وهكذا كان أديب في الواقع قاسياً على نفسه طول حياته . ومن الناس من يحملون على أنفسهم ، ويتكثرون على أعصابهم ، إلى حد يودى بحياتهم ، ويصورهم للناس بصورة النار التي تأبى إلا الإحراق ، أو يتم إخمادها ، أو تصير رمادا .

وأخيراً فكر أديب إسحاق - أو على الأصح أشير عليه بذلك من الجهات العليا - أن يترك العمل في الجريدة ، ليتفرغ لمهام منصبه ، فأحال امتيازها لأخيه عونى إسحاق ، وكتب يومئذ يودع جريدته ، فقال :

« قفى ودعينا قبل وشك التفرق »

وإن كنت أرجو الحياة إلى حين نلتقى ، فما باعدتك اختلافاً إلى سواك ، وما فارقتك انحرافاً عن هواك ، فإننى :

(١) انظر الدرر لعونى إسحاق طيروت ص ٢٤١

خلقت أرفألو رجبت لصحتي لفارقت سقمي موجع القلب باكياً (١)
فكيف وأنت الحديقة التي غرست فيها غصون آدابي ، وبذلت ماء شبابي ،
وأنفقت دينار قوتي ، وصرفت مدخر صحتي ، حتى نمت هاتيك الأغصان ، وصار
عليها من كل فاكهة زوجان ، وأنت الطريقة التي أدعرت في سلوكها الليل ، وشمرت
لها الذليل ، وعودت بها التقدم خوض الأهوال ، وعلت النفس اقتحام الأوحال ،
حتى سهل الصعب عندها وهان ، فلحقت بمنزلة أهل العرفان وأنت الصديقة التي
واستنى في الضراء ، وزادتني فرحاً في السراء . وصرفت عني الضجر في الوحدة ،
وأزالت عني الكدر في الشدة ، حتى اجتبتني صروف الحدان ، ولم يبق للخوف
في القلب مكان ، وأنت الرفيقة التي ألفتها والعمر في نضرتي ، والشباب في مبتدأ
قوته ، فلزمتني في الإقامة ، مع الهناء والكرامة ؛ وصحبتني في الغربة ، أيام العناء
والنكبة ، حتى عاد لنا الزمان ، بعد البعد والهجران .

ولكنها خدمة حبست بقية العزم عليها ، والتزمت الانقطاع إليها ، وهي من
لازم الوفاء ، وهي حق واجب القضاء ، على أنها من تجلياتك في المقود منها ،
ومن مظاهره في الناشئ عنها ، فهي أنت ولكن تغير الاسم ، وأنت هي ولكن
تبدل الرسم . قبلني — يارعاك الله — أولياءنا المحسنين ، ونصراءنا الخيرين ،
سلام محب يذكر نعمتهم ، ولا يهمل إن شاء الله خدمتهم :

وإن تذكر أياماً بها سسلفت يقول بالله يا أيامنا عودي (٢)

وقامت الثورة العراقية في مصر ، وكان أديب إسحاق يتصل بجريدته من حين
لآخر ، ويحمر فيها مقالات شتى ، وهنا قد يعجب الباحث من أن أديباً كان إذ
ذاك من أصحاب الدهوة إلى الاعتدال في طلب الحرية ، وأن ذلك أسخط عليه
رجال الثورة العراقية ، ومنع جريدته من أن تكون لسان حالها : واستعاض
الثوار يومئذ . . . بصحف أديب إسحاق صحفاً أخرى أهمها : جريدة «المفيد»

(١) هبت الكاتب بيت شعر المتنبي يقول فيه :

خلقت أرفألو رجبت إلى الصبا لفارقت شببي موجع القلب باكياً

(٢) انظر الدرر ص ٣٨٦ - ٣٩٠

وجريدة « الطائف » . بل إن جريدة المفيد كتبت في عددها الصادر بتاريخ ٢٢ يونيو سنة ١٨٨٢ بعنوان « الجرائد الشامية » تقول :

« وكل من جريدة الأحوال والمحروسة ومصر أنانا أصحابها وجيوبهم أفرغ من فؤادهم من الوطنية التي ادعوا ترويحاً لمقاصدهم ، فأنشئوا بين أيدينا جرائدهم ودعوا باسم الوطنية والخدمة الإنسانية والحال في سكنون . فلما ارتبكت الحال قطعوا السنة جرائدهم ، ورجعوا إلى بلادهم بمر الحفائب (١) . فنعهم الأحباب لازمونا في المناء . وفارقونا في الشقاء . وهكذا أخذت جريدة المفيد تهاجم الصحافة السورية في مصر ، فأضطر كثيرون من السوريين إلى الهجرة من مصر . وساء ذلك جريدة « الطائف » . فراحت تعالج الموقف وكتبت مقالا بعنوان « المصريون والشاميون » ، سمت فيه هجرة السوريين إلى بلادهم نزوحاً سيمودون بعده إلى مصر بسلامة الله (٢) .

وكان من أثر هذه الحوادث أن قطع أديب إسحاق - وهو موظف بالحكومة المصرية - كل صلة له بجريدة مصر . ولم يبق من الصحف السورية يومئذ غير جريدة (المحروسة) لصاحبها سليم النقاش . إذ بقيت هذه الجريدة الأخيرة موالية للحكومة (٣) حتى عطلها عراقى حوالى ثلاثة أشهر . وأخيراً هاجر أديب إسحاق إلى بيروت في جملة من هاجروا إليها من السوريين . وهناك تولى تحرير جريدة (التقدم) للمرة الثالثة في حياته . وهناك أيضاً قام أديب إسحاق ببلع رواية « الباريسية الحسنة » . وكان قد ترجمها في أوائل صباه .

وبعث أديب إسحاق وهو في بيروت بقصيدة طويلة إلى شريف باشا وهو رئيس الوزارة المصرية التي أسقطها الثوار . وتلتها وزارة محمود باشا سامى

(١) كناية عن امتلاء جيوبهم بالمال .

(٢) جريدة الطائف في ٢١ يونيو سنة ١٨٨٢ .

(٣) كانت المحروسة لانجال شريف ثم عمر لطفى التي كان محافظاً للاسكندرية عند حدوث الاضطرابات بالإسكندرية في ١١ يولية سنة ١٨٨٢ وهي الاضطرابات التي أثبتت خيانة عمر لطفى وأنه كان ضالماً مع الحديبو والإنجليز .

البارودي . وفي هذه القصيدة يصف لنا أديب إسحاق حوادث الثورة العراقية . وخاصة ما وقع منها في عام ١٨٨٢ . ونعني بذلك ضرب الإسكندرية في الحادي عشر من شهر يوليو من تلك السنة . ومن هذه القصيدة قوله :

أني تحمل أهل هذا الوادي ؟
صرف أفاخ على ثمود وعاد ؟
مذاذروا غدر الزمان العادي

د صج بي على تلك الطلول وناد
هل صادم شرك الردي فأبادم
ما غادروا الأوطار في أوطانهم

ومنها .

بمنافع الإصدار والإيراد
والخوف منها مقصد القصاد
فيها سوى البأساء للمرتاد
مثل له من حاضر أو باد
قم الجبال وكان دون الوادي
يبغى اقتحام عرائن الآساد
لما تهتك برقع استبداد
أشقت جموعاً زلة الأفراد
زلوا وضلوا حيث ضل الهادي
بما جنوه غير شوك قتاد
فتعمموا حاراً إلى الآباد
قنبوا عن الإبراق والإرعاد
لم تشف منهم غلة الأحقاد
ما استجمعت من طارف وتلاد
بز اللصوص وبزة الأجساد
لمقابر الآباء والاعجاد

يا وارد الإسكندرية طامعا
كانت ملاذ الخائفين فأصبحت
كانت مرائع نعمة ففدت وما
فأبادها جهل خفي ما بدا
جهل الذي رام الأمانى وهى فى
وغداً وما لقي الثالب عمه
وسعى إلى الثورى . ولكن خالها
شقيت بزلة الجسوع وطالما
وتلاه فى سبيل الفوايه معشر
غرسوا الجنابة فى الجنون فما جنوا
خلعوا الشعار المستعار من الحيا
فأتاهم رعد المدافع مبرقا
وسطوا على المستأمنين خيانة
ورموا بنارهم الديار وبددوا
نكر عرفنا منه أن لبعضهم
وقصيدة يسعى بها أبناءهم

إلى أن قال :

زهقت به الأرواح من الأجساد

يا هولها من ساعة مرت بما

نشروا عراة واجفين فيومهم يوم الميعاد أتى بلا ميعاد
والنار موقدة سرت من خلفهم فكأنها حيات بطن الوادي
والجند شردهم قتال عدوهم فرقا فلم يتجددوا لجلاد
فهم اللصوص وإنهم قد أوهموا أن ليس ما ارتكبوه غير جهاد
وبلادهم قد نالها من عارهم ما لم يحق في عهدنا ببلاد

والقصيدة طويلة نكتني منها بهذه الأبيات التي وُصف فيها الشاعر هذا الحادث
وبكى مدينة الإسكندرية بعد إذ تعرضت لقنابل الإنجليز ، وسخرية الشاعر سافرة
في أكثر قصيدته من الرايين حيث قال :

جهل الذي رام الأمانى وهى فى قم الجبال وكان دون الوادى
كما أظهر الشماة بهم وبرزيمهم حين قال :

شقيت بزله الجوع وطالما أشقت جموعا زلة الأفراد

كما وصف الشاعر هول تلك الساعة الرهيبة ؛ التي فر فيها جند عرابي من وجه
الإنجليز . وأسأوا في طريقهم إلى كل من اتهم من المصريين :

والجند شردهم قتال عدوهم فرقا فلم يتجددوا لجلاد
ونضوا على هذا السبيل بوأترا في الحرب ما نضيت من الأعداد

وأخيراً قذف الرايين بقوله وقد أساء في حقهم إساءة بالغة :

فهم اللصوص وإنهم قد أوهموا أن ليس ما ارتكبوه غير جهاد

ومهما يكن من شيء فهو رأى رجل سورى في الثورة العرابية ، ولسنا
في مقام المحاسبة له أو لرجال الثورة ، ولكننا في مقام العرض لهذه القصيدة التي
نظمها يومئذ ، وهى كما رأيت قصيدة رجل محقق شديد الغيظ قد شفى بعد غيظه
إخفاق هذه الثورة ، والقبض على رجالها ، وإن كان قد آلمه ما انتهت إليه من
احتلال الإنجليز مصر ، واحتلال الأمن بها ، لولا حرم نفر من عقلائها
كشريف باشا الذى أهدى إليه هذه القصيدة وقال له في نهايتها :

عبت فلولا السابقون ومجدهم وبقساء من ولوا من الأجداد
ومؤيد ملك أمير عادل أربي بمفرده على الأعداء
وعصاة كانت فلاندهم فضلمهم أبهى من الأطواق في الأجياد
لم تلق في مصر ومصر عزيزة من قائل : هاذى البلاد بلادى

واشتدت علة الصدر على أديب إسحاق وهو في بيروت ، فأشار عليه أطباؤه
بالذهاب إلى مصر مستشفياً ، فالتمس الإذن بذلك من الحكومة المصرية ،
فأذنت له ، وأقام بالقاهرة أياماً قليلة ، ثم عاد إلى الإسكندرية وأقام فيها أياماً
بمحطة الرمل ، لالتماس العافية ، ولكن ضاقت عليه سعة العمر ، فلما لم يرج
الأطباء له شفاء أقنموه بالعودة إلى أهله في نغرة بيروت . فعاد إليها . وذهب إلى
مصيفه في الحدث « بجبل لبنان » ، ولم يمض على عودته ثلاثون يوماً حتى توفاه
الله غير متجاوز من العمر تسعة وعشرين ربيعاً ، « كان رحمه الله طويل القامة
والعنق مع انحناء قليل ، أبيض اللون . براق العينين ، عريض الجبهة بارزها ،
جمهورى الصوت ، طلق اللسان ، نبت الجنان ، لطيف الحديث ، ذكياً نبهاً ،
مقداماً حاد الذهن « أرى النفس ، سليم القلب ، حسن الطويلة » .

« كان زهرة الأدب في الشام ، وريحانة العرب في مصر ، لو فسح الله في
عمره لخدم الأوطان خدمات قل أن يستطيع سواه مثلها الخ » .
قالت مجلة الهلال في نهاية تأيينه :

« وإنما يؤخذ عليه رحمه الله تساهله في طرق معاشرته ، وإطلاق هوى
النفس فيما تسوق إليه الشيبية حتى أثر ذلك في مزاجه ، وعجل منيته ، فقصفت
غصناً وطيباً لم يبلغ ثلاثين ربيعاً ، ولأريب عندنا أنه لو عمل بالقانون ، وأصنى
لنصيحة الشيخ الرئيس ، لعمر طويلاً ، وخدم الأوطان خدمات قل أن يستطيع
الناس مثلها ، والله في عبادة حكمة لا تدركها العقول .

وهكذا رثته الصحف في مصر والشام ، ورثاه رجال الأدب على اختلافهم
رثاء حاراً لا يتسع المجال لهذا لوصفه ، أو للإلمام به .

الفصل الثالث

أسلوب أديب إسحاق

من قراءة حياة أديب إسحاق نعلم أنه كان مثقفاً بالثقافتين العربية والفرنسية ، تعلم مبادئهما بالمدرسة ، ثم ترك وشأنه فيهما ، لخدمتهما بمجده الشخصي ، وذلك بأسرع مما لو كان بالجامعة حيث المنهج والاساتذة ، وبجسبنا أن نعلم أن أديب إسحاق قام بترجمة روايات فرنسية كثيرة ، كرواية « أندروماك » ، ورواية « شرلمان » ، وهو بعد لم يتجاوز العشرين من العمر .

والحق أن بينه وبين الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده فروقا من نواح عدة : منها الثقافة ، والخلق ، والمزاج . فأما من حيث الثقافة فأديب إسحاق يحذق العربية والفرنسية ، وله كتابات ومؤلفات فيهما معاً ، على حين أن الشيخ محمد عبده لا يعرف غير العربية ، وأما من حيث الخلق فأديب إسحاق أدنى إلى التحلل من القواعد الدينية ، في حين أن الشيخ محمد عبده رجل ورح القلب نقي النفس شديد الغيرة على الدين وآدابه كما سنعرف . وأما من حيث المزاج فأديب إسحاق رجل ناثر الأعصاب ، سريع الهياج ، في حين أن الشيخ محمد عبده هادئ بطبعه ، لا يحتاج إلا إذا اتصل بأستاذه السيد جمال الدين الأفغاني كما سنشرح ذلك فيما بعد .

على أن هناك فرقا أهم في نظرنا من جميع الفروق المتقدمة ، وهو فرق من ناحية الأسلوب . ويمكن أن يتلخص هذا الفرق في كلمة واحدة لها تفصيلها فيما بعد ، وهي أن أسلوب أديب إسحاق أكثر جمالا من أسلوب الشيخ محمد عبده . وهما بعد يتفقان في قوة التأدية . ومصدر الجمال في أسلوب أديب إسحاق أشياء كثيرة ، منها سرعة الانفعال عند هذا الشاب ، مما يجعل أسلوبه إلى طبيعة الشعر أدنى منه إلى طبيعة النثر ؛ ومنها تلوين الكلام عنده بالمحسنات اللفظية والمعنوية ، مع قدرة ظاهرة على هذا التلوين في غير تكلف بمقوت ولا صناعة مردولة ومنها الثقافة الأجنبية ، وهي التي زودت أديب إسحاق بالمعاني التي لا سبيل للأستاذ الإمام (م - ٣ أدب المقالة ج ٣)

إليها . وباختصار نرى أن أسلوب أديب إسحق يلد الأديب أكثر من الصحفي . وربما كان الأمر على عكس ذلك بالقياس إلى أسلوب الشيخ محمد عبده . وما تقدم أيضاً في ترجمة أديب إسحق نعلم أنه كتب في الصحف الآتية :

(١) صحيفة التقدم ببيروت (١) .

(٢) صحيفة مصر الفتاة الصادرة بالإسكندرية عام ١٨٧٩ (٢) .

(٣) صحيفة مصر الصادرة بالقاهرة ثم الإسكندرية .

(٤) صحيفة التجارة بالإسكندرية .

(٥) صحيفة مصر القاهرة . الصادرة بباريس سنة ١٨٨٠ .

جريدة النفرم :

فأما جريدة التقدم فلم تسكن له ، وإنما تولى تحريرها ثلاث مرات في حياته : الأولى قبل سن العشرين يوم آثر العمل في الصحيفة على المضى في مزاوله العمل بالجرم . والثانية بعد عودته من باريس وإنشائه جريدة (مصر القاهرة) فيها . والثالثة بعد عودته من مصر عقب قيام الثورة العراقية ونشوب الفتنة بين المصريين والسوريين ولم نستطع نحن للأسف أن نحصل على نموذج لأديب إسحق من مقالاته في صحيفة التقدم حين كان يتولى تحريرها للمرة الأولى ، وإن كنا نرجح أن أسلوبه في هذه المرحلة كان أميل إلى السجع ، وأكثر تكلفاً للمحسنات اللفظية .

ولكنه حين تولى تحرير التقدم للمرة الثانية كان أسلوبه قد تكوّن وتكامل في مصر ، وازداد في باريس قدرة على توضيح أفكاره ، ومسايرة انفعالاته . فلما أتى إلى بيروت كان يشارك في إصدار الجريدة مرتين في الأسبوع . وإذا ذلك قال في مقدمة العدد الأول من أعدادها :

النموذج الأول

وتعدد مظاهر الوجود في السكائن الموجود ، فيتدرج في مراتب الكمال بما له

(١) انظر منتخبات جريدة التقدم في كتاب الدرر ص ٢٧٢ .

(٢) انظر منتخبات جريدة مصر الفتاة في كتاب الدرر ص ١٢٤ .

من معدات الكون والبقاء ، والحركة والنماء ؛ فلا تأسف على الحبة مدفونة في الأرض شتاء ، إنها ستنبث نامية تتوجا (١) ، ولا تبتك على الشجرة مجردة في الخريف ، إنها ستبدو في الربيع خضراء تسر الناظرين ، ولقد أتى على هذه الصحيفة حين من الدهر دفنت فيه حبة قصدها ، ووجد غصن نفعها بما طرأ عليها من حوادث الأيام ، وعاديات الحدثان . ثم تجلت بهذا المظهر ، ولم تنشأ من العدم البحت ، ولم تبد بعد المحو المطلق ، ولكن تقمصت من الحياة ثوباً جديداً فهي الآن رسوا ، رجائنا إلى الذين عرفنا من أحباء الأدب ؛ تصدروا ليهم يوم الإثنين ويوم الخميس من كل أسبوع ، مشتملة على المهم من أخبار السياسة ، والراجع من آراء ذوى النقد ، والنافع من شذور الأدب ، والمأثور من خطرات الأبواب ، نجمع فيها السياسات تحصيلاً ، ونبسط الأدبيات تفصيلاً ؛ لانسود منها بالرياء وجهاً ، ولا نملأ لها بسفاسف القول وطاباً وإن سطرأ بما يؤلف بين القلوب خبير من فصل ؛ تختلف عليه الآراء ، وإن كلمة بما تدعو إليه الحكمة ، لأنفع من كتاب بما تبعك عليه الأهواء . وقد اخترنا لها ما يرى في هذا المثال من الترتيب والتبويب ، معولين فيه على عذوبة المورد ، وسهولة المقصد ، وجودة الإيضاح ؛ لا تتكلف لجميع ذلك إلا الإفهام ، ولا نعتد غير تقدير المعاني في الأفهام ، من أقرب وجوه الكلام . وما ندعى في هذا الأسلوب كالأول ولا إحساناً . إن هو إلا جهد مقل ينطق عن غيرة وإن فاته العلم . ولو فعل كل امرئ ما يستطيع من منفعة لما رأينا على سطح الأرض شقيماً . فإذا بلغنا المأمول من القبول ، فنتك يد عندنا لذوى الفضل والحلم ، من أهل العدل والعلم ولا نحسبنا من العذر بذل الجهد ، ومن التأساء (٢) حسن القصد ، مقضياً علينا بالعجز ، ولا نرجم محكوماً علينا بسوء النية ، نعرف بالضعف في جملة كثير من الأنام ، ولا نوى بنقص القادرين على التمام ، على أننا في أيام ليست كالأيام ؛ وموقف ضنك المقام .

د نعم . إن دولتنا العلية ، حقق الله بها آمالنا وأصلح بعنايتها أحوالنا ، قد وضعت للطبوعات قانوناً ليناً في غير ضعف ، ووازعا في غير عنف ، يؤمن

(١) التوج : التي جان فاجها .

(٢) الاقتداء .

المستعصم بعروة الحق والصدق ، ولكنتنا بين أمور عظام ، ومشاكل جسام ، لا يفتنى في مباحثها حسن النية ، ولا تكنى سلامة القصد ؛ فربما انحبس عنا القول من حيث لانعمد فعلا ، وربما ضاق علينا المجال من حيث نرى مجالا ،

د بل لا ينحبس القول ، ولا يضيق المجال إن للتقدم أنصاراً من أهل الخبرة العملية ، وأولياء من أهل النجدة الأدبية ، لا يرضون عليه بما يجدون من فرائد فوائدهم ، وفواضل أفضالهم ، وليس ما يجدون من ذلك قليلا .

فانظر كيف بدأ مقاله الافتتاحي بقوله « تتعدد مظاهر الوجود في السكان الموجود ، معبراً بذلك عن عودة (التقدم) للظهور .

ثم انظر إليه كيف ساق هذا التشبيه المحسوس الذي يدل على أنه أديب ، وهو قوله « فلا تأسف على الحبة مدفونة في الأرض شتاء ، إنها ستنبث في الصيف نامية تتوجأ (أى كثيرة الإنتاج) الخ .

ثم انظر إلى الكلام الذي يورده الكاتب موارد الحكم كما في قوله « إن سطرأ ما يؤلف بين القلوب لحير من فصل ما تختلف عليه الآراء ، ، وقوله « إن كلبة ما تدعو إليه الحكمة لأنفع من كتاب ما تبعث عليه الأهواء ، ، وإلى قوله « ولو فعل كل امرئ ما يستطيع من منفعة لما رأيت على سطح الأرض شقيماً .

وانظر كذلك إلى التضمنين في قوله « ولا نرى بنقص القادرين على التمام ، ، وإلى ختامه في قوله « نرحم مقضياً علينا بالعجز ، ولا نرحم محكوماً علينا بسوء النية ، .

مهما يكن من أمر فإن مقالات الكاتب التي كتبها في جريدة التقدم ببيروت لا تعيننا كثيراً بقدر ما تعيننا مقالاته التي كتبها في صحفه بصر ، وأهمها فيما نعلم صحيفتان ، هما : (جريدة مصر) التي قلنا أن مقرها كان بالقاهرة ، ثم انتقل بها إلى الإسكندرية ، و (جريدة التجارة) التي جعل منها رداً لجريدته الأولى وأختاً لها . غير أن هذه الأخيرة لم تدم لصاحبها كثيراً إذ عطلت بعد العدد الخامس عشر من أعدادها ؛ بسبب المقالات الثورية التي كان يكتبها أديب بعنف في هذه الجريدة .

ولقد كان الموضوع السياسي الهام الذى يشغل بال الصحافة المصرية فى تلك الفترة ، ذاشقين : الشق الأول يتصل بالسياسة الخارجية ، وأهم ما فيها الحرب الروسية التركية ، والشق الثانى يتصل بالأحوال الداخلية المصرية ؛ وأهم ما فيها مسألة الدين ، وهى المسألة التى عجلت بتدخل الدول الأجنبية ، ومكنت إنجلترا وفرنسا من الإشراف على مالية البلاد ، وجاءت روسيا تزيد الطين بلة ، وطلبت خراج مصر رهناً تسدد منه تركيا غرامة الحرب . فسكتت الصحف المصرية فى كل ذلك ، وكتبت فى موضوع الحرية ، كل بطريقتها الخاصة ، وكانت طريقة أديب إسحق فى ذلك الوقت تقوم على وصف الحريات التى تتمتع بها الدول الغربية ، وكانت ثمرة لجهادها فى سبيل الحصول عليها .

جريدة مصر^(١) : سنة ١٨٧٧ (٣٠ يوليو : تاريخ صدور العدد الأول) من أجل هذا كتبت أديب إسحق فى جريدة مصر عام ١٨٧٨ — أعنى بعد مرور سنة تقريبا على إنشاء هذه الجريدة مقالا بعنوان (الملك والرعية) تحدث فيه عن الملك الاستبدادى والملك الشورى ، ليصل من ذلك إلى السخرية بنوع الحكم الروسى ؛ ثم قال :

النموذج الثانى

« ولم يكف الروسية بقاؤها مستبدة على حين تحول سائر الدول إلى الشورى ، حتى كانت سبباً فى توقيف غيرها عن ذلك القصد النبيل ، فإنها قد منعت الدولة العثمانية حيناً عن إنجاز ما شرعت فيه من إصلاح دخليتها وتنظيم شوراها بهذه الحرب المنيفة التى دعا إليها الفرور . على أن الدولة العثمانية لم تكن لينعها من ذلك مانع ، فإنها لم تهمل ذلك الشأن مع اهتمامها بالدفاع عن وطنها الخ » .

إلى أن قال « وغاية ما أرجوه أن أرى حكومة الدولة العثمانية حكومة شورية ، والله أسأل أن يؤهلى لصنع الخير فى قوسى ، ويجمع على محبى قلوبهم ، ويمينى على أن أقيم فى بلادى بعد هذه الحرب الظلمية ، حكومة جيدة تضمن لها مستقبلاً حسناً » .

(١) كانت جريدة مصر أسبوعية . وأما شقيقتها (التجارة) فكانت يومية ، وصدر أول عدد من أعدادها بتاريخ ٢٣ مايو سنة ١٨٧٨ .

وأثنى أديب إسحق في هذه المقالة ثناء مستطاباً على السلطان . وكان يصدر في جميع مقالاته في الواقع عن ولائه له ، ونظره إلى كل مصرى وسورى على أنه عماني .

ثم كتب أديب إسحق بعد ذلك في (الحرب) ، وفي (جرحى الحرب) ، وفي (إغاثة الجرحى) ووشى هذه المقالات بالأشعار والمقابلات ؛ فن الأشعار التي استشهد بها قوله .

النموذج الثالث

الحرب أول ما تكون قتية تسمى بريتها لكل جهول
حتى إذا سميت وشب سراها عادت عجوزاً غير ذات خليل
شطاء جزت رأسها وتنكرت مكروهه للشم والتقبيل

ومن هذه الكلمات في وصف جرحى الحرب قوله :

في معترك أومضت فيه بروق المرهفات ، ولعلمت رعود المدافع قتلها غيوت
السكرات ، وسكرت السيوف بخر من الدم ، فمردت في الرؤس . وعقد العبير
لملك الموت سرادقا مطمئنا بالقنا والحيل ساغبة تقبل ثقالا ، وتعود خففا ، وكأنها
وقد أعيها الفارس حياً غضبت على الإنسان فداسته هامة انتقاما . وقد
استحييت الشمس من خشوة الإنسان فاحتجبت بحجاب الضباب ، وتلملت
الأرض من أعماله فولول زلالها ، وكادت تخرج أثقالها ، فارتعد الرعديد ، وثبت
الصنديد ، ونادى منادى الحرب من فر من الموت وقع ، ومن كان ينوى أهله
فلارجع ، طريح على الأرض جريح ذو كبد حرى ، يستجير بإحدى يديه وفوق
السكبد اليد الأخرى ، يذكر خلية أو حلية ، ألمه فراقها مع أمل الرجوع ،
فا الظن به وقد اختفى نور ذلك الأمل ، ووالدة تأملت به حنيناً وأرضعته طفلاً ،
وربته ياقماً ، وسهرت عليه حالماً . ووالداً واساه في كتابته ، وسلاه في حزنه ،
وتوجع له في مصابه ، ثم تنجل له الدنيا بزخرفها وزينتها . فيرى مرير عذابها
حلواً ، وكدر مشاربها صفواً . فهذا هو الإنسان الجريح بسلاح الإنسان ؛
المطلوبة مساعدته من الإنسان (١) .

النموذج الرابع

ثم كتب أديب إسحاق فصلاً بعنوان (الأمة والوطن) . وآخر بعنوان (حرية الأفكار) والأخير موضوع الثورة الفرنسية ، بدأه بقوله :

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام
بل هي شعلة إصلاح كانت في كمن الدهر في عالم الضياء والنور . فساقتها
يد الحكمة بمعدات الحركة إلى عالم الظهور ، وسرت في أوروبا من جانب الغرب
الأقصى ، وكنت في ماوراء المانش أياماً وأعواماً ، منتقلة من صورة إلى صورة ،
ومن كيفية إلى كيفية ، حتى أعدت لها طريق البروز ، فظهر ضرامها بعد الخفاء ،
وانبعث منها جرائم الضياء ، فنيرت هيئة الأرض ، وحالة الناس . وطهرت ذلك
الجانب من الأراجاس : تلك ثورة الفرنسيين الخ إلى أن قال وإنما

نرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون له ضرام
فإن النهلست في الروسية ، والسوسيالست في ألمانيا ، طائفتان قد
استفجلا أمرهما وعظم شأنهما ، وحسبك أن فتاة من النهلست يقال لها
(ساسولتش) قد تجاسرت وهي في أرض السلطة ، تحت سماء السطوة ، أن ترمي
والى الشرطة بالرصاص عمداً . وأنه قام لها بين قومها نصراء وعامون ، وشفعاء
ومدافعون ، وأن قى من الطائفة الثانية يسمى (لمان) قد تجرأ وهو في أرض
القوة تحت سماء العظمة ، أن يرى الملك الفاتح الكبير بالرصاص ثلاثاً ... الخ ...

ثم أراد السكاتب أن يقول إن الشعلة التي استضاءت بها الثورة الفرنسية
قد انتقلت إلى الشرق موطنها الأول ، ولكنه عبر عن ذلك بطريقة أدبية شاقة
هي طريقة التكنية ، التي اضطرته إلى الشرح في غضون المقال ، وذلك حيث قال :

د ثم ذكرت تلك الشعلة وطنها القديم ، فحث إليه ، ولاغرو أن يمن
الغريب إلى وطنه (نعى الشرق) مقر جرائم الحركات الدينية والسياسية التي
غيرت هيئة الأرض ، وأحوال الإنسان ، فسرت إليه تنبه غافله ، وتفقه جاهله ،
وظهرت في بلاد (أهورا ما زدا) بين أبناء (زرو دشت) تحت سماء التقاليد
(نريد بلاد الفرس) فإن مذهب البابين نسبة إلى السيد علي محمد الملقب (باب

المهدى) قد ظهر في تلك البلاد منذ نحو ثلاثين سنة ، وعلق بقلوب الناس قمتذهب به جمع كثير منهم ، وأثاروا الفتنة على الحكومة .

وظلق أديب إسحق يذكر ما يعرفه عن أخبار هذه الثورة الأخيرة ، قائلاً إنه إنما يستمد جميع ذلك من بحر معارف أستاذنا الكبير الفيلسوف الشهير ، درة تاج الحكما . ، وواسطة عقد العلماء الفضلاء ، السيد جمال الدين الأفغاني نزيل المحروسة .

ومعنى ذلك إذن أن هذه المقالة الأخيرة إنما هي من وحي السيد جمال الدين . ورأينا له - أى لأديب إسحق - بعد ذلك مقالات أخرى في جريدة مصر بعنوان (أمانى وطنية) وبعنوان (توفيق مصر) وأكبر الظن أنه قصد في هذا العنوان الأخير إلى التورية ، وفي هذا المقال أثنى أديب إسحق كثيراً على ولي العهد الأمير توفيق ، وأتى بهذه العبرة التاريخية التي تفسر له حقيقة العظمة في نظره حيث قال :

النموذج الخامس

« فن لنا بنى همة عليية . ونفس ذكية ، ينصب قسطاس العدل في محكمة الإنسانية ، ليعلم الناس على اختلاف مراتبهم ، وتنوع مشاربهم . أن من أصلت سيفه ، وأعلن شره ، وقاد الرجال ، وسلك بهم مسالك الأهوال ، لحطام ينتهزه ، أو تار يدركه ، أو مقت يقوده ، لجعل رؤوسهم صوامع تصلى عليها وهبان الغربان ، وأجسامهم مطاعم للعقبان ، لا يقاس بمن أصلح من قومه ما فسد . وروج من أحوالهم ما كسد ، ورضى من الأجر ، بمحصول الخير ، ومن المغنم اندفاع الشر . وإن الإسكندر بجده اللامع ، وصيته الشائع ، لا يقاس بسنسناتوس الأكار الرومانى الذى انتخب قسلاً للجمهورية رومه عام ٦٤٠ قبل الميلاد ، فنهض بأعباء الخدمة ، وحمى أطراف الدولة والأمة ، ولما أتى من ذلك على ما فى الرغبة والنية ، عاد إلى مهنته يطلب منها رزقه . ثم ألت بقومه الأخطار ، فانتخبوه لحكومتهم رئيساً . وذلك عام ٤٥٨ قبل الميلاد ، فدفع الأذى عنهم ، ورد الراحة إليهم ، ورجع إلى شأنه الأول لسته عشر يوماً من رياسته . وفى عام ٤٣٨ انتخب مرة ثالثة لرياسة الجمهورية . وقد مر من عمره يومئذ ثمانون عاماً . فنهض بأعبائها ،

وأصلح خلها . ووجد بها نظام الأمن والراحة ، ثم استقال منها لواحد وعشرين يوماً من عهده بها ومع ظهور فضله ومزيبته في ما أجرى ، لم يقبل عنه مكافأة ولا أجراً !!

فما أجدر مثل هذا الرجل بالثناء والإكرام ؛ وما أولاه بالإطراء والإعظام ، بل ما أظهر الشبه بينه وبين ولي العهد توفيق مصر أعزه الله ، في ظل الجناب الوالدى الخديوى ، حفظ الله وجوده وصان علاه .

لى أن قال : وكيف لا يحمدون الله وقد خصهم بمليك :

لذكر الانام لنا فكان قصيدة وهو البديع الفرد من أياتها
وأمر :

رأيت جميع الناس دون محله فأيقنت أن الدهر للناس ناقد
ثم قال :

وقد علم قراء صحفنا أن ليس من شأنا الإطراء استجداء ، ولا الوقية اقتراء . وإنما ننظر إلى الفعل لا إلى فاعله ، وإلى القول لا إلى قائله . فإنه ليس وراء الصدق رفة ؛ وليس بعد الكذب ضعة ، والحق ملك لا ينكسر لواژه ، وإن قل أولياؤه ، فإن لم يشرب هذا الماء على صفائه . ولم يلبس هذا الثوب على بهائه . قرب نفيس رعى به من حائق ، ورب حسناء طالق وقد جاء في الأثر الكريم (من نشر معروفًا فقد شكره ، ومن ستره فقد كفره) .

إذا أنا لم أشكر على الفضل أهله ولم أذم الوغد اللئيم المذمما
فكيف عرفت الخير والشر باسمه وشق لى الله المسامع والنما ؟

وفى جريدة مصر أبلى أديب إسحاق بلاه حسناً فى الدفاع عن المصريين ضد الامتيازات الأجنبية . وما كتب فى ذلك فصل قيم عنوانه (أمانى) وجاء فى بعض هذا المقال .

النموذج السادس

ولا ريب فى أن امتياز بعض الناس عن بعض فى وطن واحد ، يلحق بذلك الوطن الضرر العظيم حساً ومعنى . ووجه الضرر الأول أن معاملة سفلة الإفرنج

بما لا يعامل به وجوه الوطنيين ، من الإكرام لغير علة ؛ والعمو عن الذنب الواضح ، قد بعثهم على التمرد ، فاعتسفوا وأفسدوا ما شاءوا ، بحيث لم يمض علينا يوم لم نسمع فيه بأن فلاناً الإبطالى أو المالمطى ضرب وطنياً بمخنجر ، فحمل الجرح إلى المستشفى ، والجراح إلى دار قنصله ، فأودع فيه غرفة رفيعة يأكل بها عيشه رغداً هنيئاً . ثم لم يلبث فيها أن أطلق ، فإزداد بما أكل شرهاً ونهماً . وعاد إلى مثل حاله السابقة ، وأما وجه الضرر المعنوى فهو أن انحطاط منزلة الوطنيين ، وانخفاض جناح ذلمم بالنسبة إلى الأجانب ، يولد فيهم الحسد والكسل ويشرب قلوبهم التهيّب والخوف ، فلا يهتمون الرعائب ، في طلب الرغائب .

وقد حان لهذه البلاد أن تتعش من عثرتها ، وتفلت من ربةتها ، بعد أن ضربت عليها الذلة ، وتطامن أهلها للرق صاغرين ، مئات بل ألقاً من السنين ، حتى ضربت الأمثال بطاعتهم الممياء ، للأمراء والرؤساء ، وكيف لا — وهم الذين احتملوا ظلم الفراعنة ، وقوة الرعاة . وعسف اليونان ، وجور الحاكم بأمره الذى لعب بهم لعبة الكرة والصولجان . . . ثم صبروا بعد ذلك على عتو الممالك وجندهم ، وفاهيك به صبراً لا تحمله الجمال ، بل لا تقله الجبال ولا نعمدهم على ذلك .

فغاية المفرط في سلسه كغاية المفرط في حربه وأنا لنجلهم عن أن يكونوا قد ألقوا الذل فرضوا به ، أو خافوا أن يكون الإكداء مع الكمد ، والخيبة مع الطلب ، فقالوا إن رزقنا سوف يأتينا نسعى له فيجدنا ، ثم نسكن قياتى ولا يعنيننا الخ . . .

والظاهر إن هذا المقال الأخير الذى كتبه أديب إسحاق كان من وحى السيد جمال الدين ، بطريقة مباشرة أو غير مباشرة ، لأنه من معينسه ، وعلى طريقته في تأدية هذا المعنى .

وحين انتقل أديب إسحق بجمريدة (مصر) إلى الإسكندرية ، سار على هذا النهج ، وكتب بهذا الروح ، وصدور عن هذه الثقافة الأوربية الواسعة .

ميريرة مصر القاهرة :

ثم انتقل الرجل بميريدته (مصر القاهرة) إلى باريس وهو على الحال النفسية التي أشرنا إليها ، فأخذ يكتب المقالات الحادة التي منها مقال له بعنوان « السعادة بعد الشهادة » ، جاء فيه قوله :

النموذج السابع

« الحمد لله وحده ، هذه صحيفة مصر ، طواها الاستبداد فانت شهيدة ، ثم أحيتها الحرية فعاثت سعيدة . ترسل إلى المردين والأولياء ، ونهاء القراء ، منبهة لإلهم أن قد آتاني الله نعمة الحرية ، ومن أوتي هذه النعمة فقد أوتي شيئاً كثيراً ، وسوف ترون مني رواية الصادق ، في رأى الآمل ؛ في عزم الآيس .

« حاول رياض باشا المتصدر في بلاد مصر إطفاء نوري ، وأبى الله إلا أن يتم نوره وإن كره الظالمون ! أمانتي بدعوى الحرص على الخواطر أن أثيرها إلى الفتنة ، بل خاف أن أكشف الحجاب عن حقيقة أحواله ، فزعم أنني ناصبته الشر ، نفرة منه وتشبهاً لسواه ، وما أنا في شيء من ذلك ، فإني أعز نفسي ، وأنبئ قصداً ، من أن تستميلني الأشخاص ، وإنما أميل مع المقاصد ، فسا كان منها ملائماً للشرب الذي أحسبه حقاً :

فذلك من دون المشارب مشربي وذلك ما بين المذاهب مذهبي
وما كان منها مغايراً للمبدأ الذي أراه عدلاً .

رमित به من حائق رمى حائق متى يرم لم يخطئ . وإن يبيع يدأب
« على أن ذلك شأن لا ترتفع إليه مدارك ظالمي ، فقد انحطت نفسه عن درجات المعالي ، فلم ير في جهادي غير القصد الذاتي ، فأخذني أخذ المعتدى القاسط :

وكان كذئب السوء إذ قال مرة لمعروسة (١) والذئب غرثان مرملة (٢)
أأنت التي في غير ذئب شتمتني فقالت متى ذا ؟ قال ذا عام أول
قالت :

ولت العام بل رمت غدرة فدونك أكني لاهني لك ما كل

(١) المعروسة النجدة . (٢) مرملة ملتصق بالرمل أوزيقى الجلد من الجوع .

بل دون أكلى خرط القتاد ، بل دونه عرين الآساد ، وسترى منى ناراً ،
شير شراراً تناديه جهاراً :

من أى وجه تحترق أم أى سوء تستحق
فالشر للشر خلق

على أنى لا أقصد الانتقام ، وإنما أروم مقاومة الباطل ، ونصرة الحق ،
والمدافة عن الشر وآله . والفضل ورجاله .

فسلكى أن أكشف حقائق الأمور ملتزماً بجانب التصريح ، متجافياً عن
التعريض والتلميح ، وأن أجلو مبادئ الحرية ، وآراء ذوى النقد ، وأن أبين
ما يظهره البحث من عواقب الحوادث ، ومقاصد أهل الحل والعقد ، وأن أوضح
معايب النصوص الذين نسميهم اصطلاحاً (أولى الأمر) ، ومثالب الخونة الذين
ندعوهم وهما (أمناء الأمة) ، ومفاسد الظلمة الذين نلقبهم جهلاً (ولاية النظام) ،
وأن أعين واجبات الإنسان الشرقى بالنسبة إلى نفسه ، وإلى قومه ، وإلى بلاده ،
وما يقابل تلك الواجبات من الحقوق ، وقصدى أن أثير بقية الحمية الشرقية ،
وأهيج فضالة الدم العربى ، وأرفع الغشاوة عن أعين الساذجين ، وأحيى الغيرة
في قلوب العارفين ، ليعلم قوسى أن لهم حقاً مساوياً فيلتمسوه ، ومالا منوباً
فيطلبوه ، وليخرجوا من خطة الخسف ، وينبذوا عنهم كل موالس (١) يشترى
بمقوقهم ثمناً قليلاً ، وينديقوا الخائنين عذاباً ويبيلا ويستصغروا الأنفس والنفائس
في جنب حقوقهم ، ويستمتبوا في مجاهدة الذين يبيعون أبدانهم وأموالهم وأوطانهم
بما يطمعون فيه من رفعة المقام فن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون ماله
فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد ، ومن عاش بعد أولئك الشهداء
فهو سعيد .

هذه الحدة البالغة ، والثورة الجارحة ، كان الشاب يكتب مقالاته في باريس ،
لا يحنى بطش حاكم يردده إلى الهدوء والاعتدال ، ولا يحسب حساباً
لقانون المطبوعات .

(١) الموالسة الخداع والحياطة ، ووالم الحديث مرض به ولم يصرح : المحيط

وقد اشتمل هذا العدد على مقالات أخرى بعنوان (أوروبا والشرق)
« وسياسة الإنكليز ، و « وزاره الفرنسية ، و « المفتشان العموميان بمصر ،
« والمسألة السكبية (١) في مصر ، ومقالات بعنوان « خرقاء ذات
نيقة (٢) موضوعه التهم برياض باشا ، ومقتطفات أخرى .

وبودي لو استطعت أن أنقل للقارىء جميع المقالات التي اشتمل عليها هذا
العدد . إذ هي في حقيقة الأمر تستحق أن نبذل في نقلها هذا الجهد ، ولكفي
مكتف هنا بفقرات قليلة من المقالتين الأولى والأخيرة على سبيل المثال ، وسأعود
إلى المقالات الأخرى عند الحاجة إلى ذلك ، فمن مقالة بعنوان (أوروبا والشرق):

النموذج الثامن

« قضى على الشرق جهل عامته ، واستبداد خاصته ، وخيانة زعمائه ، وتعصب
رؤسائه ، أن يهبط بعد الارتفاع ، ويذل بعد الإمتاع ، ويكون هدفا لسهام
المطامع والمطالب ، تعبت به أيدي الأجناب ، من كل جانب فمنهم من يغير عليه
بمحبة الغيرة على الإنسانية ، ومنهم من يتطرق إليه بدعوى إقامة أمر المدينة ، ولم
تر منهم من صدق في دعواه ، بل كلهم تابع في ذلك قصده وهواه .
ثم قال بعد فقرات :

« فإذا لم يتعبه الشرقيون من غفلتهم ، ولم ينبذوا عنهم التقاليد الموجبة لتفريق
كلمتهم . ولم يغذوا ألباب صغارهم بغذاء الحرية ، ولم يرسموا على ألواح صدورهم
رسم الوطنية ، ولم يعرضوا عن وعيد الخائنين ، ولم يقوموا بأمر السراة الصادقين
ولم يفضبوا لوطنهم أن يفضب ، ولما لهم أن ينهب ، ولحقهم أن يسلب ، ولجدهم
أن يذهب ، فما يلبثون أن يصيروا عبيد أعدائهم ، وأسراء نزالهم . لا ترى فيهم
بعد حين غير البواب يرفع الصنارة ، ويسدل الحجاب ، والفراس ، يضع الوسادة ،
ويهدد الفراش ، والسكناس يزيل الغبار والأرجاس ، والسائل ، يطلب الصدقة

(١) ضاع لفتصل أجنبي في مصر كلب فقامت الحكومة وقعدت ، فأخذ أديب إسحاق
من هذه المسألة موضوع مقال سخر فيه من الحكومة المصرية سخرية مرة « انظر الدرر
ص ١٨٠ .

(٢) النيقة ؛ بوزن ربيعة : اسم من التنوق في الأمر ، وهو التأنيق فيه . وهو مثل
يضرب للجاهل بالأمر ومع ذلك يدمى المعرفة .

بالدمع السائل ، أما الأمراء فيحرقون ، وأما الأغنياء فيفتقرون ، وأما النبهاء فيهجرون .

« أليس الموت ، خيراً من هذا الفوت ؟ أليق بذي الدم الشرقي أن يصبر على هذا العسف ؟ أم يحسن بذي النفس الزكية أن يرضى بهذا الحسف ؟ أم لا يعلم قوماً أنه :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى حتى يراق على جوانبه الدم

النموذج التاسع

وأما المقال الأخير الذي (عنوانه خرقاء ذات نيقة) فبسطه بقله يخاطب رياضاً :

خلا لك الجو فيضى واصفري وقرى ما شئت أن تنقري
لا بد من صيدك يوماً فاصبري !

وختمه بقوله :

وإذ ما خلا الجبان بأرض ، طلب الحرب وحده والنزلا
ومضى (أديب إسحق) يحرر الأعداد الأخرى من جريدته على هذا الفرار ، وهو يتحدث عن الشرق وآلامه وعن الوطن وحقوقه ، وعن الاحتلال وسياسته وعن رياض وحكومته ، وعن المسألة الشرقية وغيرها من المسائل الأخرى . وكانت مقالاته لا تخلو من رصانة في الأسلوب ، وحلاوة في التعبير ، وقدرة على التهمك ، وقصد إلى التناول على الرئيس رياض بنوع خاص . ثم في هذه المدينة الأوربية التي كان أديب إسحق ينعم فيها بالحرية وهي مدينة باريس ، طفق يكتب الفصول الرائعة والمقالات الدائمة ، في موضوع الشرق وذله ، والغرب وعوته ؛ كما أخذ يندد بالاستعمار وجبروته ، والظلم وسطوته ، ويتحدث إلى المصريين وغيرهم من الشرقيين عن المجالس النيابية الأوربية ، ويوازن بينها وبين المجالس النيابية المصرية والعثمانية ، ويسخر في أثناء ذلك سخريه مرة من الحال السيئة التي وصل إليها المصريون والعثمانيون ، ولا يكتفي الكاتب هنا بإيراد الأمثلة على الحياة النيابية السليمة في فرنسا ، بل يرجع بذهنه وبقرائنه إلى التاريخ اليوناني أو التاريخ الروماني القديم ، فيستمد منها أمثلة حية يحث المصريين على

اقتداها والسعى وراءها ، وبلغت هذه المقالات غايتها من الحاسة والقوة في فصل له بعنوان « نفثة مصدور ، سنأتى على طرف منه .

ثم في أوقات قليلة كان هذا الصحفي الثائر يخلو إلى نفسه ، ويمجنح إلى شيء من الراحة والهدوء ، ويشغل بأبحاث هادئة ، موضوعها تاريخ العرب حيننا ، وتاريخ المصريين وخدم حيننا آخر ، وتاريخ جمال الدين الأفغانى حيننا ثالثا ، ثم تاريخ الكتابة الإنشائية وهكذا .

ويطول بنا القول لو أردنا أن نقبس شيئا مما كتبه أديب إسحق في هذه الفترة لنعرض منه نموذجا كاملا للقارىء . والحقيقة أننا لا نجد في هذه الفصول قطعة أبلغ من الأخرى ، فنحن مضطرون إلى الاكتفاء هنا بجزء يسير مما كتبه تحت عنوان :

النموذج العاشر

نفثة مصدور :

« وأنا تحت سماء الإنصاف ، على أرض الراحة ، بين أهل الحرية ، أسمع
الحانا في مجالس العدل ، فأذكر أنين قوى في مجالس الظلمة ، وتحت سياط
الجلادين ، فأنوح نوح الثاكلات ، وأرى علامم النعمة ، في معاهد المساواة ،
فأذكر شقاء سربى في ربوع الظلمة ، فأذرف الدمع بترجا بسواد القلب ، فأكتب
به إليهم .

« يا قوم ، ظلمتم غير معذورين ، وصبرتم غير مأجورين ، وسعيتم غير
مشكورين ، فهلكتم غير مأسوف عليكم . تصبرون على الظلم حتى يحسبه
الناظر عدلا ، وتبتسمون للقيد حتى يظنه الناقد حليا ، وتحفضون للظالمين جناح
الذل حتى يقول من يراكم ما هؤلاء بشر إنهم إلا آله سخرت للناس يفلحون بها
الأرض ويزرعون .

« يقلب الجائرون عليكم أنواع المسكيد ، وأصناف الحيل ، والأوان
الخداع فيما يختلسون ، كما تقلب المشعوذه لدى الأطفال أوجه الودعات في

استخراج ما يضرهم ، فتارة يضرهم المغارم ، تهميد المسالك ، وإنشاء المنافع ،
وأثرة يضرهم الإتاوات ، لإصلاح الشئون ، وإعزاز الدولة ، وحينما يرسمون
بالضرائب لصيانة الحقوق . وتأيد الاستقلال ، وآونة يجلبون المسال قرصاً
يحفظونه لكم على سبيل الأمانة ، حتى إذا ملئت بأموالكم الخزان ، ولم يبق
على أبدانكم ما يباع ولا في دياركم ما يرهن . سلم الظلمة المنافع التي أنشأتم ،
وباعوا المسالك التي مهدتم . وأذلوا الدولة التي عززتم ، وأضاعوا الاستقلال الذي
أيدتم ، وأكوا الأمانة ، فهي في أحشائهم نار يصلون سعيها وهم في جحيمها
خالدون ، إلى أن قال :

« ولقد رأيت من نواب الفرنسيين من يصعد المنبر فيقول لرجال الدولة
ترومون وضع هذا القانون ، وإبرام ذلك الحكم ، وتقض هاته العادة ، فاعلموا
أن هذا القصد مخالف لمصلحة الزارع ، مباين لمنفعة الصانع ، مغاير لحقوق التاجر ،
وإني أعارضكم فيه وأنكره عليكم . فإن كان ما يقول حقاً أيدهت خالوية الآراء ،
فيعدل أهل الدولة عما عزموا عليه . امثالا لإرادة الأمة ، فتذكرت زارعكم بين
شيخ يأمره وعميده ينهيه ، ومأمور ينهيه ، ومدير يجلده ، ووزير يتصرف في ماله
كيف شاء ، وصانعكم بين شرطي يسرقه ، وضابط يصادره ، وحاكم ينفسه .
وتاجركم بين مكاس يظلمه ، وجاب يسرقه ، وناظر لا ينصفه ، فقلت :

« ورأيت فلاحهم في حقله الصغير يتناول الطعام أكلا مريثا ، وينام القيولة
نوماً هنيئاً ويأوى إلى البيت قياً كل بين عياله ، ويتلو عليهم صحيفة النهار ، ثم
ينام ملء عينيه لا يحلم بصوت المأمور . ولا يتصور عصا الشيخ ، ولا يذكر حبس
المدير ، فتخيلاتكم بين السواق والأنهار ، تشتغلون سحابة اليوم لتجتمعوها على
القصة السوداء ، فتلتموها فئات الثمير ، وتسكبوا على التربة ، فتشربوا الماء
الكدر ، ثم تعودون إلى الأرض المريئة تزرعونها والغلة الوفيرة تمصدونتها ،
لتنصرفوا إلى أكواخ بالية ، تشبه قبوراً توالى عليها السنون . فيجتمع من حولكم
صغار لا تعرف أبدانهم الوفاء ، ونساء تعوضن الأقدار عن الكساء . ثم يأتيكم
المأمور سالبا ، والشيخ غاصبا ، والمدير ناهبا ، فأتم في بلاء مستقر ، وعناء مستمر

تحصدون البر ولا تأكلون . وتماكون الأرض ولا تسكنون ، فقلت ما علة هذا الفرق بين الطائفتين :

والناس من جهة المثال أكفأ والأصل فيما يقال الطين والماء . فأجابني لسان الحال دع الطين والماء . في صحف القدماء ، فهو العلم يعز طلابه ، ويذل أربابه والأقدام ترتفع به النفوس ، والوهن تنخفض معه الرؤوس .
« ورأيت دولتهم تسكأء بالمال رفيع الشأن من أئقد المستهلك . وأجار الخائف ، ورد المقتال ، فتصورتم على ضفة النهر تبصرون الغريق في اللجة ثم تصرفون عنه وجوهاً لا تجهل الحياء ، وتعصون فيه قلوباً لا تنكر الرحمة ، تخافة أن تنقذوه فيأتيكم المأمور سائلاً من الرجل ، وفيه غرق وكيف لم تخرجوه حياً ، ثم لا يسمع من المنقذ جواباً ، ولا يطلق له سيلاً ، حتى يقرع باب مسمعه برنة الدينار ، ويحل عقدة ظلمه برقية الرشوة ؛ أو تشد رجله بيده ، ويده بعنقه ، وعنقه بالقيد ، وقيده بوترد السجن ، فقلت ما لقومنا يظلمون أحياء ، ولا يأمنون العسف أمواتاً . فأجابني لسان الحال : هو الذل أمات أنتمكم فصرتم أشباحاً بغير أرواح تنطقون ، ولكن بحكم العادة ، وتسعون ، ولكن بمركة الاستمرار ، ذلك بأن رضيتم بموت الذل حرصاً على البقاء ، ولم تعلموا أن وجود الدليل عين الفناء ، فعدت إلى الدمع أذرفه ، واللهفة أرددها ، والزمان أعاقبه ، ثم نظرت إلى السماء نظرة آيس يوشك لولا العقيدة أن يقول : أى قضاء ظالم قدر علينا هذا الخسف ، وأى حكم قاسط أنزل بنا ذلك البلاء ، فغشيتني نور الرجاء ، وخاطبني لسان الأمل ، من وراء حجاب الإخلاص ، بما سأبديه في كتابي الثاني إن شاء الله . »

* * *

وهكذا طفق هذا الطائر الفرد - وقد أحس نفسه طليقاً في مدينة النور - يردد شجوه وشكواه من الظلم الذي يرسف فيه المصريون والشرقيون ، ويتغنى بالحرية التي ينعم بها الفرنسيون والأوربيون ولقد شجاه هذا النوح ، واهتزت أوتار قلبه لهذا النغم فاستمر في شجوه ونغمه وهو يقول :

(م ٤ - أدب المقالة ج ٢)

« لقد آليت أن أبكي الحق في مصر حتى يعود مخضر العود ، فإن عاد فلا أسف على البقاء ، وإن لم يعد فعلى الدنيا العفاء . » وفي قوله :

« على أنكم لم تأتوا من منكر يوجب هذا القصاص الأليم ، بل أستغفر الله ، فقد أتيت منكرًا لا يغفر » في صبركم على المنكر ، ومن أغضى عن المنكر على علم به ، ومقدرة على إزالته ، فقد شارك أصحابه ، واستحق عقابه ، وأهملت ما حق عليكم ، فلا غرو أن تحرموا ما حق لكم ، (١) ،

وبقى هذا الكاتب الشاعر في باريس يهتف بالحرية ، ويسبح بمحمد ما في صحيفته ، وهو كلما جرى على لسانه لفظ الحرية ذكر الثورة الفرنسية ، ورد إليها الفضل في إطلاق الإنسان من الأسر والعبودية ، وانظر إليه قد بدأ فصلا من فصوله في هذا المعنى بقوله (٢) .

النموذج الحادى عشر

« أبدأ مقالى بالثناء على جرائم الضياء التى بعثتها يد العزيمة ، من أفق الحكمة ، فانشق بها ستر الظلام عن ذات جمال ، كلها الحسن بتاج السكال ، فجرت على هام الأوهام مطارف ثوب نسجته يد الصبح ، بغزل شعاع الشمس ، فانبهرت بها مقل الظلام ، ورأها نبهاء الناس نوراً على نور ، فرغموا لها بينهم مناراً ، وأوقدوا من حولها ناراً تهدى قوماً وتحرق آخرين ، وما يحترق بها إلا المكابرون ، الذين يقاومون الحق بسيف الباطل وبئس ما كانوا يفعلون .

« ثم سرح طرف المقلة . في روضة تلك الطلعة ، وأجعل تلو استهلالي ، في رقعة إلهلال (٣) غزلاً أرق من الصبا ، وأحن من عود الصبا ، في قد لا يحاكيه الفصن ، وطرف لا يماثله الزجاج ، وخذ لا يعادله الورد ؛ ونغر لا يقارنه البرق ، وفرق لا يباريه الصبح ، وفرح لا يحار به الليل ، من صورة من تعشقها النفس ، ولا يدركها الحس . فهى مفردة بصفاتبا ، لا تشبه إلا بذاتها . يموت في حبها

(١) الدورس ١٦٧ .

(٢) الدورس ١٨٧ — ١٨٨ .

(٣) الإلهال رفع الصوت بالتكبير ونحو ذلك .

العشاق غيرة عليها . ثم لا يجمعونها عن المشتاق إليها فهي المورد يراه الظمان ،
والمأمن يجده الخائف ، والسبيل يلقاه التائه ، بل مقصد الساعي يناله بعد اليأس ،
وكلمة العفو يسمعها من كان على النطع . بل هي فوق ما يصف الواصفون ، وينعت
العارفون ، بل هي « الحرية ، وكفى بذلك وصفا لقوم يعقلون . الخ .

ثم أنبع ذلك بأبيات من الشعر ، أكبر ظني أنها من نظمه هو ، لا من
نظم شاعر سواه . وهي قوله :

إذا غاب وجهي عن حماكم لعله	فقلبي لديكم كل يوم يسلم
وما عاقني إلا عدو مسلط	يذل ويقص من يشاء ويرغم
ولم يستطل إلا بكم وبجولكم	ولا ينبغي أن يمنح العز مجرم
فكستموه فاستطال عليكم	وكادت بنا نيرانه تضرم
وجمع خوانا لصوصا أسافلا	ومناهم أن يقتلوكم ويضنوا
فصار له في كل يوم جباية	جباية آلاف تمهد وتحتم
وصار لأهل الشر روح وراحة	به ولأهل الخير صاب وعلقم
وأتم عليه صابرون لتؤجروا	ولكن صدم الشر بالشر أحزم ،

وعلى هذا النحو راح الرجل يتغزل بالحربة غزلا هو إلى الشعر أقرب منه
إلى النثر ، وذلك لما في هذا الغزل من شتى التشبيهات المتلاحقة ، والاستعارات
التي يتلو بعضها بعضا ، والصور البيانية التي ازدحمت في عبارته ازدحاما قل أن
يحتمله النثر الأدبي ، بله الصحفي . على أن أسلوبه في هذه العبارة لم يخل من تكلف
سنشير إليه في موضع آخر .

وأخيراً عاد السكاتب إلى مصر حيث أذن له - كما قلنا - بالعودة إلى
جريدة (مصر) ، فأخذ يكتب فيها فصولا عليها طابع الهدوء ، كما شرع يعالج
فيها أموراً أخرى غير السياسية البحتة ، كأمر التعليم وأمر السفور ، وبقي على
ذلك حتى اضطرت الظروف إلى مغادرة مصر إلى بيروت حيث التقى للمرة الثالثة
بجريدته القديمة ، ونعني بها جريدة (التقدم) كما رأينا .

من هذه النماذج القليلة التي استعرضناها لأديب إسحق نستطيع أن نقول في صراحة بالغة : إننا لا نبالغ كثيراً إذا نظرنا إلى هذا الصحفي الشاب على أنه من رواد النهضة الحديثة في النثر والترسل . بل إننا لا نتردد في أن أضغه على رأس الصف الأول من صفوة الأدباء الذين نهضوا بالنثر العربي من عقابه . وأضافوا على الكتابة الصحفية هذا الجمال ، ونهشوا فيها ذلك الروح وهبوا لها تلك الحياة والحركة .

والحق أن أديب إسحق رجل عماسى في نشأته الأدبية ، فقد نبغ في الأدب في سن مبكرة كما رأينا ، يدل على ذلك كثرة ما وضع من الكتب الأدبية ، وما ترجم من الروايات الأجنبية ، فلم يسكد يتم الثامنة عشرة من عمره حتى كان له ديوان شعر يزيد أبياته - فيما قيل - على ألف بيت ولقد طبع ديوانه هذا باسم (أنيس الجليس) وبعد هذا الوقت بقليل رأيناه يترجم قسماً من (معجم المعاصرين) وإن عجز عن تقديم ما ترجمه من هذا المعجم إلى المطبعة . وألف كتاباً سماه (نزهة الأجداد ، في مصارع العشاق) وترجم لصاحب جريدة التقدم كتاباً (في العادات والأخلاق) واشترك مع سليم الخورى في إنشاء كتاب (آناز الأدهار) وكان ذلك في التاسعة عشرة من عمره تقريباً . وفي باريس - كما رأينا - اشتغل بتأليف كتاب (تراجم أهل مصر ؛ في هذا العصر) وذلك كله عدا الروايات التي ترجمها كرواية (أندروماك) ورواية (شلمان) أو الروايات التي ألفها كرواية (الحادثة الصينية) ورواية (غرائب الاتفاق) وإن شاباً يشتغل بهذه الكتب جميعها ترجمة وتأليفاً وتصنيفاً ، ثم هو لا يقف عند هذا الحد حتى يروض نفسه على صوغ الشعر . ليعتبر أعجوبة من أعاجيب عصره ، حتى ولو لم تكن هذه الجهود التي أفقق فيها وقته قيمة إلى هذا الحد يرضى عنه ناقد أدبي ينظر إلى المثال الأعلى .

على أن شيئاً آخر يدلنا على ميول هذا الشاب الأدبية من جهة . ويزيدنا اقتناعاً بأنه من رواد النهضة الحديثة في النثر من جهة ثانية . وهذا الشيء هو أن (أديب إسحق) كان من أكثر الصحفيين في القرن الماضي عناية باللغة . وبسلامة

الأساليب . وانظر إلى أديب إسحق يقول في جريدة التقدم (١) .
« وأما مقصدنا الأدبي فهو تعميم التعليم بتقريب المعاني الأدبية ، والقضايا
العلمية لأفهام العوام ، وإيصالها لأذهانهم من طريق الصراحة المطلقة في
الكلام ، بحيث تكون عباراتنا الأدبية والعلمية قريبة المأخذ ، بعيدة من مواضع
الاشكال » .

وإلى قوله في جريدة مصر (٢) .

« ومنها . أى من الأمور التي التزمها الجريدة — تهذيب العبارة ، وتقريب
الإشارة ، وتنقيح الكلام ، وتقرير المعنى في الأفهام ، وإطراح ما يتجافى من
اللفظ عن مضاجع الرقة ، وما كان منه غريباً تنفر منه الخواطر ، وتشمئذ النفوس ،
فإنه لا عذر لمن يقول عققل ، وفي اللغة كثيب ، وقدموس ، وفيها قديم ، والشهر
المنصرم ، وفيها الماضي والسابق ، والغابر . والمنسلخ ، والمنحسم وكثير غيرها ،
وذلك مع تجنبنا مبتذل الكلام وسوقيه ، وأطراحنا فاسد التركيب وعامية فإنه
داء إذا سرى في عامة الناس أمات اللغة ، وأغلق على الطلبة معاني كتب العلم .

وإلى قوله في جريدة مصر أيضاً بعد انتقالها من القاهرة إلى الإسكندرية (٣) ،

وأي من الواجب على :

أولاً : أن أصرف العناية والاجتهاد إلى تهذيب العبارة ، وتقريب الإشارة ،
لتقرير المعنى في الأفهام ، من أقرب وأعذب وجوه الكلام ؛ واتقاء اللفظ
الرشيق ، للبعث الرقيق ، متجنباً ما كان من الكلام غريباً وحشياً ، أو مبتذلاً
سوقياً ، فإن التهاوت على الغريب عجز ، وفساد التركيب بالخرروج عن دائرة
الإنشاء داء إذا سرى في القراء والمطالعين أدى إلى فساد عام ، وأغلق على الطلبة
معاني كتب العلم ، والتنازل إلى ألفاظ العامية يقضى بإماتة اللغة وإضاعة محاسنها ،
وأن في لغة القوم لدليلاً على حالهم » .

(١) العدد ص ٣٧١

(٢) ص ١٠٨

(٣) ص ١٤٠

بل إن (أديب إسحق) لم يكتف بذلك حتى قام بطائفة من البحوث الأدبية في صناعة الكتابة ، على النحو الذي نراه في كتب النقد القديمة فكتب بعنوان « مطلب في صناعة الكتابة » (١) عن حد الكتابة وأقسامها ، وعن النثر المسجوع ، وعن رأى ابن خلدون في السجع والمرسل ، وأورد أمثلة من بليغ الكلام في كل ذلك ، وبحث في نشأة السجع في اللغة العربية ، ثم بحث في صفات الكتاب وما يحتاج إليه ، وتكلم في الأسلوب وما يراد بهذه الكلمة عند إطلاقها ، وبحث في اختلاف الأساليب باختلاف أصحابها ، إلى آخر هذه البحوث التي تنهض دليلاً قانعاً على تآصل الميول الأدبية في نفس هذا الفتى ، وعلى أنه كان من أصلح من رآهم القرن التاسع عشر للقيام بهذه المهمة الشاقة في ذلك الوقت ، وهي مهمة تقويم الأساليب العربية وإقالتها من عثرتها .

* * *

ونعلم أن منهج أديب إسحق السياسي قائم على تقوية الدولة العثمانية ، والعمل على توحيد الشعوب التي تألفت منها ، ورغم أن أديب إسحق كان عصبي المزاج ، فإنه كان في ميدان السياسة من دعاة الاعتدال . ولتلك الأسباب المتقدمة كانت عناية أديب إسحاق بأخبار الدولة العلية وبالشام لا تقل عن عنايته بأخبار مصر . وانظر إليه حيث يقول في جريدة التقدم حين تولى تحريرها للمرة الثالثة (٢) :

« وأما مسلكنا في الرواية فهو نقل الأخبار عن نطاق الصحة ، ومواضع الرجوع ، والتثبت فيها قبل النشر ما أمكن ذلك في صحف الأخبار بحيث لا نخطئ إلا معدورين . ثم إننا نتخذ منها ما كان بمصلحتنا أمس ، وبلادنا أقرب ، وباهتمامنا أحق مبتدئين بأخبار بلادنا العثمانية ، ثم بأخبار سائر الممالك الشرقية ، ثم بأخبار البلاد الأوربية ، أقربها قبل القرب ، وأهمها قبل المهم ، معولين في كل ذلك على الصحف الخطيرة المشهورة بصدق الرواية ، واعتدال الرأي ، .

وهذه العبارة وإن كان قد صدر بها جريدة التقدم ببירות إلا أنها توضح لنا السياسية التي كان يسير عليها بمصر .

(١) ص ١٤٠

(٢) الدر ص ٣٧٢ — وانظر مقالاه بعنوان (الإصلاح) — الدر ص ٣٣١ — ٣٣٨

وأما من حيث منهج أديب إسحق الاجتماعي فإننا نرى له عناية عظيمة بالأخلاق والتعليم العام ، ووجوب جملة إجباريا وفي متناول الجميع على السواء . فالجهد — في رأيه — ضعف ، والضعف يؤدي إلى الرذيلة (١) وكان يرى أن التعليم حق من حقوق المرأة . ولهذا كان من أكبر المدافعين عن حقوقها ، والمدافعين إلى رقيها .

واعتمد أديب إسحق في الإصلاح النيابي بمصر على طريقته التي أشرنا إليها ، وهي الموازنة بين حالة الأوربيين وحالة الشرقيين في ذلك . وقد رأينا كيف كان أديب إسحق يندد بالصريين ؛ بل يتهم بهم تهكما لا ذعأ ؛ ويسخر سخرية مرة من خوف المصريون الشديد من الأجانب ويكفي أن تقرأ له في ذلك كلمة عنوانها (المسألة الكليبية في مصر)^(٢) حكى فيها أن أحد رؤساء الإنجليز في مصر فقد له كلب ، وجعل من هذه الحادثة اليسيرة مسألة خطيرة ، قامت لها الحكومة المصرية وقعدت ، ولم يقر لأحد قرار فيها حتى عثر على كلب الرئيس الإنجليزي ١١

وانظر إلى أديب إسحق يبدأ كلمته هذه بقوله :

« لقد ضربت العرب الأمثال بالمناعة . فقالوا أمنع من عقاب الجو ، وأمنع من لمة الليث ؛ وأمنع من حمى كليب . ولكن ما كل كلام يصلح لكل عصر ؛ فأنا في الزمن الذي يقال فيه : أمنع من كلب الأجنبي في مصر . »

ثم سرد الحادثة التي حدثت سرداً أدبياً ؛ ووصف كيف انطلق القنصل بلباس الصيد إلى وزير الخارجية يطلب رجوع الكلب إليه أو يجعل أمره مسألة سياسية ؛ فاهتز الوزير لذلك اضطراباً ؛ وعد فقد الكلب مصاباً ؛ وكتب إلى مأمور الضبطية يقول . . الخ .

ولأديب إسحق في هذا الباب مقالة بعنوان (المقيم والمقعد)^(٣) لولا أننا في مقام التلخيص لذكرناها كاملة .

* * *

(٢) الدرر ص ١٨٠

(١) الدرر ص ٢٤٤

(٣) الدرر ص ١٧٨

مفاتيح الأسلوب عند أديب إسحق :

(وبعد) فقد كان علينا أن نأتي بمقال كامل لأديب إسحق أو مقالين كاملين .
ولكننا قد اكتفينا بالقطع التي اقتبسناها من أسلوبه ، ونستطيع بعد ذلك أن
نلخص مزايا الأسلوب فيما يلي :

أولاً : في أنه أكثر الكتاب الصحفيين جنوحاً إلى الزينة اللفظية ، يصطنعها
في صفحه ولا يكتفي بها في رسائله الإخوانية وكتبه الأدبية ، كما فعل غيره من
أدباء عصره . وهو يحب السجع ويميل إليه . فإن فاته السجع فإلى صنو السجع
في النثر العربي وهو الأزدواج ، وكان هذا السجع أو الأزدواج يشبع رغبة ملحة
في أعماق نفسه ، ويربح أعصابه في الكتابة ، ويتمشى مع حركاته العصبية التي
لا يجد مفرأ من الخضوع لها ، وذلك برغم أنه صرح بأن النثر المرسل من كل قيد
أفضل من النثر المقيد بالسجع وغيره ، ولم يكن في هذا الرأي الأخير إلا مقلداً
لابن خلدون وأمثاله من الكتاب ، الذين لم يجدوا في أنفسهم قدرة على التزام هذه
القيود . وكما كانت مدرسة البديع في الأدب العربي تميل إلى ثلاثة أنواع متلازمة
من أنواع البديع هي : السجع والجناس والطباق ، أو المقابلة ، فكذلك وجدنا
أديب إسحق يميل إلى هذه الأضرب الثلاثة المتلازمة ، ومن الأمثلة على جناسه
قوله : « حتى صارت مدارسنا دراسة ، لا مدارس بها ولا دراسة » (١) .

وقوله : « وقلوبنا تحترق في بلاد تحت رق » (٢)

وقوله « وإلا فما المحجاز محجوز الأنوار ، وما للشام مششوم الأحوال » (٣) .
ومن الأمثلة على الطباق عند قوله .

« فنفرنا إلى لقائه خفافاً وثقالاً ، وعرضنا للأخطار والعنا . أرواحاً وأموالاً ،
وقابلنا سواد ذلك العدو الأزرق ، ببيض خضبتناها بالدم الأحمر » (٤) . ولكتاب
البديع المسرفين في اتباعه سقطات لا ننحني على الناقد ، ولكن من الحق أن يقال عن
« أديب إسحق » أن سقطاته البديعية أقل من أن يعدها عليه النقد ، أو يطعنه من
أجلها الناقد الأدبي .

(٢) ص ١٩٤

(٤) ١٢٨

(١) الدر ص ١٢٠

(٣) ص ٢٠٢

وربما كان من هذه المفوات البديعية - في نظري أنا على الأقل - تلك العبارات التي وصف بها الكاتب أعضاء مجلس النواب المصري حيث قال :

« قنتطق أوتار أفواههم بما يضع لها الرئيس من تواقيع المآرب ، وألحان المطامع ، ليثبت ما يعربون عنه بالحن المقصود في سفينة أنغام الرياء ، والمعروفة بالوقائع المصرية » .

والشاهد عندي في قوله « سفينة أنغام الرياء » ، فليست أرى في لفظ « سفينة » أية مراعاة للنظير تتفق والألحان والأنغام والتواقيع (١) ؛ وأمثلة هذا التعميد قليلة كما قلت في أسلوب أديب ، وهي إنما تأتي من طبيعة هذا الشاب وقصده دائماً إلى أن يشق على نفسه في الأداء ، وأن يقرب التعبير الصحنى من الأدب الصرف ما استطاع .

ومن هفواته كذلك الإسراف في حشد ألوان كثيرة من البديع في جملة واحدة كما فعل ذلك بالجملة التي ذكرنا نصها وهي قوله :

« أبدأ مقالى بالثناء . على جرائم الضياء التي بعثها يد العزمة ، من أفق الحكمة . فانشق بها ستر الظلام عن ذات جمال ، كلها الحسن بتاج السكال ، فخرت على هام الأوهام مطارف ثوب نسجته يد الصبح ، بغزل شعاع الشمس ، فانبهرت بها مقل الظلام الخ » .

فهى عبارة وإن كانت جميلة إلا أن بها ضرباً من التعاضل في الكلام ، وانظر معي إلى جرائم الضياء ، ويد العزمة ، وأفق الحكمة ، وستر الظلام ؛ وهام الأوهام ، ويد الصبح ؛ وغزل شعاع الشمس ؛ ومقل الظلام ، كيف اجتمعت كلها في صعيد واحد ، وركب بعضها بعضاً في جمل لا تستغرق من المقال أكثر من ثلاثة أسطر .

ذلك ما قصدنا إليه من وصف أسلوب هذا الشاب في تلك الفقرة بالتعاضل ، أو اجتماع الصور البيانية وازدحامها على هذا النحو .

(١) كان الأول بالكاتب أن يستبدل بلفظ سفينة لفظاً آخر مثل صندوق . أو لوحة أو غيرها مما يتفق وأحوال الموسيقى .

ثانياً : لأديب إسحاق كلف ما يبراد كلامه مورد الحكمة ، وصوغه في قالب المثل وأكثر ما يكون في ذلك في نهاية الفقرة أو نهاية المقال . حتى تكون الحكمة بمثابة تلخيص جميل لمعاني هذه الفقرة . أو ذلك المقال ، فوق أنها تقوم فيهما مقام الاستشهاد بالشعر ، أو التسلق على كلام غيره من الكتاب والشعراء . وقد مرت بنا أمثلة كثيرة من أمثال هذه الكلمات لأديب إسحاق . كما في قوله . « ولو فعل كل امرئ ما يستطيع من منفعة لما رأينا على وجه الأرض شقياء » وقوله « أن كلمة مما تدعو إليه الحكمة لأنفع من كتاب مما تبعث عليه الأهواء » . « وأن سطرأ مما يؤلف بين القلوب لخير من فصل مما تختلف عليه الآراء » .

ثالثاً : على أن ذلك لم يمنعه من الاعتماد اعتماداً يوشك أن يكون تاماً على الاستشهاد بالأشعار . وقد أظهرنا أديب إسحاق من ذلك على مهارة فنية خليقة بالإعجاب ، وعلى ثروة أدبية كنا نستكثرها على هذا الشاب حتى عرفنا كيف تعب في تنشئة نفسه على النحو الذي شرحناه .

والأشعار التي استشهد بها أديب إسحاق كثيرة . منها على سبيل المثال :

الحرب أول ما تكون فنية تسمى بزيتها لكل جهول (١)

وما حب الدبار يهيج وجدى ولكن حب من سكن الديار (٢)

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون له ضرام (٣)

ومن نكد الدنيا على الحر أن يرى عدواً له ما من صداقته بد (٤)

إذا أنا لم أشكر على الفضل أهله ولم أذم الوغد اللئيم المذموم (٥)

فقيم عرفت الخير والشر باسمه وشق لي الله المسامح والنما

وغيرها كثير . وهذا كله عدا الأشعار التي هي من نظمه لامن نظم سواء من الشعراء أو الأدباء .

رابعاً : ولشدة التحمس الذي كان يبدو من أديب إسحاق ولازدحام قلبه

(١) الدرر ص ٩٨ = (٢) الدرر ص ١٠١

(٣) الدرر ص ١٠٣ = (٤) الدرر ص ١١٣

(٥) الدرر ص ١١٦

بشئ المشاعر والأفكار جاء أسلوبه خطايا في كثير من المواضع . كما في قوله يخاطب المصريين في مقالة (نغمة مصدر) (١) .

« يفتنون ألبابكم بأساليب الرياء ، ويضمفون قلوبكم بصور المخاوف والأوهام ويقتلون أذمانكم بسموم الخداع ، ثم يمجنون عنكم الحقائق . وبطفنون من حولكم الأنوار ، حتى إذا رأوكم في ظلمات الجهل لا تبصرون ما بين أيديكم ، ولا تهتدون مسالك النجاة . تداعوا إليكم وتساخطوا عليكم ، يهبون الأموال ، ويهتكون الجرم ، ويسلبون الحقوق ، ثم يمزقون الأبدان جلدًا بالسوط ، وضرباً بالحرارة ، وطمناً بالحرية ، وقطماً بالحسام . »

خامساً : وكانت لأديب إسحاق مقدرة كذلك على الاقتباس من القرآن ومن الحديث ؟ بل كان يستطيع في بعض الأحيان أن يصطنع ألفاظ القرآن وأن يصطنع طريقة تذكر بترقيقه في الأداء ، وإن كان الفرق عظيمًا جدًا بين الطريقتين وانظر قوله (٢) :

« لقد أتى النباه في مصر شيئاً إذا ، يكاد يزلزل ربا الحيف ويهدم حصون الظلم هدأ ، (٣) .

وكما في قوله (٤) :

« والمصر ، إن الظالم لفي خسر ، فإذا الخواطر ثارت ، وإذا الأبواب استنارت ، وإذا روايد الأخبار سارت . فبشر أهل الظلمات بعذاب الأنوار ، لأنها لتبهر الأبصار وتشرذم الأفكار ، ثم قال :

« سمعت يابن الاجتهاد ، وجاهدت في الحق خير جهاد ، وتلوت علينا من آي الحرية ، ما أوحى إليك الإنسانية ، فقلنا ذلك البيان لا ريب ، فيه هدى للشرقيين .

(١) الدرر ص ١٥٦ (٢) الدرر ص ١٧٥

(٣) يلاحظ القارئ هنا أن قوله يكاد يزلزل ربا الحيف تساوى بالضبط قوله يزلزل الظلم هذا ، وما هكذا يكون الإسهاب .

(٤) الدرر ص ٢٠٦ .

سادساً : لأديب إسحاق خيال واسع ، فقرأه يبدأ مقالاً له وفصوله أحياناً بحركة تشبه حركات المسرح ، وخيال كأخيلة الشعراء ، حتى يجذب إليه ذهن القارئ بقوة كما في قوله في مطلع مقال له كتبه تحت عنوان (البنت) (١) ،

وإما ترى في الحجرة مقعداً خشناً طارياً ، وقابلة أو طبيياً منأملاً مراقباً ، ورجلاً مغبر الوجه يدعو الله فتم امرأة على وشك الولادة ، وإما تسمع من تلك الحجرة صوتاً غريباً ، يليه من جانب الحضور اهتمام وارتباك ، فهناك مولود جديد يتساوون عنه ، فيقول قائلهم بنت . وإطالما أسودت الوجوه بمثل هذا القول في المصور الحالية ، بل سل اليوم عنه فلاحاً ما ، يجهك بما أجابني مزارع بريتنوني حين سألته كم ولدك ؟ فقال د آه ياسيدي لا ولد لي ، وليس عندي غير بنات ، ا .

وكما في قوله في مطلع كلمة لها عنوانها (إحسان الحسان) لمناسبة جمعية خيرية تألفت من بعض السيدات المحسنات في بيروت (٢) :

د أعارك البدر بحياه ، وحيالك الروض برياض ، فسرت منك نسيمات الربا ، سحراً تحمل شيخاً وثماماً ، وتمشت فيك أرواح الصبا ، يتأرجح بأنفاس الخزامى ، أم أنت عجزى بمسكارم الكرائم ، ومبشرى بإحسان الحسان ،

وأديب إسحاق إذا قورن بالأستاذ الإمام من حيث استخدام الألفاظ يظهر بوضوح أن ألفاظه أدنى من ألفاظ الإمام إلى الجزالة والفحولة . والجمال . ولتأصل هذا الميل في نفس هذا الشاب ، تراه لا يرضى لنفسه قط النزول بمقالاته الصحفية - مهما كان لونها - إلى مرتبة الحديث العادي ، أو مرتبة قريبة من الحديث العادي .

وآية ذلك أنك تقرأ في صحف أديب إسحاق كثيراً من المحاورات الفكاهية ، التي يجريتها على لسان رجل عامي ، وبرغم ذلك تأتي نفس هذا الشاب أن ينزل في هذه المحاورات الفكاهية الشعبية إلى اللغة العامية ، مع أنه لو فعل لكان له

(١) الدرر ص ٢٩٩

(٢) الدرر ص ٣١١

العذر كل العذر في ذلك ، فقد سبقه إليه نخول الكتاب في الأدب العربي ، كالملاحظ وغيره . واسكن قلباً مثل قلم أديب إسحق بكبر عايمه أن يجرى على الصحف بلفظ ما يدور على ألسنة العامة ، ومن هنا كان الفرق عظيماً في ذلك بين رجل كأديب إسحق ورجل آخر سيختص بفصل من فصول الكتاب ، وهو - السيد عبد الله النديم - والأخير - كاسنرى - كاتب شعبي بكل ما في هذه الكلمة من معنى (١) .

وباختصار نرى أنه قد اجتمع في يد (أديب إسحق) من الأسباب ما لم يجتمع مثله في يد غيره ، ليكون رجلاً تشعر حين تقرأه أنه أديب يتعالى في لفظه ، وكاتب يباهى بصناعة الكتابة ، ويعرف لها قدرها . وصحفي ذو قدرة على الأداء ، وفي أدائه تسام إلى درجة من الفن والجمال قلما تنهياً لغيره من الناس .

أجل ، كان لأديب إسحاق من المميزات ما يؤهله لأن يكون أديباً هذا شأنه : فن تنوع في الثقافة ، إلى استيعاب للأدب العربي والقرآن وبعض الحديث ، إلى معرفة جيدة جداً بتاريخ الشعوب والحضارات ، إلى علم واسع بأصول هذا الفن الذي نبغ فيه منذ الصغر ، وهو فن الكتابة ، إلى رقة في الإحساس ، وإرهاق في المشاعر ، لا يظفر بهما إلا شاعر ، إلى خيال عجيب لا يجمد مشقة في إبداع الصور الخيالية الراقية في أكثر الأحيان إلى غير ذلك من الخصال الأدبية الفنية الخالصة .

والحق أن كتابة أديب إسحاق ليست إلا ذوب قلبه ، وعصارة عواطفه ،

(١) انظر « محاوراة فكاهية » بكتاب الدرر ص ٣٧٧ بدأها بقوله :
« جاءنا في مكتب الجريدة أمس قبل الظهر في خاق الثياب ، مقطوع اليد ، حان القدمين ،
في كفه شيء من الخضار والبقل والفاكهة غيا بتردد وخوف ، ثم أدخلنا في المحاوراة الآتية على
مسمع من الزائرين ،

ثم ساق أديب إسحاق المحاوراة التي جرت بينه وبين هذا الفتى ، بلجائه هذه المحاوراة كلها
باللغة العربية الفصحى ، لا باللغة العامية التي لا يحسن الفتى غيرها ، بحكم أنه أمي ،

ولو لم يكن (أديب) كاتباً ممتازاً لكان شاعراً ممتازاً . ولو تقدم به العصر لكان لنا فيه رجل كابن الرومي رقة حس ، أو كأي تمام دقة صنعة . ولكنّه عاش في عصر غلبت فيه الصحافة على كل شيء ، وأصبحت اللون السائد على غيره من ألوان الأدب ، فكان لا بد له من أن يكون ذلك الصحفي ، الذي إن قلنا أنه كان ديب الشرق الأدنى في الربع الثالث من القرن الماضي ، لم نبعد عن الحق ، ولم نسرف في المقال .

والحق أيضاً أنك مهما ذهبت تقسو على هذا الرجل ، أو تتكلف الدقة في الحكم عليه ، ليقول الناس إنك عادل في رأيك تزيه في نقدك ، لم تجد له غير عيب واحد هو أنه شديد الاعتزاز بأسلوبه ، وإن لم يقل للناس صراحة أنه يعتز به . وإذا وافقتك على ذلك ، فإنما مصدره عندي أن هذا الكاتب شاب ، وأنه مأخوذ بفتوة الشباب وعندي أنه لو عاش هذا الأديب المغمتر بأسلوبه عشرين سنة أخرى ، لتغير في أثنائها أسلوبه بتغير أخلاقه ، فكنت ترى فيه تواضعاً يحل في أدبه محل الاستعلاء ، وكنت ترى آثار هذا التواضع واضحة في تركيب الجملة من ناحية ، وفي اختيار الألفاظ نفسها من ناحية ثانية .

ألا ما أشد الصلة - في نظري - بين الطبع التي تميز الأدباء ، وما ينشئون من أدب هو عندي صورة لهذه الطباع .

الفصل الرابع

حياة الشيخ محمد عبده

١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ

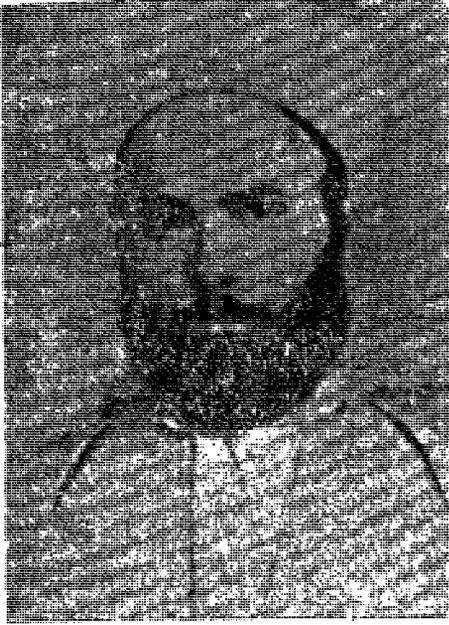
١٨٤٩ - ١٩٠٥ م

توحي قراءتنا لتاريخ أولئك الرجال الذين وعدنا بالحديث عنهم في هذا الكتاب بأشياء ، منها أن حياة كل واحد منهم يمكن أن تلخص حياة مصر كلها ، من النواحي السياسية والاجتماعية والأدبية ، حتى ينجح إلى الباحث أنه كان هناك شعور عام بضرورة الإصلاح ، وأن هذا الإصلاح لا ينجح في نظرهم إلا إذا شمل هذه النواحي كلها في وقت معاً .

وشيء آخر توحي به قراءة التاريخ المصري من خلال التاريخ الخاص بأولئك الرجال هو أنه في القرن الماضي كانت بذور الإصلاح السياسي والأدبي والاجتماعي قد بذرت ، وتمهد لها أولئك الرجال بالسق والنماء ، حتى كان القرن الذي نعيش فيه . فلم يزد رجاله على أن جنوا ما زرعه الذين من قبلهم .

فالرفق السياسي ، والإصلاح الاجتماعي ، والنهضة الأدبية . والجامعة المصرية ، وغير ذلك من نواحي النشاط المصري في الوقت الحاضر ، إنما هي أثر من آثار الجهود التي بذلها عظماء القرن الماضي ، وثمره من ثمراتهم ، لا أكثر ولا أقل .

غاية الأمر أن كل جماعة منا اليوم تخصصت في ناحية من نواحي الإصلاح بعد أن كان رجال القرن الماضي لا يعرفون هذا التخصص ، فإذا ذهبت تترجم حياة رجل من رجال القرن العشرين ؛ لم تجد أن حياته تلخص حياة مصر كلها ، كما تجد ذلك في كثير من تراجم القرن التاسع عشر ، ومن هذه الأخيرة



الاستاذ الإمام محمد عبده

ترجمة الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده وهو كما تعلم من أبناء الفلاحين ، وقد أشرنا من قبل إلى أنه إذا كان عصر محمد علي يمتاز بأشياء ، فأولها أنه اعتمد اعتماداً تاماً على هذه الطبقة ، فتألف منها الجيش الذي أعان الباشا على الفتح ، وتألف منها الجيش الذي حورب به الجهل في مصر ؛ وكان محمد عبده من أولئك النفر الذين أعدتهم العناية الإلهية لهذه الغاية الأخيرة .

سيرة الأستاذ الإمام

نشأ محمد عبده بقرية « محلة نصر » من قرى مركز شبراخيت بأقليم البحيرة . وهنا نجد الأستاذ العقاد يعظم من شأن هذه القرية فيقول . « قرية محلة نصر هذه إحدى القرى الصغيرة في إقليم الريف . ولكنها على صغرها كانت من تلك القرى التي يصح أن يقال فيها إنها موصولة التاريخ بتاريخ القطر كله . ذات كيان اجتماعي مكين تتمثل فيه أحداث اليهود ويحس أهلها فيه طوارىء الزمن من عهد إلى عهد ، بل من ولاية إلى ولاية . . . ولا يخضر لنا أن هذا شأن عام مشترك بين جميع القرى في هذه الأقطار . الخ .

أثنى العقاد على هذه القرية وأتى بشيء من أخبارها التاريخية وأشار إلى رحلة معروفة قام بها الرحالة الشهير عبد اللطيف البغدادي إلى هذه الجهة وقال إنه رأى

فيها بيوتاً ثلاثة كبيرة وهي : بيت الشيخ محمد عبده ، وبيت خير الله ، وبيت
الفرغوانى .

في تلك القرية نشأ محمد عبده يركب الخيل ويشتمل بالفرنسية ، وذلك أنه عاش
في هذه القرية بمعنى من العمل وكسب الرزق . وتعلم الكتابة والقراءة في منزل
والده . ثم عهد به إلى رجل من الصالحين في القرية لتحفيظه القرآن الكريم . ثم
بعث به أبوه إلى طنطا ليتلقى العلم في الجامع الأحمدى حيث قضى سنة ونصف سنة
وهو لا يفهم شيئاً كما يقول لرداءة طريقة التعليم وهي بعينها طريقة الأزهر الذى
التحق به الفتى فيما بعد . فاقطع عن العلم برهة ، ثم كان الفضل في عودته إليه بعد
ذلك للشيخ درويش وهو رجل من الصالحين وأرباب التصوف .

مع جمال الدين الأفغانى

في ذلك الوقت أى في الثلث الأخير من القرن الماضى كانت الصلة بين الأزهر والعالم
الحديث توشك أن تكون مقطوعة . ولكن الله تعالى قبض للأزهر من بعث طليعته بهذا

العالم الحديث - قبض لهم جمال الدين
الأفغانى الذى التفت حوله كثيرون
من الطلبة ومنهم محمد عبده فوصلهم
ببعض العلوم الرياضية والفلسفية ،
وخلقهم بذلك خلقاً جديداً بكل ما
تحمّل هذه الكلمة من معنى . وفي
ذلك يقول الشيخ محمد عبده في براءة
وإخلاص :



« إن أبى وهبى حياة يشاركنى فيها
على ومحروس - وهما أخو أبى
المزادعان - أما جمال الدين فقد وهبى
حياة أشارك فيها محمد وإبراهيم وموسى
وعيسى وغيرهم من الأولياء والقديسين . »

السيد جمال الدين الأفغانى

(م ٥ - أهم المقالات ج ٢)

ومعنى ذلك أن محمد عبده ولد مرتين ، وأنه في الأخيرة ولد من أب روجي عظيم هو السيد جمال الدين الأفغانى .

حسبنا ذلك حديثاً عن نشأة محمد عبده لننتقل إلى الحديث عن :

المعلم الثانى والعقده الشركسية :

هناك ظاهرة نفسية طبعت العصر الذى عاش فيه الشيخ محمد عبده . وقد جاءت هذه الظاهرة النفسية من أن ذلك العصر — والشيخ محمد عبده خير من يمثله في الحقيقة — شهد نوعين قاسيين من أنواع النفوذ الأجنبي وهما :

النفوذ التركى من جهة ، والنفوذ الأوروبى من جهة ثانية ، أما النفوذ التركى فيتمثل في الطبقة الحاكمة من لدن محمد على إلى عهد إسماعيل فتوفيق فعباس حلمى الثانى .

وهؤلاء الثلاثة هم الحكام الشرعيون الذين اتصل بهم محمد عبده في حياته ، وأما النفوذ الأوروبى فيتمثل في الاحتلال البريطانى الذى منبت به البلاد فور انهزام المرابين للانجليز كما هو معروف في التاريخ .

والمهم في نظرنا الآن هو النفوذ الأول ونعنى به النفوذ التركى :

كان محمد عبده يكره من أعماق قلبه جميع أفراد الأسرة الحاكمة . ويعتقد في قرارة نفسه أنها قد أساءت إلى مصر إسائة بالغة ولايستثنى منهم أحداً حتى (محمد على) نفسه . فينكر عليه كل شيء ، ولا يعترف له بشيء . وكان يرى أن من الخير لمصر أن تتخلص من هذه الأسرة في أقرب وقت .

وكان يرى هذا رأى نفسه كذلك أصحاب الإمام وتلاميذه من أمثال : عبد الله النديم ، وأحمد عرابى ، ولبرهيم القانى ، والشيخ أبى خطرة ، والشيخ عبد الكريم سليمان وحسن عاصم ، وسعد زغلول ، وقتحى زغلول ، وقاسم أمين والسيد رشيد رضا ، وأحمد لطفى السيد .

وكان أكثر هؤلاء يؤلفون في الواقع مذهباً في السياسة المصرية أو حوياً من

أحزابها كان يسمى « بحزب الفلاح ، أو « حزب الفلاحين ، ومعهم عرابي وسائر ضباط الجيش ، وكان يقابل ذلك مذهب آخر أو حزب آخر ، هو « حزب الشراكة » .

وكان حزب الشراكة هذا يضم إليه كثيراً من الباشوات ورؤساء الوزارات ومعهم رجال القصر والقواد الأتراك في الجيش وغيرهم . ولذا كان يطلق عليه « حزب السراي » ، وكان هذا الحزب الأخير يتمتع بالمناصب العالية ، والحياة المريضة والإقطاع الوافر . على حين كان رجال الحزب الأول - وهو حزب الفلاحين - يعانون الحرمان ، والظلم ، والاحتقار ، والسخرية من جانب الأتراك الشراكة ، والنظر إلى المصريين على أنهم عبيد أيّ عبيد !!! ومن هنا نشأ في نفوس المصريين ما يمكن أن نسميه « بالعقدة الشركسية » ، التي ظهرت آثارها أقوى ما تكون في أصحاب النفوس الأدبية من أمثال الشيخ محمد عبده وتلاميذه والحاطيين في حبله من رجال الحزب الذي أشرنا إليه من قبل ، وهو حزب الفلاحين ، .

مواهب العقلية والنفسية

كان لابد لنا من الإشارة إلى هذه العقدة الشركسية قبل أن نخوض في الحديث عن مواهب الشيخ الأستاذ العقلية والنفسية والخلقية ، وأما هذه المواهب فيمكن أن تتلخص في ثلاث :

الأولى منها المواهب : أن عقلية الشيخ محمد عبده كانت عقلية تطورية إذا قورنت بعقلية السيد جمال الدين الأفغاني ، وهي عقلية ثورية .

والثانية من هذه المواهب أن الشيخ محمد عبده كان معلماً بطبعه شديد الإيمان بالتربية والتعليم وبقدرتهما على تشكيل الشعوب وخلقها من جديد . وبأنه لا شيء غير التربية في نظره بقادر على الوصول بالامة إلى هذه الغاية ...

والثالثة من هذه المواهب هي جرأة الشيخ وشجاعته النفسية إلى الحد الذي أزعج الحكام الشرعيين ، وأدهش الإنجليز أنفسهم ، وكان بسببه موضعاً لاحترام

الجميع من أصدقائه وأعدائه في وقت معاً وسنحاول أن نشرح كل واحدة من هذه المواهب على حده .

الموهبة الأولى أو العقلية التطورية :

كان الشيخ محمد عبده من أكثر الناس إيماناً بالتدرج ، وكان يرى أن طبيعة الأشياء تأتي بالطفرة . ولذلك لم يكن من المؤمنين أول الأمر بالثورة العرابية ، ولكنه انضم إليها بعد ذلك لكي يحمي الدستور الذي طالبت به هذه الثورة .

كان محمد عبده إذا فليس إلى أستاذه السيد جمال الدين يبدو مخالفاً له كل المخالفة فإذا كان الشيخ ذا عقل تطوري - كما قلنا - فإن السيد جمال الدين كان ذا عقل نودي بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة . واجتمع الأستاذ والتلميذ في باريس في فترة من فترات حياتهما (بل حياة الأمة العربية) وفكر الرجلان في أمثل الطرق لإصلاح البلاد الشرقية الإسلامية ، فكان من رأى الإمام الشيخ محمد عبده أن ذلك لا يكون إلا بإنشاء ما سماه « مدرسة الزعماء » لتخريج المصلحين والقادة ممن يحملون عبء الإصلاح في كل بلد من بلاد الشرق ولكن هذا الرأى أسخط عليه السيد جمال الدين الذى لا يعرف الإبطاء سبيلاً من سبيل الإصلاح أو التجديد . فقال لتلميذه يومئذ إنك لمثبط . واقترح عليه أن يشرعاً في الحال في إنشاء مجلة « العروة الوثقى » .

الموهبة الثانية أو طبيعة المعلم :

نعم - كان الشيخ يؤمن إيماناً راسخاً أن إنهاض أمة من الأمم لا يكون إلا على أساس قويم من التربية والتعليم . كان يؤمن بأن عمل السنين في تربية الأمة وتعليمها لن يضيع سدى ولن يندم عليه العاملون ، ولن تندم عليه الأمة نفسها . فإذا أريد لأمة من الأمم المغلوبة على أمرها أن تنال استقلالها فما على قادتها والمصلحين من أبنائها إلا أن يزودوا هذه الأمة بأدوات الاستقلال . وما أدوات الاستقلال هنا إلا التربية والتعليم ، وقد أثر الشيخ بنظريته هذه في تلاميذه من بعده . وكان من نتيجة ذلك أن تألف في مصر حزب سياسمى يدعى « حزب الأمة »

ولهذا الحزب صحيفة خاصة به هي «الجريدة» التي كان يتولى تحريرها الأستاذ أحمد لطفي السيد . وكانت سياسته فيها تقوم على نظرية الأستاذ الإمام . وهي النظرية القائلة بتزويد الأمة بأدوات الاستقلال . وهي هنا العلم والخلق وتربية الكرامة والشعور بالمسؤولية ، وسنزيد هذه الموهبة توضيحاً عند الكلام عن جهود محمد عبده الصحفية .

الموهبة الثالثة أو شجاعة الشيخ النفسية :

يبدو أن السبب الحقيقي في قوة نفس الشيخ وجرأته كما قال الأستاذ العقاد هو «التصوف» . والتصوف في ذاته قوة هائلة تميل بصاحبها إلى احتقار الماديات مهما كان شأنها وتقدير المعنويات التي يخفى على الإنسان للعادي قدرها . وبسبب هذه القوة كان أسلافنا من علماء الدين مصدر خطر كبير على الملوك والأمراء والسلاطين .

سئل الشيخ عز الدين بن عبد السلام أحد علماء المالكية في ذلك ، فكان يقول :
«لئن حين أستحضر هيئة الله تعالى في نفسي وأنا في حضرة السلطان يتمثل لي في صورة لا تزيد على القط» .

وشبهه بذلك تماماً ما حدث لسكك من السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده .
حكى عن جمال الدين أنه كان يعبك بحبات سبحة في حضرة السلطان عبد الحميد ونهبه رئيس الديوان إلى قواعد التشريفة فأجابه جمال الدين ساخراً :
«صه يا هذا .. إن السلطان يلعب بحياة ثلاثين مليوناً من بني آدم . أقلل يلعب جمال الدين بثلاثين حبة من حبات هذه السبحة ؟» .

أما الشيخ محمد عبده فكان الخديو عباس حلمي الثاني كثيراً ما يشكو من مسلكه في حضرته ويقول عنه ، إنه يدخل على كآته فرعون ، وكان الشيخ محمد عبده يضحك من هذه العبارة ويقول «أينا فرعون أنا أم هو ؟» .

ثم إن شجاعة الأستاذ الإمام كانت هي الشجاعة التي يمتدحها للفلاسفة والأخلاقية فهم يقولون «إن الفضيلة وسط بين طرفين» . أي أن شجاعة الشيخ كانت وسطاً بين الخوف والتهور وبين الجبن والانقطاع .

وكما يقول الأستاذ العقاد ، الواقع إن تاريخ الشيخ محمد عبده في خدمة القضية القومية هو تاريخ الإقدام إلى أقصى حدوده . ولكنه لم يكن قط تاريخ الاندفاع أو الخفة أو العجلة ونحو ذلك كان أشد أصحابه إقداماً في معارضة الثورة العرابية حين عارضها . وكان أشدهم إقداماً في تأييدها حين أيدها . ولما وقع المخطور ودخل الإنجليز مصر محتلين ، ونفى محمد عبده عن الوطن كان هذا المنفى عن وطنه أسبق أصحابه إلى عاصمة الدولة الإنجليزية ليعلمن الحرب على الاحتلال في عقر داره . فإذ ذلك طالب الشيخ في لندن بجلاء الإنجليز . وقال لهم يؤمئذ : لقد شكونا من الأتراك لأنهم أجانب عن وطننا . لكننا الآن نعلم أن هناك ما هو شر من الأتراك وليس في مصر من بلغ به الظلم حداً يرجو معه مساعدتكم . إن لنا إليكم رجاء واحداً وهو أن تغادروا بلادنا حالاً وإلى غير رجعة .

وفي عاصمة الإنجليز لم يأل الشيخ جهداً كذلك في الجهر بعداوته لتوفيق فقال عنه إذ ذاك :

« إن توفيق باشا أساء إلينا أكبر إساءة . لأنه مهد لدخولكم بلادنا . ورجل مثله انضم إلى أعدائنا في الحرب لا يمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام ، ومع هذا إذا ندم على ما فرط منه وعجل على الخلاص منكم ربما غفرنا له ذنبه .

إننا لا نريد خونة ؛ وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية ، قال ذلك في المنفى وهو لا يخشى أن يطول به النفي إلى أبعد مما قرره المحتمل ، إلى هذا الحد (وأكثر منه) بلغت شجاعة الشيخ وهي شجاعة تذكرونا — كما قلت — بمواقف أسلافنا من علماء الدين ممن كانت تهاجم الملوك والسلطانين .

ولمحمد عبده حياة رسمية . وأخرى غير رسمية ، ولا تمنا الأولى ، وإنما تمنا الثانية ، ومع ذلك فيكفي أن نعلم عن حياته الأولى أنه اشتغل بالتدريس في الأزهر ، والتدريس بدار العلوم ثم عينه رياض باشا رئيساً لتحرير الوقائع المصرية الرسمية وذلك في أكتوبر سنة ١٨٨٠ وكان ذلك بتوصية من محمود سامي البارودي ، رئيساً لإدارة المطبوعات في نظارة الداخلية ، ثم قامت الثورة



رياض باشا

العرايية ، ونفى عن الديار
المصرية ، ثم عاد إليها ،
وعين قاضياً بالمحاكم الأهلية ،
مع أنه كان يرغب أن يعود
مدرساً كما كان ، ولكن الإنجليز
خافوا من اتصاله بالطلبة ،
وآخر ما وصل إليه من
الوظائف الحكومية وظيفته
مفتي الديار المصرية ، وفي
الأزهر الشريف قام الشيخ على
تدريس المنطق والفلسفة
والتوحيد ، وفي دار العلوم

قام على تدريس التاريخ . قرأ على طلبتها مقدمة ابن خلدون ، وعدل عن قراءة
كتب التاريخ المعروفة . وكان الشيخ في هذه الاتجاهات كلها يتأثر بأستاذه السيد
جمال الدين ، غير أن تأثره به لم يقف عند هذا الحد ، بل تعداه إلى الكتابة في
الصحف ، فبدأ الشيخ بجريدة الأهرام وهو بعد طالب في الأزهر ، ثم قال شهادة
العالمية واتصل برياض باشا فعهد إليه في تحرير الوقائع المصرية . ثم قامت الثورة
العرايية وبلغت الغاية منها ، وقبض على زعمائها وفيهم محمد عبده ، فنفي إلى بيروت
حيث قضى ثلاث سنوات إلى أن دعاه السيد جمال الدين إلى باريس . وهناك
اشترك النسبي والحواري في تحرير «العروة الوثقى» . ثم عادت الظروف بالشيخ مرة
أخرى إلى بيروت ، فاشتغل فيها بالتدريس بالمدرسة السلطانية ، وبالتحرير في
جريدة يقال لها «ثمرات الفنون» .

ويعنى ذلك أن الشيخ كتب في هذه الجرائد الأربع ، وهي : الأهرام ،
والوقائع المصرية ، والعروة الوثقى ، وثمرات الفنون .

فماذا كانت دعوته في هذه الصحف وما الأهداف التي كان يرمى إليها؟

دعوة الأستاذ الإمام إلى الإصلاح

لخص الشيخ دعوته إلى الإصلاح بنفسه ، فقال : دارت على صوتي بالدعوة إلى أمرين عظيمين :

الأول : تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع في كسب معارفه إلى بناييعها الأولى ، واعتباره من ضمن موازين العقل البشري التي وضعها الله لتردد من شغلته ، وتقلل من خلطه وخطئه ، وإثارة على هذا الوجه بمد صدقاً للعلم ، باعثاً على البحث في أسرار الكون ، داعياً إلى احترام الحقائق الثابتة ، مطالباً بالتعويل عليها في أدب النفس وإصلاح العمل .

والأمر الثاني : إصلاح أساليب اللغة العربية في التحرير ، سواء كان في المحاطبات الرسمية . أو في المراسلات بين الناس ، وكانت أساليب الكتابة في مصر تنحصر في نوعين كلاهما يجه الذوق ، وتنسك له لغة العرب :

الأول : ما كان مستعملاً في مصالح الحكومة وما يشبهها ، وهو ضرب من ضروب التأليف بين الكلمات رث خبيث غير مفهوم ، ولا يمكن رده إلى لغة من لغات العالم - لا في صورته ولا في مادته .

والنوع الثاني : ما كان يستعمله الأدباء والمتخرجون من الجامع الأزهر ، وهو ما كان يراعى فيه السجع وإن كان بارداً ، وتلاحظ فيه الفواصل وأنواع الجناس ، وإن كان رديئاً في الذوق ، بعيداً عن الفهم . ثقيل على السمع ، غير مؤد المعنى المقصود .

وهناك أمر آخر كنت من دعائه ، والناس جميعاً في عمى عنه ، ولكنه الركن الذي تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ، وما أصابهم الوهن والضعف والذلل إلا بخلو مجتمعهم منه ، وذلك هو التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب ،

وما للشعب من حق العدالة على الحكومة ، نعم — كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها ، وهي لم يخطر لها هذا الخاطر على البال من مدة تزيد على عشرين قرناً ، دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته — هو من البشر الذين يخطئون ، وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لا يرده عن خطئه ولا يقف طغيان شهوته إلا نصح الأمة له بالقول والفعل ، جهرنا بهذا القول والاستبداد في عنفوانه ، والظالم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حديد ، والناس كلهم عبيد له أي عبيد .

ولم أكن في ذلك الإمام المتبع ، ولا الرئيس المطاع ، غير أني كنت روح الدعوة ، وهي لا تزال بي في كثير مما ذكرت قائمة ولا أبحر أدعو إلى عقيدتي في الدين ، وأطالب بإتمام الإصلاح في اللغة ، وقد قارب .

أما أمر الحكومة والمحكوم ، فتركه للقدر بقدره وليد الله بعد ذلك تدبيرة ، لأنني قد عرفت أنه ثمرة تيجنها الأمة من غراس تفرسه ، وتقوم على تسميته السنون الطوال ، لهذا الغراس هو الذي ينبغي أن يعنى به الآن ، والله المستعان (١) .
ومع هذا وذاك فالثابت في التاريخ أن محمد عبده حاول الاشتراك في الحوادث التي أفضت إلى خلع إسماعيل . وفي ذلك يقول الشيخ في مذكراته :

أما ما قاله عرابي بصدد خلع إسماعيل وأنه اقترح ذلك فأقول إنه من المؤكد أننا كنا نتكلم سراً في هذا الشأن . وكان الشيخ جمال الدين موافقاً على الخلع . واقترح عليّ أنا أرب أقتل إسماعيل . وكان يمر في مركبته كل يوم على جسر قصر النيل . ولكن كل هذا كان كلاماً تهامسه فيما بيننا . وكنت أنا موافقاً المواقفة كلها على قتل إسماعيل . ولكن كان يتقصنا من يقودنا في هذه الحركة . ولو أننا عرفنا عرابي في ذلك الوقت كان يعتبر من أحسن ما يمكن عمله وكان يمنع تدخل أوروبا .

ولم يكن من المستطاع في ذلك الوقت تأسيس جمهورية إذا نظرنا إلى حالة الجهل

الذى كان سائداً على العقول (١) .

ومن السهل علينا بعد قراءة هذه العبارة أن نرى أن لدعوته هذه ثلاث شعب :

شعبة دينية ، وشعبة أدبية ، وشعبة سياسية . وهى مرتبة هنا بحسب ميول الشيخ واستعداده ، وبحسب استئثار هذه الشعب بعنايته ورعايته . أى أن الهدف الأول من أهداف الإمام كان هو الإصلاح الدينى ، وأن الهدف الذى يلي ذلك فى الأهمية هو الإصلاح اللغوى أو الأدبى

وأما الهدف السياسى فلم يكن له ميل كبير إليه ، ولا احتفال كبير به . ومن ثم كان الشيخ لا ينشط نشاطاً سياسياً حاراً إلا حين كان يتصلل بأستاذه السيد جمال الدين الأفغانى .

وقد كان السيد رجلاً سياسياً بطبعه قبل كل شيء . وكان إذا التقى بتلميذه الشيخ دفعه بقوة إلى الميدان السياسى . وكان الشيخ نفسه يسير بقوة هذه الدفعة ، حتى تحول الظروف بينه وبين أستاذه ، فإذا الشيخ يعود إلى هدوئه وسكونه ، ويخوض فى أمور تتفق وميوله المتأصلة فى قرارة نفسه . وهى الرغبة فى الإصلاحين الدينى والأدبى .

وذلك ما يفسر لنا الخصومة العنيفة التى كانت بين الشيخ وبين عراقى أولاً ، ثم بينه وبين مصطفى كامل والحزب الوطنى ثانياً ، ثم بينه وبين الخديو عباس الثانى آخر الأمر .

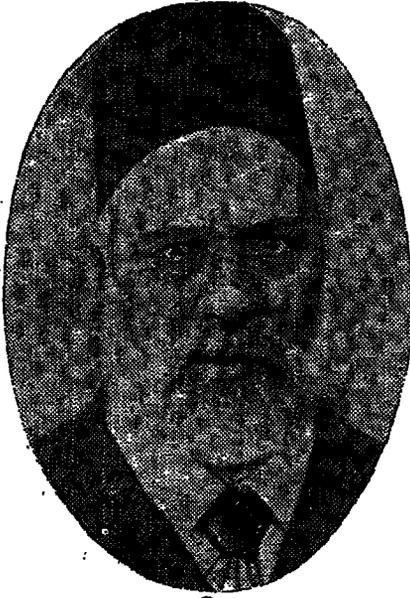
فأما العداوة بينه وبين عراقى فصدها أن محمد عبده لم يكن يرضى أن يكون زعماء الثورة من العسكريين غير المثقفين ، غير أن محمد عبده أكره لإكراهها على الدخول فى الثورة ، حتى انتهى الأمر بنفيه إلى بيروت .

وفى ذلك يقول محمد عبده :

« ولكن الثورة لم تكن من رأى . وكنت قائم بالحصول على الدستور فى ظرف خمس سنوات . فلم أوافق عراقى على عزل رياض فى سبتمبر سنة ١٨٨٠ . وقبل مظاهرة عابدين بعشرة أيام التقيت بعراقى فى دار طلبه عصمت وكان قد

(١) راجع كتاب (سر احتلال الإنجليز لمصر) ذلله السيد بلانت الترجمة العربية من ٣٥٤ .

جاء مع عرابي لطيف بك سليم . وكان هناك عدد كبير من الوائرين : فنصحت لمرابي بالاعتدال وقلت له :
إني أرى أن بلاداً أجنبية ستحتل بلادنا ، وأن لعنة الله ستقع على رأس من يكون السبب في ذلك . فأجابني عرابي بأنه يرجو ألا تقع هذه اللعنة عليه . وقال إن سلطان باشا وعده بأن سيحضر له شرائض لطلب الدستور ممضاه من جميع الأعيان وكان هذا صحيحاً . . ولكن لما منح الدستور انضمنا إلى الثورة لكي نحمي الدستور ، (١) .



أحمد عرابي

وأما عداوته لمصطفى كامل والحزب الوطني ، فصدرها الخلاف بين الرجلين في وجهة النظر السياسية ، فقد كان محمد عبده عن يؤمنون بالتدرج في الإصلاح السياسي ، وعن يؤثرون اللين ومسايرة الواقع من الأمور ، حتى يكسب المصريون من الإنجليز الأثواباء عن هذا الطريق أضعاف ما يكسبون منهم بطريق الشدة التي لا تجدى شيئاً . وكان مصطفى كامل يرى على العكس من ذلك أن الإصلاح السياسي لا يبدأ في مصر إلا بزوال الاحتلال الإنجليزي .

وأما عداوة الشيخ محمد عبده للخديو عباس الثاني فصدرها محاولة الشيخ المحافظة على علاقته الطيبة بالإنجليز ، وعلاقته الطيبة بالخديو في وقت معاً . وكان الخلع بين هذين الأمرين يومئذ من الأشياء التي توشك أن تكون مستحيلة ، فإذا أضيف إلى ذلك معارضة الشيخ محمد عبده معارضة قوية وشريفة في رغبة الخديو في أن يستبدل نفسه أرضاً من الأوقاف عرفت السبب الذي من أجله

(١) راجع كتاب (سر احتلال الإنجليز لمصر) مؤلفه المستر بلانت الترجمة العربية من ١٩٦٠

اغتاظ الخديو ، وهم بعزله من وظيفة مفتي الديار المصرية لولا اعتراض اللورد كرومر على ذلك ، مما اضطر الخديو إلى العدول عما عزم عليه

وما دمتنا بصدد العداوة التي منى بها الشيخ محمد عبده ، فلا نسي أن نذكر أنه كان من أعدائه كذلك الأزهر منذ استعان به الخديو عباس الثاني في السكيد للشيخ محمد عبده ، مع أن الشيخ عاش يجاهد في إصلاح الأزهر . وسلك في سبيل ذلك كل طريق حتى طريق الإنجليز ، وذلك في وقت ضاقت فيه بالشيخ الحيل ، وسدت أمامه الأبواب ، وكان الخديو يخاصمه ، والشعب من جانبه لا يفهمه ، فليجأ إلى كرومر عملاً بالحكمة القائلة (الغاية تبرر الوسطة) ، ومع ذلك فإن الأزهر لم ين في لحظة من حياته عن قذف الشيخ ، ورميه بأشنع التهم التي من أيسرها يومئذ اتهامه بالكفر والخروج عن الإسلام .

ولم لا يكون الشيخ كافراً في نظر الأزهرين ؟

أليس هو الذي ألقى بلبس القبة ؟ ثم أليس هو الذي ألقى مسلمي الترنسفال في بحر يضرب على رأسه حتى تضعف مقاومته ثم يذبح دون أن يذكر اسم الله عليه ، فأحله لهم ؟

ثم أليس هو الذي يدعو الأزهر أن ينكر قديمه ، ويلبس للعالم الإسلامي ثوباً جديداً غير الثوب الذي أبلاه ؟

ألم يعترض عليه أحد أعضاء المجلس الأعلى للأزهر ، وهو الشيخ البحيري بقوله مستنكراً « ألم تعلم أنت في الأزهر وقد بلغت ما بلغت من مراقي العلم وصرت فيه العلم الفرد ؟ » فأجابه الإمام بقوله « إن كان لي حظ من العلم الصحيح الذي تذكر ، فإنني لم أحصله إلا بعد أن مكثت عشر سنين أكنس من دماغى ما علق به من وساخة الأزهر ، وهو إلى الآن لم يبلغ ما أريد له من النظافة » .

والخلاصة أن الشيخ محمد عبده لم يصادف من التوفيق في الميدان السياسي ما كان يؤمله ، وذلك معنى قوله :

« وأما أمر الحكومة والمحكوم فتركته للقد يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبره . . إلخ » .

ولكن ليس معنى ذلك أننا نغضه حقاً ، وننكر عليه جهاده في هذه الناحية ، أو نظن أنه كان يمحض الإنجليز حبه ، ويؤثرهم بصداقته . كلا - فلقد كان الشيخ يبني علاقته بهؤلاء على المداراة . وكان لا يطمع في أكثر من أن تصل دعوته بالشعب المصري ، لا يحول دون وصولها إليه حائل سياسي أو اجتماعي .

سافر الشيخ مرة إلى لندن لإقناع الإنجليز بالقضية المصرية وهناك أنهى إلى مراسل جريدة إنجليزية بقوله في حق الخديو :

إن توفيق باشا أساء إلينا أكبر إساءة ، لأنه مهد لدخولكم بلادنا ، ورجل مثله انضم إلى أعدائنا في الحرب لا يمكن أن نشعر نحوه بأذى احترام . ومع هذا إذا ندم على ما فرط منه ، وعمل على الخلاص منكم ربما غفرنا له ذنبه . إننا لا نريد خوفاً ؛ وجوههم وقلوبهم إنجليزية^(١) .

فليس من المعقول أن يكون هذا كلام رجل يتهم بحب الإنجليز ، أو الرضا ببقائهم في أرض مصر يشربون فيها من ماء النيل^(٢) .

* * *

وأما الهدف الديني من أهدار الأستاذ الإمام ، فقد توصل إليه بأورشق ؛ منها الدروس التي كان يلقيها في الأزهر الشريف في بدء حياته ، ثم في فترات متقطعة تبدأ فيها العاصفة .

ومنها الكتابة في الصحف ، وبنوع خاص صحيفة الوقائع المصرية - كما سنرى بعد ، ومنها الرد على الفلاسفة مثل هانوتو ، وعلى الكتاب مثل فرح أنطون^(٣) .

(١) زعماء الإصلاح ص ٣١٦ .

(٢) للؤلؤ بحث بعنوان « المقدمة المركسية عند مدرسة محمد عبده وأثرها في صحافة هذه المدرسة » وضع فيها سياسة محمد عبده نحو الخديو ونحو الإنجليز . راجع مجلة كاية الآداب عدد ديسمبر سنة ١٩٥٧ .

(٣) رد الأستاذ الإمام على هانوتو في مقاله لشمس أوائل سنة ١٩٠٠ . ومن مجموع ردوده على هانوتو تألف له كتابه (الإسلام والنصرانية) ورد الأستاذ الإمام كذلك على فرح أنطون في مقاله لشمس في مجلة الجامعة عن ابن رشد ذهب فيه إلى أن المسيحية كانت أوسع صدراً للفلسفة من الإسلام .

ومنها الفتاوى التي كان يصدرها بين الحين والحين ، فتدل على فهمه الصحيح للدين ، أو على الأقل على رغبة صادقة في الاجتهاد الذي أغلق الأزهريون بابه منذ زمن قديم ،

ومنها جهاده المبرر في إصلاح الأزهر والأوقاف والمحاكم الشرعية ، وهو جهاد اقترن بالاضطهاد الذي لقيه الشيخ من جانب الأزهريين أنفسهم تارة ، وجانب الخديو تارة أخرى ، وجانب الشعب عن طريق الجرائد الهزلية آخر الأمر .

غير أن الوسيلة الأولى من هذه الوسائل كلها تبين أنها الوسيلة السليمة المأمونة العاقبة . ونعني بها الدروس التي اتصل فيها اتصالاً مباشراً بطلبة العلم في الأزهر الشريف . وهناك كان يلتقي الأستاذ الإمام عليهم درساً في « التفسير » . فاعتمد الشيخ على هذا الدرس اعتماداً تاماً في شرح عقائد الدين ، ومحاربة البدع التي أفسدت هذا الدين ، ثم في التوفيق بينه وبين العلم الحديث والمدنية الحديثة .

ولقد وفق الأستاذ الإمام في هذه الدروس توفيقاً وصل به إلى النزوة من مراتب المصلحين الدينيين ، وكان لدروسه أثر عظيم في نفوس كثير من المتدربين ، وفي نقض الغبار الذي تراكم على قلوبهم منذ قرون .

* * *

وأما الإصلاح اللغوي أو الأدبي ، وهو ثاني الهدفين اللذين كتب فيهما النجاح التام للأستاذ الإمام ، فن الطرق التي سلكها فيه : طريقة إحياء الكتب القديمة ، وذلك بشرها وشرحها من الوجهة اللغوية . ونشر لذلك مقامات الحريري ، وكتاب نهج البلاغة ، وكتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني . وفي عام ١٣١٨ أسس بمصر جمعية برياسته سميت بجمعية إحياء الكتب العربية . وبدأت عملها بالفعل ف نشرت كتاب المخصص في اللغة لابن سيده « وعهد بتصحيحه إلى اللغوي المشهور الشيخ محمد محمود الشنقيطي .

ولانفسي كذلك أن الأستاذ الإمام إذ عينه رياض باشا محرراً للوقائع المصرية ، وجعل له حق الإشراف على جميع ما يصدر في مصر من الكتب والصحف ، كما جعل له الحق في انتقاد إدارات الحكومة . قد انتهت هذه الفرصة الثمينة « فسكان

أول ما بدأ باقتناده طريقة التحرير التي كانت متبعة في النظارات والإدارات ، فأخذ يبين وجه الخلل بها وأضرارها . يفهم المعاني المطلوبة ، ثم يرسم الطريقة المثل التي يجب السير عليها فلم تمض أشهر قليلة حتى ظهر فضل ذوى الإمام باللغة العربية من موظفي الحكومة . وحضهم رؤسائهم على مكاتبة الجريدة الرسمية . واضطر الجاهلون باللغة والتحرير إلى استدعاء المعلمين أو المبادرة إلى المدارس الليلية ليتعلموا كيفية التحرير (١) ، وقد أنذر محمد عبده مرة مدير جريدة مشهورة بتعطيل جريدته إذا لم يتخير لها محرراً صحيح العبارة في مدة معينة .

ثم من الطرق التي سلكها في ذلك طريقة التدريس بمعاهد العلم . ونحن نعرف من تاريخ حياته أنه قام بتدريس الإنشاء في المدرسة النظامية ببيروت ، وأنه عهد إلى الأستاذ المرصفي بتدريس كتاب الكامل للبرد وكتاب ديوان الحماسة ، لطلبة الأزهر . ولم يكن ذلك معروفاً من قبل .

وأخيراً كان من أنجح الوسائل التي اتخذها الإمام لإنهاض اللغة العربية من عثارها ، وإمدادها بالعدة اللازمة لها في مسامرة العصر الحديث ، الكتابة والتحرير في الصحف العامة ، وهو هنا يدت القصيد من هذا التاريخ . فسرى أن مشاركة الإمام في الصحافة المصرية يمكن أن تعتبر تاريخاً لهذه الصحافة من الوجهة اللغوية أو الأدبية ، وسرى أن قلم الشيخ محمد عبده كان من الأفلام التي راضت اللغة العربية في مصر رياضة حسنة قيمة ، عادت بالخير على هذه اللغة ، وذلك الأدب من جهة ، وعلى العقل المصرى من جهة ثانية

* * *

وإن الشيخ لمشتغل بإصلاح الأزهر ، غارق في تفكيره في هذا الإصلاح ، وإذا بمركبة تظهر بفتنة في داخل الأزهر ، ويثور فيها بعض رجاله على مجلس إدارته ، وكان من أثر ذلك أن استقال السيد على البيلاوى من المشيخة ، وعين الخديو مكانه الشيخ عبد الرحمن الشريفي ، وخطب الخديو في حفلة الإنعام عليه

(١) انظر تاريخ الأستاذ الإمام الجزء الأول ص ١٧٥

خطبة كشفت عن حقه على الشيخ محمد عبده ، فلم ير الشيخ بدأ من الاستقالة من مجلس إدارة الأزهر ، ومرض بعد ذلك ، وتقل عليه المرض ، فات في الحادي عشر من شهر يوليو سنة ١٩٠٥ م .

وشيعت جنازته في احتفال رسمي مهيب ، اشترك فيه مجلس النظار ، وكان الخديو نائباً عن مصر ، فلما عاد إليها أنحى باللائمة على وزرائه الذين احتفلوا بجنازة الشيخ الإمام .

ليت شعري ما أشقى المصلحين في كل زمان ومكان ! إنهم لكالشمعة التي تحرق نفسها لتضيء الطريق للناس . ومع ذلك لا يكون نصيبها منهم غير اللعنة والاحتقار والجحود والإنكار ، فلا حول ولا قوة إلا بالله .

هكذا حرمت مصر يومئذ شخصية فذة هي من أعظم شخصياتها وأقومها في القرن الماضي ، بل ربما كانت في عظمتها تلي مباشرة شخصية جمال الدين الأفغاني .

الفصل الخامس

أسلوب محمد عبده

لقد كان للعجم فضل كبير على الكتابة العربية وهي في مهد طفولتها ، وقد أتى القرن الماضي دليلاً على أن للعجم فضلاً كبيراً على الكتابة العربية بعد إذ جاوزت دور شيخوختها .

كان النثر الفنى منذ القرن الثانى للهجرة ريب الفرس وصنيعتهم ، ودليلاً ثابتاً على سابق مجدهم وحضارتهم . فقد نشأ هذا النثر العربى نشأة عربية خالصة منذ ظهور الإسلام ، ثم تأثر هذا النثر العربى بالحضارات الاجنبية التى اشتركت فى بناء الحضارة الإسلامية ، وبعد أن كان ذلك النثر العربى أميل إلى البساطة والسذاجة التى طبع عليها العرب ، أصبح أميل إلى المنطق والوخرف اللذين اقتضتهما الحضارات الاجنبية .

أما فى القرن الماضى فقد وجدنا السيد جمال الدين الأفغانى - وهو رجل من الأفغانستان غريب عن اللغة العربية ، أجنبى عن الأدب العربى ، لم يحصل عليهما إلا بطريق التعلم - يترك فى الأسلوب الأدبى أثراً لا يمحى من حيث يقصد السيد أولاً يقصد . بل وجدنا ظهور السيد فى مصر يعتبر نقطة تحول عظيم فى الحركة الأدبية ، كما كان نقطة تحول كبير فى الحركة السياسية .

وكذلك العظيم فى الأمة يهدى الله به من الخلق ، ويغير به من أوضاع الكون ما لو عرفه العظيم من نفسه لهاله الأمر ، وعجب من قدرة الله تعالى حين يريد بالناس الخير . ولقد كان من أنجب تلاميذ السيد جمال الدين رجل مصرى المولد ، أزهرى النشأة ، هو الشيخ محمد عبده . تحركت فى نفسه الرغبة فى الكتابة الصحفية

منذ كان طالباً في الأزهر أو على الأصح منذ كان يختلس من وقت الأزهر ساعات يقضيها في الاستماع إلى السيد جمال الدين . وقد شهد الشيخ بومئذ ميلاد صحيفة كانت من أعظم صحف مصر والشرق فيما بعد ، وهي صحيفة الأهرام . فبعث إليها بتقريره تقبلته الصحيفة منه شاكرة ومقدرة ، ومنذ يومئذ والشيخ يكتب في الأهرام ، فأتيحت له بذلك فرصة من أئمن الفرص ، حملته على التجرّد للكتابة في الصحيفة ، وترويض قلبه على هذه الصناعة الجديدة في وقت كان فيه الأزهريون لا يحسن أقومهم طريقة أن يكتب أربعة سطور باللغة العربية السليمة . ونحن إذ ننظر في مقالات الأستاذ الإمام منذ ذلك التاريخ إلى أن توفاه الله ، نرى أن هذه المقالات تجري - كما يقول الأستاذ الشيخ رشيد رضا - في أربع مراحل :

أولاً : ما كتبه الشيخ محمد عبده في عهد طلب العلم بالأزهر ، وذلك بإرشاد السيد جمال الدين الأفغاني في الغالب .

والثانية : ما نشره بعد دخوله في طور العمل وتصديه لإصلاح الحكومة والامة . وهو ما نشر في جريدة الوقائع المصرية الرسمية .

والثالثة : ما كتبه بعد نفيه من مصر بالاشتراك مع أستاذه جمال الدين الأفغاني ، وهو ما نشر بباريس في جريدة « العروة الوثقى » .

والرابعة : ما نشر له بعد ذلك ، أي بعد عودته من المنفى ، من شتى المقالات في الصحف السورية والمصرية .

ولنقف وقفة قصيرة عند كل مرحلة من هذه المراحل

المرحلة الأولى

ويمكن أن يقال إن المرحلة الأولى من هذه المراحل كانت للتهيئة والإعداد ، وفيها - كما سنرى من ثنايا النماذج التي سنعرضها من كتابات الشيخ - نجد أسلوب شاب مبتدى . يحاول في أول أمره أن يقلد طريقة المتأديبين في زمانه ،

فيتجرى السجع في الكتابة ، ويملا مقاله بطائفة من الألفاظ اللغوية الغريبة ، والتشبيهات التي ربما لا يستريح القارئ الحديث إلى الكثير منها ، كما يصطنع التعبيرات التي حارل فيها الأخذ من العلوم الحديثة ، وإن كان لم يحسن بعد هذا الأخذ على الوجه الذي يرضى الذوق .

ومع هذا وذاك كان الشيخ المبتدىء في المرحلة الأولى من الكتابة طويل النفس في العبارة ، يحاول أن يقلد أسلوب الكتاب المفتونين بالسجع في القرن الرابع الهجري . وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على حسن استعداد الرجل للكتابة ، أضف إلى ذلك أن معاني الشيخ في مقالات المرحلة الأولى كانت غزيرة ، لأن أكثر هذه المعاني كان مأخوذاً من السيد جمال الدين - فإن دل ذلك أيضاً على شيء ، فإنما يدل على حسن استعداد الشيخ للإصلاح الديني والإصلاح الاجتماعي

وخير لنا بعد ذلك أن نعرض للقارئ نموذجاً لكتابه في هذه المرحلة ، وأن نشير بعد ذلك إلى البقية من مقالات هذه المرحلة إشارة موجزة .

كان الشيخ مجاوراً في الأزهر حين اتصل بجريدة الأهرام الأسبوعية ونشر مقاله في العدد الخامس من السنة الأولى لهذه الجريدة ، وذلك في سبتمبر سنة ١٨٧٦ م الموافق ١٤ شعبان سنة ١٢٩٣ هـ ؛ وكان موضوع المقال تقرّظ جريدة الأهرام ، قال :

النموذج الأول

في تقرّظ الأهرام

إنه لما ظهر لدى كل قاص ودان ، واشتهر بين بني نوع الإنسان ، أن يملكه مصر كانت في سאלعة الزمان ، يملكه من أشهر الممالك ، وكمية يؤمها كل سالك وناسك ، إذ كانت قد اختصت بنشر العلوم ، وبث المعارف المتعلقة بالخصوص والعموم ، وانفردت بالبراعة في الصنائع ، والابتكار في أنواع البدائع ؛ فكان أبناء العالم إذ ذاك يفتنون نداها ، ويستجدون جدها ، يستمطرون من الغيث

قطراً ، ويستمدون من المحيط نهرأ ، فسكان التمدن فيها كهلا ، حين كان عند غيرها طفلا . ولا زالت كذلك حتى زها فيها التمدن . ولا صعب ، إذ رأى الطالبين تنسل إليه من كل حذب ، وأن ملوك الأرض خدام عتبه ، وتيجان السكيانيين تحت قبضته فاستكبر واعتلى ، ولكشوس الراحة اجتملى ، فأقصته إلى مالك الغرب . ليدوق مرارة السغب أو اللغب ، ويتربى بذلك ويتأدب . فبدأ بتلك الممالك غربياً ، ونادى معلماً فوجد مجيباً ، وتناوشته أيدي الجاحدين ولفحته أقوال المنكرين . ولا زال يحتمل أنواع المتاعب ، ويقامى مستعصيات المصاعب ، إلى أن بلغ بها أشده وملك رشده ، وسار فيها شرقاً وغرباً ، وخامر ألباب القوم حياً ، فهم اتشاره ، وهدت آثاره . وتلايلات أنواره ، وإذ تحلى بحلال الجمال وتوج بتاج السكالك ، وقضى مدة السياحة ، وباء بغاية الراحة ، استدار الزمان كهينته ورجع الأمر إلى بدايته ، وقفل التمدن إلى مسقط رأسه ومقر تربته ، فورد ديار مصر وورود الأهل ، وتمكن بها تمكن الأصلى ، فاستقبلته الديار بغاية المسرة ، وأكرمت مشواه وأعظمت أمره ، واستردت ما كانت فقدت ، وأدنت ما كانت أنأت ، وأحلته محل القرب ، وأنزلته سويداء اللب ، فقام يؤدي حق خدمتها ، ويوفى شكر كرامتها ، فنظر إلى ما كان أبداه في تلك الأزمان ، من شواحق البنيان ، التي كم بلغت الأسباب ، وحيرت الألباب ، وأنبات بما فيها من براعة بانها ، ونطقت بفيها ، أن آيات السكالك فيها . فلما أعجب بالمثال ، حده حادى السكالك ، لأن ينسج عن هذا المنوال ، فأنشأ لنا (جريدة الأهرام) ، المؤسسة على أمحكم قواعد الأحكام ، الكافلة بإرشاد المسترشدين وتنبية الغافلين ، بما فيها من المباني الرقيقة ، والمعاني الدقيقة ، والألكار العالية ، المؤيدة بالبراهين الشافية ، القائمة بنشر العلوم بين العموم . قبالها من جريدة أسست قواعدها في القلوب ، وامتدت مبانيها لكشف الغيوب ، تنادى بمقالها وحالها : حتى على الفلاح ، وهلموا إلى موارد النجاح ، لا تقفوا عند صورة المبني ، ولكن تجاوزوا عنه إلى المعنى تلك أهرام أشباح ، وهذه غذاء أرواح . تلك ظواهر صور ، وهذه دقائق عبر ، تلك مساكن أموات ، وهذه لسان سر السماوات . نعم أين ذلك الزمان ، من هذا الآن ، الذي قد سطعت فيه شمس المرفان ونشأ فيه

بنو الإنسان نشأة أخرى ، وتقلب في فنون الحقائق بطناً وظهراً أن تكون أيامنا غير أيامهم ، وأهرامنا غير أهرامهم وأين الذي تغنيه الرياح والأمطار ؛ من الذي لا يوهنه توالي المدد والأعصار ، فإن مقره العقول العاليات ، والنفوس الزكيات ، التي لا يتناولها الفناء . ولا يبتذلها العناء . فيخرب بخمئيشها ، وطوبى لقاريا . ومن الواجب على ذوى الألباب أن يجتنوا جناها ، وأن يستطلعوا سر معناها ، فيبوءوا بأنوار الحكمة ، وينقلبوا بفضل من الله ونعمته ، فإنه ليس شيء لدى العاقل أبهى من حقيقة يكشفها ، ولا أذل من حكمة يصادفها .

هذا إيجاز في مزاياها ، بسم الله مجراها ومرساها . آه

والقارىء لهذا المقال يلاحظ - كما قدمنا - أنه بنى على سجع متكلف ، من أوله إلى آخره ، وأن فيه إشاراتاً للتراكيب القديمة مثل قوله بخمئيش ، وقوله . . تنادى بمقالها وحالها حتى على الفلاح ؛ كما يلاحظ أنه بنى كذلك على التخيل إذ فيه يتخيل الكاتب رحلة التمدن من مصر إلى أوروبا ، ثم عودته إلى مصر مرة أخرى حيث لقي من الإكرام ما انطلق لسانه بالشكر لها ، والإعجاب بأهرامها ، فآلى على نفسه أن يبنى فيها أهرامها أخرى ، هي هذه الجريدة التي جاءد الشيخ يقرظها بأسلوب المبتدىء ، حتى لكأنه شاعر في غرزمته (١) يطمح إلى مج أدبي لم يتح له بعد .

وهكذا مضى الشيخ يد جريدة الأهرام بمقالاته من العدد الخامس إلى العدد الواحد والأربعين . ونال في أثناء ذلك شهادة العالمية من الدرجة الثانية ، وذلك عام ١٢٩٤ هـ ونشر في أثناء ذلك أيضاً مقالين له في جريدة (مصر) لصاحبها أديب إسحاق ، أولاهما بعنوان (فلسفة التربية) والثانية بعنوان (فلسفة الصناعة) وهما خلاصة دروسين من دروس السيد جمال الدين الأفغانى لا أكثر ولا أقل . ومن ثم لم يلتزم الشيخ السجع فيهما طويلاً ، لأن حرصه على نقل أفكار أستاذه كان يستأثر بجهده كله .

(١) الغرزمة أول ما يقوله الشاعر من الشعر على سبيل المحاولة .

وبما كتبه بجمريدة الأهرام في هذه المرحلة مقالة بعنوان (القلم والكتابة) ومقالة بعنوان (المدبر الإنسان والمدبر العقلي الروحاني) ومقالة بعنوان (العلوم الكلامية والعلوم العصرية) .

ونبه الشيخ رشيد رضا بعد ذلك إلى مقالة الأستاذ الإمام نشرت له بإحدى الصحف في آخر يوليو عام ١٨٧٩ انتقد فيها الدولة العثمانية في عيبها باستقلال تونس الإداري ، ومحاولتها كذلك العبث بحقوق مصر وامتيازاتها عقب سقوط إسماعيل وتولية توفيق . والشيخ في جميع هذه الفصول الأدبية السابقة يميل إلى السجع ويأخذ نفسه بالتزامه ، ويحاول الأخذ عن العلوم الحديثة على سبيل (التوجيه) . والتوجيه نوع بلاغي يصطنع فيه الأديب بعض المصطلحات العلمية ، وكان الشيخ يحشو بعض كلامه بالحكم والأمثال ، وينزل أحيانا إلى استخدام الأسماء العامية .

والشاهد في قوله (طلعات الشرايين) فليست الحاجة ماسة إلى ذلك ، أما من حيث الموضوع فالشيخ في كل ما كتب إلى الآن يوضح للناس فوائد الصحف تارة ، وقيمة العلوم الحديثة تارة ، ويسخر من انتقار الأثر للمنطق تارة تارة ، وينقد سياسة الدولة العلية آخر الأمر ، وذلك فضلا عن تلخيصه دروس جمال الدين .

المرحلة الثانية

وانتقل الشيخ محمد عبده بعد ذلك إلى الكتابة في الوقائع المصرية الرسمية كما رأينا ؛ وبتاريخ ١٤ ذى القعدة سنة ١٢٩٧ هـ ، ١٩ أكتوبر سنة ١٨٨٠ م كتب مقالاته الأولى بعنوان (حكومتنا والجمعيات الخيرية) ، ثم بعنوان (احترام قوانين الحكومة وأوامرها من سعادة الأمة) . ثم بعنوان (حب الفقر وسفه الفلاح) وهكذا حتى المقالة السابعة عشرة ، وكان عنوانها (خطأ العقلاء) ثم قامت الثورة المرابية فتحول الشيخ من المقالات الاجتماعية إلى المقالات السياسية ، وكتب مقالته الثانية والثلاثين بعنوان (الحياة السياسية) والثالثة

والثلاثين بعنوان (الشورى) ثم قبض عليه فيمن قبض عليهم من زعماء الثورة .

ولقارى. هذه المقالات ملاحظات على الأسلوب ، وأخرى على الموضوع . فأما من حيث الأسلوب فقد عدل الشيخ عدولا ظاهرا في هذه المرحلة عن السجع ، ولكن إلى ما يسميه النقاد (بالازدواج) أو (الترادف الصوتي) وهو نوع من السجع لا تلزم فيه القافية ، كما عدل الشيخ عن الألفاظ الغريبة التي كان يأتي بها أحيانا في مقاله من قبيل المباهاة ، إلى الألفاظ السهلة التي لا يجسد القارى العادى في فهمها أدنى صعوبة ، كما توخى البساطة أيضا فيما أتى به من تشبيهات ، وفي مقاله (حب الفقر وسفه الفلاح) شبه المرفق بمن يصب ماء في حوض فتحت في قاعه بالوعة كبيرة لا تبقى شيئا مما يصب في الحوض^(١) وإذ يقول : ومثلنا في ذلك كمثل الدجاجة رأيت أن الأوزة تبيض بيضا كبيرا فطلبت أن تبيض مثلها فأجهدت نفسها في أن يكون ذلك ، غير عارفة أن ذلك لا يكون إلا باستعداد - أى بأن تكون أوزة - فخبست نفسها واستعملت قوتها الدافعة حتى انشقت منها ما انشقت وتمزقت منها ما تمزقت الخ^(٢) وهكذا حاول الكاتب تبسيط أفكاره وتبسيط أسلوبه وألفاظه وتشبيهاته إلى درجة كبيرة ليفهمه جميع الناس .

وكان الشيخ في أثناء ذلك لا ينسى إيراد الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والآيات الشعرية في غضون كلامه - غير أنه كان مقتصدا كل الاقتصاد في هذه الناحية .

وأما من حيث الموضوع فقد وقف الشيخ في هذه المرحلة من حياته السكتانية موقف المعلم للشعب المصرى ، واتخذ من الوقائع المصرية منبرا يعظ الناس من أعلاه ويرشدهم ، ويوقظ فيهم شعورا بضرورة الإصلاح . ومن ثم جاءت جميع مقالاته في هذه المرحلة دروسا اجتماعية ودينية لا أكث ولا أقل ؛ فدرس في

(١) س ٦٠ ج ٢ تاريخ الأستاذ الإمام الطبعة الثانية .

(٢) س ١٢٦ ج ٢ تاريخ الأستاذ الإمام الطبعة الثانية .

تعليم الناس القانون ، ودرس في حقوق الوطن ، ودرس في كيف يستفيد الناس من المنتديات العامة . وكيف ينفقون أوقاتهم فيها ؟ ودرس في حاجة الإنسان إلى الزواج ، وفي حكمة الشريعة في تعدد الزوجات ، ودرس في محاربة البدع السيئة كبدعة الازدحام في المساجد أيام الحضرات ، وبدعة (الدوسة) وهي أن ينطح الناس على الأرض متلاصقين ، ثم يمر أحد المشايخ على ظهورهم بحصان يدوسهم جميعاً ، ثم درس في الحذر من المبشرين الذين يديرون طائفة من المدارس يأوى إليها نفر من أبناء الشعب في مصر ، ودرس في وخامة الرشوة ، ودرس في الشورى والقانون ، وهكذا .

ولا بأس من أن نسوق للقارىء نموذجاً واحداً فقط من مقالات الشيخ في هذه المرحلة ، وليكن المقال السابع عشر ، بعنوان :

خطأ العقلاء (١)

إن كثيراً من ذوى القرائح الجديدة ، إذا كثروا من دراسة الفنون الأدبية ومطالعة أخبار الأمم وأحوالهم الحاضرة ، تولد في عقولهم أفكار جلية ، وتنبعث في نفوسهم همم رفيعة ، تندفع إلى قول الحق ، وطلب الغاية التي ينبغي أن يكون العالم عليها . ولكونهم اكتسبوا هذه الأفكار وحصلوا تلك الهمة من الكتب والأخبار ، ومعاشرة أرباب المعارف ، ونحو ذلك ، تراهم يظنون أن وصول غيرهم إلى الحد الذي وصلوا إليه ، وسير العالم بأسره ، أو الأمة التي هم فيها بتمامها على مقتضى ما علوه ، هو أمر سهل مثل سهولة فهم العبارات عليهم ، وقريب الوقوع مثل قرب الكتب من أيديهم ، والألفاظ من أسماعهم . فيطلبون من الناس طلباً حائناً أن يكونوا على مشاربهم . ويرغبون أن يكون نظام الأمة وناموسها العام على طبق أفكارهم وإن كانت الأمة عدة ملايين . وحضرات المفكرين أشخاصاً معدودين . ويظنون أن أفكارهم العالمة إذا برزت من عقولهم

(١) هذا المقال يدل على عقلية الشيخ الإمام . وعلى أنها عقلية تطوروية لاثورية حكمائية أستاذه السيد جمال الدين الأفغانى .

إلى حيز الكتب والدفاتر . ووضعت أصولاً وقواعد لسير الأمة بتامها . ينقلب بها حال الأمة من أسفل درك في الشقاء إلى أعلى درج في السيادة . وتبدل العادات وتتحول الأخلاق ، وليس بين غاية النقص والكمال إلا أن ينادى على الناس باتباع آرائهم .

تلك ظنونهم التي تحدثهم بها معارفهم المكتسبة من الكتب والمطالعات . وإنهم وإن كانوا أصابوا طرفاً من الفضل من جهة استقامة الفكر في حد ذاته وارتفاع الهمة وانبعثت الفيرة ، لكنهم أخطئوا خطأ عظيماً من حيث إنهم لم يقارنوا بين ما حصلوه وبين طبيعة الأمة التي يريدون إرشادها ولم يجتبروا قابلية الأذهان . واستعدادات الطبائع للاقتياد إلى نصائحهم واقتفاء آثارها ، ولو أنهم درسوا طبائع العالم كما درسوا كتب العلم ، ودققوا النظر في سطور أخلاقه وعاداته الحقيقية الواقعية التي اقتضتها حالة وجوده ؛ بل لو قارنوا بين الحوادث المسطرة في الكتب ؛ وتبينوا كيفية انتقال الأمم من بداياتها إلى نهاياتها ؛ لعلموا أن الأمم في أحوالها العمومية كالأشخاص في أحوالها الخصوصية ؛ بل إن الأحوال العمومية هي عبارة عن مجموع الأحوال الخصوصية . وليست الأمة مثلاً إلا بمجموعة أفرادها . وليس حال الهيئة المركبة من تلك الأفراد إلا بمجموع أحوال هاته الأفراد .

فعل من يريد كمال أمة بتامها أن يقيس ذلك بكل كل فرد منها ، ويسلك في تكميل العموم عين الطريق التي يسلكها لتكميل الواحد . هل يسهل على صاحب الفكر الرفيع أن يودع في عقل الطفل الرضيع ، أو الصبي قبل رشده وقبل أن يتعلم شيئاً من مبادئ العلوم تلك الأفكار العالية ، التي نالها بالجد والاجتهاد وكثرة المطالعات ؟ كلا ؛ بل لو أراد أن يجعل شخصاً من الأشخاص على مثل فكره احتاج إلى أن يبدأ بتعليمه القراءة والكتابة ، ثم مبادئ الفنون السهلة التحصيل ، ثم يتدرج شيئاً فشيئاً حتى ينتهي بعد سنين عديدة إلى بعض مطلوبه ؛ ثم هو خلال ذلك محتاج إلى أن يمحصر أعماله ويقيدتها بقيود من الترغيب والترهيب ؛ وأن يراقب حركاته في أعماله خوفاً من اختلاط الفاسدى

الأخلاق والافكار، أو المائلين إلى الكسالة والبطالة أو ورود، واردة الشهوات ونحو ذلك من الملاحظات التي لا بد منها . فإن اختلف شيء من الترتيب في التعليم بأن قدم الأصعب على الأسهل مثلا ، أو أهمل ملاحظة أعماله وأحواله ، اختلفت التربية ، وذهبت الآداب سدى . واستحال صيرورة حال ذلك الشخص بمثابة لحالة مرشده .

ولو أنه أراد تحويل أفكار شخص واحد وهو في سن الرجولية هل يمكنه أن يبدلها بغيرها بمجرد إلقاء القول عليه ؟ كلا ؟ إن الذي تمكن في العقل أزمانا لا يفارقه إلا في أزمان ، فلا بد لصاحب الفكر أن يجتهد أولا في إزالة الشبه التي تمسك بها ذلك الشخص في اعتقاداته ؟ وذلك لا يكون في آن واحد ، ولا بعبارة واحدة ؟ ولكن بعبارات مختلفة في التقريب ، بعضها سهل المأخذ قريب المنال ، والبعض أرقى منه ؛ وبعضها خطابي ، والآخر برهاني ، وما شابه ذلك . فإن لم يتخذ تلك الوسائل في إرشاده ، امتنع عليه مقصوده ، بل ربما جره نصحه إلى الضرر بنفسه . تلك هي الحالة المشهورة التي لا ينكرها أحد ، ثم إن نجاحه في تغيير فكر واحد مع كل هذا الاجتهاد ، موقوف على أن صاحب ذلك الفكر الفاسد ، لا يعاشر ولا يتخالط في خلا تعلمه إلا مرشده صاحب الفكر السليم ، فإن كان يتخالط غيره ممن يؤيد فكره الأول طال الزمن ، وربما لم ينجح فيه الإرشاد ، وأظن أن هذا يعترف به كل من مارس الأخلاق والعادات .

إن كان هذا حال شخص واحد إذا أردنا إصلاح شأنه في صغره أو كبره . مع أنه سهل ضبط أعماله وأحواله ، والوقوف على كنهه أو صافه ودرجات تقدمه في المقصود وتأخره فيه ؛ فما ظنك بحال أمة من الأمم تختلف عناصرها ، وتباين شعوبها ؟ فن الخطأ بل من الجهالة أن تكلف الأمة بالمسير على ما لا تعرف له حقيقة ، أو يطلب منها ما هو بعيد من مداركها بالكيفية ، كما أنه لا يليق أن يطلب من الشخص الواحد ما لا يعقله ، أو ما لا يجد إليه سبيلا .

ولنما الحكمة أن تحفظ لها عوائدها السكينة المقررة في حقول أفرادها ثم يطلب بعض تحسينات فيها لا تبعدها عنها بالمرّة . فإذا اعتادوها طلب منهم ما هو

أرق بالتدريج ، حتى لا يمضى زمن طويل إلا وقد انخلعوا عن عاداتهم وأفكارهم المنحطة إلى ما هو أرق وأعلى من حيث لا يشعرون . أما إذا وضع لهم من الحدود مالم يصلوا إلى كنهه ، وكلفوا من العمل مالم يهدوه ، أو خولوا من السلطة مالم يهدوه ، رأيتهم يتعبطون في السير خلفاء المقصود عنهم ، وضلال الرأي فيما لم يكن يمر على خواطرهم ، فيمكن أن يخرجوا عن حالتهم الأولى لكن إلى ما هو أتمس منها بحكم الاستعداد القاضى عليهم بذلك .

مثلا : إننا نستحسن حالة الحكومة الجمهورية في أمريكا ، واعتدال أحكامها ، والحرية التامة في الانتخابات العمومية في رؤساء جمهورياتها ، وأعضاء نوابها وبجالسها ، وما شاكل ذلك ، ونعرف مقدار السعادة التي نالها الأهالي من تلك الحالة ، ونعلم أن هذه السعادة إنما أتت لهم من كون أفراد الأمة هم الحاكمين في مصالحهم بأنفسهم ، لأنهم أرباب الانتخابات ، وإنما رؤساء الجمهوريات وأعضاء المجالس نواب عنهم في حفظ تلك المصالح والحقوق التي رأوها لأنفسهم ، وتشوق النفوس الحرة أن تكون على مثل هذه الحالة الجليلة — لكننا لانستحسن أن تكون تلك الحالة بعينها — لأفغانستان مثلا — حال كونها على ما نعهد من الخشونة فإنه لو فوض أمر المصالح إلى رأى الأهالي ، لرأيت كل شخص وحده له مصلحة خاصة لا يرى سواها ، فلا يمكن الاتفاق على نظام عام ولو طلب منهم أن ينتخبوا مائة نائب مثلا لرأيت كل شخص ينتخب صاحبا له أو نسيبا أو قريبا ، فربما ينتخبون آلافا مؤلفة ، ثم لا ينتهى الانتخاب إلى المرغوب أصلا ، لو قوف كل واحد ضد انتخابه الأول ولو وكل إليهم انتخاب رئيس للحكومة لانتخب كل قبيلة رئيساً منها ، ثم يقع المرح بين الرؤساء ، وهكذا حال الأمم التي تعودت على أن يكون زمامها بيد ملك أو أمير أو وزير يدير أعمالها العامة وإلا فسدت . فإذا أردنا إبلاغ الأفغان مثلا إلى درجة أمريكا ، فلا بد من قرون تبت فيها العلوم ، وتهذب العقول ، وتذلل الشهوات الخصوصية ، وتوسع الأفكار السلبية ، حتى ينشأ في البلاد ما يسمى بالرأى العمومى . فعند ذلك يحسن لها ما يحسن لأمريكا . ويعجباً ! هل الشخص الذى توارث العوائد عن آباءه وأجداده ، ومرن عليهم من

مهده إلى كهولته ، وتعود تفويض مصلحته إلى إرادة غيره يصبح أن يطلب منه في زمان واحد خلع جميع ذلك ، ويلقى إليه زمام مصلحته ، وهو في جميع عمره لم يفكر فيها؟ إن هذا الخطأ ظاهر .

ولكون أرباب الأفكار منا يرومون أن تكون بلادنا ، وهي هي كبلاد أوروبا وهي هي ، لا ينجحون في مقاصدهم ، ويضرون أنفسهم بذهاب أفعالهم أدرج الرياح ، ويضرون البلاد بجعل المشروعات فيها على غير أساس صحيح ، فلا يمر زمن قريب إلا وقد بطل المشروع ، ورجع الأمر إلى أسوأ مما كان ، فيفوت الزمان وهم على حالهم القديم وكان لهم إمكان أن يكونوا على أحسن منه فن يريد خير البلاد فلا يسعى إلا في إتقان التربية ، وبعد ذلك يأتي له جميع ما يطلبه إن كان طالباً حقاً بدون أنعاب فكر ، ولا إجهاد نفس . وفي الكلام بقية أذكرها فيما بعد هذا العدد .

وواضح من قراءة هذا المقال أن الفكرة فيه هي اللامعة ، وأن الأسلوب فيها أتى لخدمة هذه الفكرة ، وأنه ساقها سوقاً حسناً ، وتدرج في إيفائها للقارىء كما يتدرج المدرس الماهر في إيفهام التلاميذ درساً جديداً عليهم ، غريباً على أذهانهم . هذا من حيث الأسلوب ، وأما من حيث منهج التفكير فلا نعرف أن مقالا أدل على عقل صاحبه وعلى إثباته التدرج في الإصلاح من هذا المقال .

المرحلة الثالثة

نتقل بعد ذلك إلى المرحلة الثالثة من مراحل الكتابة الصحفية للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، وهي المرحلة التي كان فيها الإمام بياريس إلى جانب أستاذه السيد جمال الدين الأفغاني .

وهناك فكر الرجلان في الطرق المؤدية لإصلاح الشرق الإسلامي ، فكان من رأى الإمام أن يكون ذلك بإنشاء ما سماه (مدرسة الزعماء) ، يتخرج فيها مصلحون عظام ، ينبشون في أعماق هذا الشرق وبلدانه ، ويدشرون بعهد الإصلاح الجديد في الدين وفي المجتمع ، ولكن هذا الرأى لم يرق في نظر السيد جمال الدين ، وهو رجل يلهب حماسة وغيرة على مصلح الشرق والشرقيين ، ولا يعرف للإبطاء

سبيلا من سبل الإصلاح ، بخلاف محمد عبده وقد رأينا في مقاله (خطأ العقلاء) يؤمن بالتدرج ولا يطمئن كثيراً إلى النظر في الطفرة ، وتغلب الأستاذ على تليذه في النهاية ، واتفقا معاً على إنشاء (جريدة العروة الوثقى) واشتركا في تحريرها يومئذ ، وأشركا معهما كذلك (ميرزا محسن باقر) ، فكان يقوم بعمل المترجم عن الصحف الأجنبية لسكل ما يهتم به العالم الشرقي وكان من وراء هذه المجلة جمعية سرية تليث في جميع أقطار العالم الإسلامي ، وتضم إليها نفراً من المسلمين المثقفين المعروفين بالغيرة والتحمس الشديد للدين ، ويقسم كل واحد منهم قسم أن يبذل ما في وسعه لإحياء الأخوة الإسلامية وإنزالها منزلة البنوة والآبوة الصحيحتين ، وألا يقدم إلا ما قدمه الدين ، ولا يؤخر إلا ما أخره الدين ، ولا يسعى قدما واحدة يتوهم فيها ضرراً يعود على الدين ، جزئياً كان أو كلياً ، وأن يطلب الوسائل لتقوية الإسلام عقلاً وقدرة ، وأن يوسع معرفته بالعالم الإسلامي من كل نواحيه بقدر ما يستطيع (١) . وأنشئت للجمعية فروع في البلدان المختلفة ، يجتمع كل فرع منها للذاكرة ، وفي آخر كل اجتماع يتبرع الأعضاء بشيء من المال في صندوق صغير له نقب ضيق ، فيه كل ما تيسر خفية ، حتى لا يعلم من أدى أقل ومن أدى أكثر . ولعل هذا الباب هو ما كان ينفق منه على الجريدة والقائمين بها . فقد كانت ترسل أكثر أعدادها مجاناً .

برنامج العروة الوثقى :

وأما برنامج الجريدة فقد أوضحه في ختام المقالة الأولى حيث قال ما معناه أنه يتلخص في الأمور الآتية :

أولاً : إلهام الشرقيين واجباتهم التي كان التفريط فيها موجباً لسقوطهم ، وتوضيح الطرق التي يجب سلوكها لتدارك ما فاتهم .

ثانياً : إلهامهم كذلك أن الأمل في النجاح قريب ، إذ لا حاجة في الوصول

(١) زعماء الإصلاح للأستاذ أحمد أمين ص ١٨٠ .

إلى نقطة الخلاص المرغوبة إلى قطع دائرة عظيمة . تصورها يوجب فتور الهمم ،
وإنحطاط العزائم .

ثالثاً : دعوة المسلمين كافة إلى التمسك بالأصول التي كان عليها آباؤهم
وأسلافهم ، فلا يصلح آخر هذا الأمر إلا بما صلح به أوله ، والمثل الأعلى للمسلمين
في نظر الجريدة هنا هو ما كان عليه الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين قبل أن
يدخل عليهم الفساد من أبواب شرحتها الجريدة شرحاً واقياً في المقالات التي
تيسر لها أن تنشرها .

رابعاً : إبطال الزعم بأن المسلمين لا يتقدمون في مضار المدنية الحاضرة
ماداموا مستمسكين بدينهم ، لأن دينهم في نظر من لا يفهمونه من الأوروبيين
يدعو إلى التواكل .

خامساً : تقوية الروابط والصلات بين الأمم الشرقية وتمكين الألفة بين
أفرادها وتأييد المنافع المشتركة بينهم .

سادساً : وصل الشرقيين بما يهمهم من الأخبار العامة والأخبار الخاصة ،
وبسياسة الدول الأجنبية تجاه البلاد الشرقية ونحو ذلك .

غير أن الجريدة لم تصدر أكثر من ثمانية أعداد فقط ، من مارس سنة ١٨٨٤
إلى أكتوبر من تلك السنة .

وفي أثناء ذلك انتقل الشيخ محمد عبده من دائرة ضيقة كان يعمل فيها
لإصلاح مصر من الناحيتين الدينية والاجتماعية ، إلى دائرة أوسع وأكبر هي
الدائرة التي أصبح فيها مع السيد جمال الدين يعمل لصالح السكافة من المسلمين في
مشارك الأرض ومغاريها .

ثم هكذا استبدل الشيخ بطابع الهدوء الذي غلب على نفسه وخلقه طابع
الثورة التي انتقلت إليه بالعدوى من أستاذه ، وقد رأينا أن أستاذه كان لا يمهله
حتى يفكر بالطريقة التي تعودها . لكن كان يدفعه بقوة لا تعرف الإبطاء
لمحاربة الأدواء التي نخرت بسببها عظام الإسلام إذ ذاك .

ولإذن فلا مفر للشيخ من مسامرة هذا الجواد الجامح بدو بعدوه ويركض

بركضه ويصهل بصهيله ويذب بوثوبه ، لايلوى على شيء ا وهاهو ذا الشيخ في باريس يقوم بدور المعلم المصلح للعالم الإسلامى كله ، بعد أن كان في مصر معلما للمصريين وحدهم . ومن ثم أخذت مقالاته في العروة الوثقى طابع الدعوة الحارة إلى جانب الطابع الأول ، وهو طابع الدرس الخالص الهادى . ومضى يكتب نحواً من اثنتين وعشرين مقالة بهذا الروح ، كان للسيد فيها فضل الفكرة في أكثرها ، وكان للشيخ فيها فضل الأسلوب في أكثره .

والقارى . لهذه المقالات كلها يرى كيف كان هذان الرجلان يدركان أن إصلاح الشرق لا يكون إلا عن طريق الدين . فالدين في رأيهما فيه صلاح الدنيا وصلاح الآخرة معاً . وعندهما أنه لا جنسية للمسلمين إلا في دينهم ، وأن الجامعة الإسلامية ، يجب أن تقوم مقام الروابط الأخرى ، بل ينبغي أن تكون مقدمة عليها . وفي رأيهما أن الدين الإسلامى يدعو إلى القوة ، ويدعو إلى العلم ، والعلم في ذاته طريق من طرق القوة . ولذا يتمجب الرجلان أشد العجب من الأمم المسيحية في العصر الحاضر سبقت الأمم الإسلامية في ميدان القوة التي بنى الدين الإسلامى عليها .

ويرى الإمامان العظيمان أنه عن طريق الدين يمكن أن يسموا بنفوس المسلمين إلى المجد ، وأن يجددا فيهم الأمل ؛ لأن الدين الإسلامى لا يأمر بالجهن ولا باليأس ، ولكن يدعو إلى الافدام ويجهد طريق القوة ، ويكره القنوط (ولا يقنط من روح الله إلا القوم الكافرون) .

وفي رأيهما أنه لا بد من إصلاح الأفكار الخاطئة التي تسود الشرق وتسيطر على أذهان أهله وهى أخطار جسيمة يمكن أن يكون لها عنوان واحد هو (الروم) ، فعلى المصلحين أن يتجردوا لمحاربتة حتى تتخلص الأمم الشرقية عما استولى عليها من الضعف وتسترد حريتها المسلوبة ويجدها القديم ، وتتقلب على عدوها الذى استغل فيها هذا المرض وهو الروم ، كما استغل فيها سوء فهمها لمقيدة القضاء والقدر ومتى فهم المسلمون دينهم على الوجه الصحيح استطاعوا أن يصلوا إلى المرتبة اللاتمة بهم بين الأمم . وعلى المسلمين في هذه الحالة أن يشجعوا العلوم الحديثة

التي توصل بها الأوربيون إلى الكشف عن آلات القتال ، فقد قال تعالى : وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، وعليهم أن يحاربوا الاحتلال الأجنبي أينما كان .

تلك هي الأفكار التي اشتملت عليها مقالات الشيخ في جريدة العروة الوثقى . أما الأسلوب الذي كتبت به هذه الأفكار فقد ارتفع في درجة جودته وبلاغته ، كما ارتفع في درجة حرارته وتدقيقه عما كان عليه في الوقائع المصرية الرسمية . والفضل في ذلك أولا لوجود الشيخ إلى جانب السيد - وهو مصدر إشعاع حراري لا يقدر مداره كإينا .

ثم إن الشيخ محمد عبدة كان في مصر يروض قلمه على التعبير حتى مر من هذا القلم ، وأكسبه هذا المران قوة وسهولة وجمالا وتدقيقاً في وقت معاً . فإذا أضيف إلى ذلك أنه كان يصدر عن عاطفة قوية منفسحة تسع العالم الإسلامي كله أدركنا إلى أي حد ارتفع أسلوب الشيخ في ذلك الحين ، أما السجع فقد استمر الشيخ في عدوله عنه ، ولكنه كان ينفلت منه انقلاباً ، وذلك حين تعلق في مقاله درجة الحرارة ، أو التدفق ، فيضطر الشيخ في هذه الحالة إلى السجع ، ويأتي سجعه إذ ذاك بمجرد إحداث توافق بين نفسه وبين قلمه ، أو بين اهتزازاته الشعورية واهتزازاته اللفظية إن صح هذا التعبير .

على أننا نلاحظ أيضاً أن أسلوب الشيخ في هذه المقالات كان لا يجرى مجرى الحديث العادي كما كان يفعل في المرحلة الأولى من مراحلها في الكتابة ، ولكن يجرى مجرى الخطابة ، وفيه كثير من خصائصها كتكرار الكلام بقصد التأكيد ، وكثرة النداء في غضون المقال ، وكثرة الإشارة والاستفهام الإنسكاري ونحو ذلك .

ومن السهل على قارئ هذه المقالات أن يدرك أن العناية بالفكرة توشك أن تغلب فيها العناية بالأسلوب ، وهذا ما يفسر لنا خلو العبارة أحياناً من الألفاظ الفحلة الجزلة ، ومن الجري وراء المحسنات وما إليها من أدوات الزينة اللفظية التي استعاض عنها الشيخ بصدق العواطف المنبثة في ثنايا المقال ، وبدرجة الحرارة التي وصل إليها

من أجل هذا حملت مقالات العروة الوثقى - كما قلنا - طابع الدروس الدينية أو السياسية ، حتى كأن بعض هذه المقالات إنما كتبت لتفسير القرآن تفسيراً يتفق وأغراض الجريدة .

ومع هذا وذاك فإننا نلاحظ في هذه الفصول الأدبية الصحفية أن ذوق كاتبها قد ارتفع إلى درجة كان يأتي فيها بالصور البيانية الرائعة ، ومنها على سبيل المثال :

« ومن الفضائل الحسنة التي يدعو إليها الدين النظر إلى أفراد الأمة الواحدة كأعضاء الجسد الواحد ، وإلى أن أصغر فرد في الأمة بمنزلة مسبار صغير في آلة كبيرة لو سقط منها تعطلت الآلة بسقوطه (١) . »

وقوله « إن الإنجليز صاروا كالدرودة الوحيدة على ضعفها تفسد الصحة وتدمر البلية (٢) . »

وقوله « أما الأجانب الذين لا يتصلون بصاحب الملك في جنس ولا في دين تقوم رابطة مقام المجلس فمثلهم في المملكة كمثل الأجير في بناء بيت لا يهمنه إلا استيفاء أجرته ثم لا يبالي أسلم البيت ، أو جرفه السيل ، أو أدركته الزلازل (٣) . »

وقوله « والفضائل في المجتمع الإنساني كقوة الحياة المستكملة في كل عضو ما يقدره على أداء عمله مع الوقوف عند حد وظيفته . كاليد بها البعش والتناول وليس من خصائصها الإبصار ، والعين من وظائفها الإبصار . . . الخ (٤) . »

ثم بالرغم من سهولة الألفاظ التي تتألف منها المقالات فقد يصطدم القارئ في حالات قليلة وليست شائعة ، بكلمة غريبة ، ولفظ قليل الاستعمال عند الكاتب .

(١) ص ١٣٦ مجلة العروة الوثقى ط ١ المكتبة الأهلية في بيروت .

(٢) ص ١٥٩ .

(٣) ص ١٩٠ .

(٤) ص ١٣٣ .

ومن أمثلة ذلك :

(وإذا أراد الله بشعب أن يلتقي بوائيه إلى أجل مسعى أودع في ضناضته هذين الوصفين الجليلين يريد الميل إلى الوحدة ، والكلف بالسيادة (١) .
(فقوله التي بوائيه معناه أقام وثبت ، وقوله ضناضته معناه أصوله) .

ومثل : ثمنج جماعة من متزندق هذه لأوقات في بيان مفسد التعصب الديني (٢) .

(فقوله ثمنج معناه خلط في الكلام)

ومثل قوله في فصل عن التعصب الديني : لفظ شغل مناطق الناس حتى صار نكأة للمتكلمين ، يلجأ إليه الصبي في تهنته ، والدلقاني في تفييقه (٣)
(فالدلقاني : سريع الكلام ، والتفييق : التنطع) .

ليس شك في أن الكاتب يلجأ أحياناً للألفاظ الغريبة ليحقق غاية بلاغية في نفسه ، ولكن الخطر في ذلك يأتي من أن القارئ إما أن يتمهل ويجهل ذاكرته حتى يعرف معنى الكلمة ، وإما أن يحاول البحث عنها في معاجم اللغة ، وهذه الحركة أو تلك كافية لأن تضع عليه المعنى وتفوت على الكاتب قصده من الإغراب .

على أن قارئ العروة الوثقى لا يسهه إلا الاعتراف لكتابها بحسن اختيار الألفاظ ذات الإيحاء الخاص . وهي صفة لا تنبسر لغير المهويين في الكتابة ، أو المثقفين بالثقافة الإسلامية العميقة .

ثم إن الأمثلة التي توخى الإمامان ضربها في مجلة العروة الوثقى ، كان معظمها مشتقة من السياسة الإنجليزية في الهند والافغان ومصر ، وقائماً على التنديد بهذه السياسة والفض منها ، وكشف اللثام عنها للعالم الإسلامي . وبهذا العنصر الأخير - وهو السخرية - استخفت مقالات العروة الوثقى اسم

(١) العروة الوثقى ط . المكتبة الأهلية بيروت ص ١٥٨ .

(٢) ص ١٩٦ .

(٣) ص ١٠٢ .

الكتابة الصحفية الصحيحة . فقد سبق أن قلنا مراراً أن شرط النجاح في كتابة
المقالة هو أن يكون الكاتب الصحفي ناقماً على شيء معين ، وأن يعبر عن هذه النقطة
إما بطريق الغضب — على مذهب الشرقيين إلى عصرنا هذا — أو بطريق الفكاهة
أو السخرية على مذهب الأوربيين إلى اليوم .

لم يبق إلا أن نعرض على القارئ نموذجاً واحداً من كتابة الشيخ
في هذه المرحلة الهامة من مراحل حياته . غير أننا لا نستطيع أن ننقل إلى
القارئ مقالا كاملاً من مقالات الشيخ في هذه الجريدة ، لأنها طويلة
ومسقة في الطول إلى الحد الذي لا يمكن نشره في جريدة من جرائد
الوقت الحاضر .

ولذلك نحن مضطرون إلى الاكتفاء بجزء فقط من إحدى المقالات ، ليكون
نموذجاً لأسلوبه في تلك الفترة .

ولتكن مقالته المشهورة بعنوان :

القضاء والقدر

قال بعد مقدمة طويلة استغرقت أربعة وعشرين سطراً (١) :

من ذلك عقيدة القضاء والقدر التي تعد من أصول العقائد في الديانة
الإسلامية الحقة ، كثير فيها انعطاف المغفلين من الإفرنج وظنوا بها الظنون . وزعموا
أنها ما تمكنت من نفوس قوم إلا وسلبتهم الهمة والقوة ، وحكمت فيهم الضعف
والضعف ، ورموا المسلمين بصفات ، ونسبوا إليهم أطواراً ثم حصروا عليها في
الاعتقاد بالقدر ، فقالوا . إن المسلمين في فقر وفاقة وتأخر في القوة الحربية
والسياسية عن سائر الأمم . وقد فشا فيهم فساد الأخلاق ، فكثرت الكذب
والنفاق والحياة والتحاقد والتباغض ، وتفرقت كلمتهم وجعلوا أحوالهم الحاضرة
والمستقبلية ، وغفلوا عما يضرهم وما ينفعهم ، وقنعوا بجيئة يأكلون فيها
ويشربون وينامون ، ثم لا ينافسون غيرهم في فضيلة ، ولكن متى أمكن لأحدهم

(١) ص ١١٤ العروة الوثقى ط . بيروت

أن يضر أخاه لا يقصر في إلحاق الضرر به ، لجلولوا بأسهم بينهم . والامم من وراهم قبلهم لقمة بعد أخرى .

ثم قال بعد اثنين وثلاثين سطرأ :

« واعتقد أولئك الإفرنج أنه لا فرق بين الاعتقاد بالقضاء والقدر ، وبين الاعتقاد بمذهب الجبرية ، القائلين بأن الإنسان مجبور (١) محض في جميع أفعاله . وتوهموا أن المسلمين بمقيدة القضاء يرون أنفسهم كالريشة المعلقة في الهواء ، تقلبها الرياح كيفما تميل ، ومتى رسخ في نفوس قوم أنه لا اختيار لهم في قول ولا عمل . ولا حركة ولا سكن . وإنما جميع ذلك بقوة جارية ، وقدرة قاسرة ، فلا ريب تتعطل قوام ، ويفقدون ثمرة ما وهبهم الله من المدارك والقوى ، وتمحى من خواطرم داعية السعى والمكسب ، وأجدر بهم بعد ذلك أن يتحولوا من عالم الوجود إلى عالم العدم . »

ثم قال بعد ثلاثة عشر سطرأ :

« نعم كان بين المسلمين طائفة تسمى « الجبرية » ذهب إلى أن الإنسان مضطر في جميع أفعاله اضطراراً لا يشوبه اختيار ، وزعمت الأفرق بين أن يحرك الشخص فكك للأكل والمضغ وبين أن يتحرك بفقفة البرد عند شدته . ومذهب هذه الطائفة يمهده المسلمون من منازع السفسة الفاسدة . وقد انقراض أرباب هذا المذهب في أواخر القرن الرابع من الهجرة ، ولم يبق لهم أثر . وليس الاعتقاد بالقضاء والقدر هو عين الاعتقاد بالجبر ، ولامقتضيات ذلك الاعتقاد ماظنه أولئك الواهمون . »

ثم قال بعد خمسة وثلاثين سطرأ :

« الاعتقاد بالقضاء والقدر إذا تجرد عن شناعة الجبر تبعه صفة الجرأة والإقدام ، وخلق الشجاعة والبسالة ، ويبحث على اقتحام الممالك التي تجف لها قلوب الأسود ، وتنتشق منها مرائر النور . هذا الاعتقاد يطبع الأنفس على الثبات ، واحتال المكاره . ومقارعة الأهوال ، ويحلبها بحلى الجود والسخاء ؛ ويدعوها

(١) كذا وردت هذه الكلمة بالأصل ؛ ومضمها جبر .

إلى الخروج من كل ما يزع عليها ، بل يحملها على بذل الأرواح ، والتخلي عن
نصرة الحياة . كل هذا في سبيل الحق الذي قد دعاها للاعتقاد بهذه العقيدة .

والذي يعتقد بأن الأجل محدود والرزق مكفول ، والأشياء بيد الله يصرفها
كيف يشاء ، كيف يهرب الموت في الدفاع عن حقه ، وإعلاء كلمة أمته وملته ،
والقيام بما فرض الله عليه من ذلك ؟ وكيف يخشى الفقر عما ينفق من ماله في
تقرير الحق وتشهيد المجد ، على حسب الأوامر الإلهية ، وأصول الاجتماعات
البشرية ؟

امتدح الله المسلمين بهذا الاعتقاد مع بيان فضيلته في قوله الحق : « الذين
قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا
الله ونعم الوكيل فاقبلوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان
الله والله ذو فضل عظيم » .

إلى الآن كان الشيخ في مقاله هادئاً أو كالمهادى ، أو قل إن درجة الحرارة
كانت ترتفع في مقاله شيئاً فشيئاً ، وما زالت كذلك حتى وصلت إلى درجة تشبه
الغليان في العبارة الآتية :

« اندفع المسلمون في أوائل نشأتهم إلى الممالك والأقطار يفتحونها
ويتسلطون عليها ، فأدهشوا العقول وحيروا الألباب بما دوخوا الدول وقهروا
الأمم ، وامتدت سلطاتهم من جبال بيريني (يريد البرانس) الفاصلة بين إسبانيا
وفرنسا إلى جدار الصين ، مع قلة عددهم وعددهم ، وعدم اعتمادهم على الأهوية
المختلفة ، وطلبائع الأفكار المتنوعة . أرغموا الملوك وأذلوا القياصرة والأكابر ،
في مدة لا تتجاوز ثمانين سنة . إن هذا ليعد من خوارق العادات ، وعظائم
المعجزات » .

وانظر إلى الشيخ بنفلك منه السجع والازدواج ليوائم ما في نفسه — من
اهتزازات شعورية كما قلنا .

« دمروا بلاداً . ودكدكوا أطواداً ، ورفعوا فوق الأرض ثانية من
القسطل ، وطبقة أخرى من النقع ، وسحقوا رءوس الجبال تحت حوافر جيادهم ،

وأقاموا بدلها جبالا وتلالا من رؤوس النابذيين لسلطانهم ، فأرجفوا كل قلب وأرعدوا كل فريضة ، وما كان قائدهم وسائقهم إلى جميع هذا إلا الاعتقاد بالقضاء والقدر .

بهذا الاعتقاد لمعت سيوفهم بالمشرق ، واثققت شهبها على الخيامى فى هبوات الحروب من أهل المغرب ، وهو الذى حملهم على بذل أموالهم وجميع ما يملكون من رزق فى سبيل إعلاء كلمتهم ، لا يخشون فقراً ، ولا يخافون فاقة .

هذا الاعتقاد هو الذى ارتفع بهم إلى حد أن كان ذكر اسمهم يذيب القلوب ، ويبدد أفلاذ الأكياد ، حتى كانوا ينصرون بالعرب ويقذف به فى قلوب أعدائهم ، فيهنزمون بجيش الرهبة قبل أن يشيعوا بروق سيوفهم ، ولعلان أسيحتهم ، بل قبل أن تصل إلى تخومهم أطراف جحافلهم .

أرأيت إلى الشيخ كيف بدأ كاتباً هادىء الطبع ، ثم تحول إلى خطيب ملكت عليه الثورة كل جوانبه ، وما هو ذا فى نهاية المقال يتحول إلى شاعر يتخيل المسلمين ينتصرون على أعدائهم قبل اللقاء بهم فى ميادين القتال .

وانظر إلى الشيخ يستسلم لمشاعره فلا يدري القارىء بعد ذلك أيقراً شعراً يمتاز بمجدة العاطفة أم يستمع لخطيب عجز عن كبح عواطفه :

بكائى على السالفين ونحيبى على السابقين ، أين أنتم يا عصابة الرحمة وأولياء الشفقة ؟ أين أنتم يا أعلام المروءة ، وشوامخ القوة ؟ أين أنتم يا آل النجدة ، وغوث المضميم يوم الشدة ؟ أين أنتم يا خير أمة أخرجت للناس ، تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ؟ أين أنتم أيها الأجداد الأجداد القوامون بالقسط ، الآخذون بالعدل ، الناطقون بالحكمة المؤسسون لبناء الأمة ؟ ألا تنظرون من خلال قبوركم إلى ما أتاه خلفكم من بعدكم ، وما أصاب أبناءكم ومن ينتحل نحلتمكم ؟ انحرفوا عن سنتكم ، وحادوا عن طريقكم ، فضلوا عن سبيلكم ، وتفرقوا فرقا وأشياعا ، حتى أصبحوا من الضعف على حال تذوب لها القلوب أسفاً ، وتحترق الأكياد حزناً . أصبحوا فريسة للأمم الأجنبية ، لا يستطيعون ذوداً عن حوزتهم ، ولا دفاعاً عن حوزتهم ، ألا يصيح من برازخكم صائح منكم

ينبه الغافل ، ويوقظ النائم ، ويهدي الضال إلى سواء السبيل ؟ إنا لله وإنا إليه راجعون .

إن هنا يشعر القارىء بأن الكاتب قد عبر عن فكرته بما فيه الكفاية ، وختمها ختاماً قوياً كذلك ، ولكن القارىء يجب مع هذا كيف أن الكاتب استأنف كلامه في نفس هذا الموضوع ، كأنما نفسه لم تزل تمتلئة بكلام كثير يريد أن يتخفف منه ، فقال :

« أقول وربما لا أخشى واحداً ينازعنى فيما أقول لأنه من بداية تاريخ الاجتماع البشرى إلى اليوم ما وجد فاتح عظيم ولا عارب شهير نبت في أواسط الطبقات ، ثم رقى بهيمته إلى أعلى الدرجات ، فذلت^(١) له الصعاب ، وخضعت له الرقاب ، وبلغ من بسطة الملك ما يدعو إلى العجب ، ويبعث الفكر لطلب السبب إلا كان معتقداً بالقضاء والقدر . »

ثم مضى الكاتب في عبارته التي سود بها بعد كل ذلك أكثر من ثمانين سطراً .

المرحلة الرابعة

سمح للأستاذ الإمام بعد ذلك أن يسافر إلى بيروت ، وهناك اتصل به العلماء والأدباء ، وقسحت له بعض الصحف صدورها ، واستكثبت جريدة (ثمرات الفنون) ، وكان في أثناء ذلك على اتصال دائم بالصحف المصرية ، وبالأهram بنوع خاص ، فكان يعرف منها أخبار بلاده وحركات أهلها .

واستطعنا أن نقف له على سبع مقالات في جريدة « ثمرات الفنون » دافع في إحداها عن المصريين ضد من اتهمهم بعصيان الخديو ، ورد في أخرى منها على سؤال وجه إليه في كتب المنازى ، ولخص في الثالثة خطبته التي ألقاها بالمدرسة السلطانية ببيروت ، وكتب الرابعة في الرد على « رسالة لصمويل بيكر في السودان ومصر وإنجلترا » ، وذهب في هذه الأخيرة إلى أن المصريين عثمانيون ، وبذلك أَرْضى الدولة العلية في مقاله هذا ، لأنه كان يومئذ نزيل قطر من أقطارها

(١) لها : فذلت .

ودافع عن الجيش المصرى الذى نصح صمويل بيسكر حكومته بالعمل على إلغاءه واستبدال جيش عثمانى به ، وكشف الأستاذ الإمام عن دسائس الإنجليز الذين حاولوا استغلال قوة الدولة العثمانية لمصلحتهم في تذييل السودان لهم ليتفرغوا هم للمسألة الأفغانية . وذلك جرياً على سياستهم المعروفة ، وهى ضرب الأمم بعضها ببعض ، والاستفادة من ذلك .

والمقال الخامس فى موضوع المحاكم الأهلية ، وفيه دفاع عن الوحدة بين المسلمين والأقباط ، وهو دفاع مؤيد بالحجج التاريخية والأحاديث النبوية والدلائل المنطقية .

والسادس فى اللغة الرسمية فى المحاكم الأهلية بمصر ، والسابع عنوانه الانتقاد .

أما أسلوب الإمام فى هذه المقالات السبع ، فأسلوب بسيط هادى ، ولم لا يكون كذلك وقد ابتعد الشيخ عن أستاذه الحاد الطبع ، وخلا إلى نفسه ، فعاد إلى طبيعته الأولى . فلا يحس القارى ارتفاعاً بسيطاً فى درجة الحرارة إلا حين يتصل الكلام بموضوع الدين من قريب أو من بعيد ، كما فى مقاله عن كتب السير والمغازى .

وهاك نموذجاً صغيراً من كتابته فى تلك الآونة ، قال فى تلخيصه لخطبة ألقاها ، موضوعها :

العلم الأهم للأمة

« إن حرصنا معاشر العثمانيين على انتشار المعارف منشؤه أمر فى نفوسنا ، فإننا إذا خالطنا سكان الأقطار الشرقية على اختلاف مواقعها نجد فى كل واحد منهم إحساساً بفقد شيء كان له ، فهو أسف على فوائده ، وفيه ميل لطلبه رغبة الوصول إليه ، غير أن النفوس فى حيرة من هذا المفقود المطلوب كأنها لا تهدى إليه . ويزيدنا أسفاً وشوقاً محالطتنا لأقوام يدعون أننا فى المنزلة المتأخرة عنهم . وسواء أصابوا فى دعواهم أم أخطأوا فإن الجمهور منقاد صدقهم . ولم نزل

الخيرة آخذة بالعقول حتى قامت الدولة العلية بصوت خليفتها الأعظم تنادى على الأمة : إن مطلوبكم المحبوب هو العلم . كان العلم فيكم وكان الحق معه كل مفقود يفقد بفقد العلم ، وكل موجود يوجد بوجود العلم ثم أنشأت المدارس ، وأقامت بناء المكاتب ، وحامت رعاياها من كل طبقة عن الدراسة ، وطالبتهم باقتناء العلوم . فاستجاب لها أقوام منحتمهم الفطرة فوق الإستعداد ، وسيتبعهم غيرهم إن شاء الله .

أما العلم الذى نحس بحاجتنا إليه فيظن قوم أنه علم الصناعة ، وما به إصلاح مادة العمل فى الزراعة والتجارة مثلا ، وهذا ظن باطل ، فإننا لو رجعنا إلى ما يشكوه كل منا نجد أمراً وراء الجهل بالصناعات وما يتبعها . إن الصناعة لو وجدت بأيدينا تجد فينا عجزاً عن حفظها . وإن المنفعة قد تنهياً لنا ثم نفلت منها لشيء فى نفوسنا . فنحن نشكو ضعف المههم ، وتخاذل الأيدي وتفرق الأهواء ، والغفلة عن المصلحة الثابتة ، وعلوم الصناعات لا تقيدنا دفماً لما نشتكه .

فطلوبنا عم وراء هذه العلوم ، ألا وهو العلم الذى يحمس النفس ، وهو علم الحياة البشرية .

إذا نفخت الحياة فى جسم نبيهته بجميع ضروراته ، وهدته لحاجاته واستحفظته ما يصل إليه ، وصرفته فى سبيل الحصول عليه . والعلم المحيى للنفوس هو علم أدب النفس ، وكل أدب لها فهو الدين . فما قدناه هو التبجر فى آداب الدين ، وما تحس من أنفسنا طلبه هو التفقه فى الدين .

ولا أريد أن نطلب علماً محفوظاً ، ولكننا نطلب علماً مرعياً ملحوظاً . وما أودعته الديانة من الآداب النفسية والكمالات الروحية لم يختلف فى صحته أحد من البشر ، حتى من يظن نفسه غير آخذ بالدين .

فإذا استسكملت النفس آدابها عرفت مقامها من الوجود ، وأدركت منزلة الحق فى صلاح العالم ، فانتصبت لنصره ، وأيقنت بحاجتها إلى مشاركتها فى الوطن

والملة ، فأخذت بالفضيلة الجامعة للفضائل ، وهي ما يعبر عنها بحب الوطن
والدولة والملة .

ولا نريد من الحب ميلاً خيالياً ، ولكننا نريد ميلاً يبعث على العمل ، كما
يرشدنا إليه الدين والأدب . ففى تحملت النفوس بهذه الفضيلة أبصرت مواقع
حاجاتها ، فاندفعت إلى طلبها وطرقت لها كل باب ، ولا ترجع حتى تظفر أو يدركها
الأجل . الخ .

وهكذا كان الشيخ فى بيروت يخدم العقيدة الإسلامية ويهتف بالدولة
العثمانية ، ويلهج بالثناء عليها ، ويوضح للناس طريق الإصلاح الصحيح فى رأيه ،
ويكتب فصوله الأدبية فى لغة توشك أن تكون عادية ، ويرسلها مرتبة ترتيباً
منطقياً ، ولا يحتاج إلى الصور البيانية إلا نادراً ، كما يصف من يكرهون النقد ،
ويخشون عواقبه :

« مثلهم كمثل بعض الطيور إذا رأى الصائد غمس رأسه فى الماء ، ظناً منه
أنه متى أغمض عن طلبه أغمض الطالب عنه ، فيكون بذلك قد يسر للصائد صيده ،
وهبل عليه كبده (١) . »

* * *

وعاد الشيخ بعد ذلك إلى مصر ، واشتغل بأمر كثيرة ، لا يعيننا منها فى هذه
المرحلة إلا اشتغاله بالرد على (هانوتو) فإذا ذاك سئحت للشيخ أمن فرصة فى
حياته . وطلق يكتب المقالات الضافية فى الرد على الوزير الفرنسى ، الذى فهم
الشيخ أنه ينتقد الإسلام من حيث إن له طبيعة مخالفة لغيره من الأديان ، وذلك
لأنه دين سامى ، ولأنه يقول بالقضاء والقدر ، فى حين أن الديانات المجسمة
ترقت بالأفراد فى سلم الفضائل ، طمعاً فى نيل مرتبة الألوهية ، بخلاف الإسلام
الذى لا يرضى للناس إلا بمرتبة واحدة ، هى مرتبة العبودية .

فانبرى الأستاذ الإمام للرد على هذه التهم ، وذلك فى ست مقالات ، انفردت

(١) س ٣٧٣ ج ٢ من تاريخ الأستاذ الإمام .

كل واحدة منها بتهمة من تلك التهم السابقة ، وعنييت بدحض الفكرة التي
بليت عليها .

واتهز الإمام هذه الفرصة في رده على (هانوتو) ليوضح للمسلمين ضرورة
فهم دينهم فهماً صحيحاً ، وتنقيته من البدع والخرافة .

وليس شك في أن الإمام بلغ من كل ذلك ما أراد ، وجاء رده مفعماً للمسيو
(هانوتو) لدرجة يظهر أنها أزعجته ، فراح يزعم أن مقاله أسوأ فهمه ، وأسديت
ترجمته ، ووسط صاحب الأهرام في رد اعتباره إليه ، كما يقول رجال القانون وقام
صاحب الأهرام قياماً حسناً بهذه المهمة .

ولا يعنينا هذا الرد من حيث قيمته المعنوية ، وليس عندنا متسع للقول في
هذه الناحية ، ولكن يعنينا أسلوب الشيخ في هذه المقالات ، فقد بلغ أسلوبه فيها
الذروة . . . سهولة قول ، وسلامة عبارة ، وقوة حجة ، واستقامة منطق ، وإبداع
تصوير ، ووصول بالكلام إلى درجة عظيمة من هذه المزايا الثلاث للأسلوب ،
وهي الحق والوضوح والجمال .

فن عباراته الجميلة ، وما أكثرها ، قوله :

« ألم يختر بياله تلك العظام التي اتنفخ بها بطن التاريخ ، وما كانت عليه
أوربا الآرية من الهمجية ، وأن العلم والمدنية لم ينبعا من معينها ، وإنما جاءها
بتخالطة الأمم السامية (١) » .

وقوله :

« إن أول شرارة الهبت نفوس الغربيين فطارت بها المدنية الحاضرة ، كانت
من تلك الشعلة الموقدة التي كان يسطع ضوءها من بلاد الأندلس (٢) » .

وقوله :

إن الناظر في التاريخ تحمر عيناه من مناظر الدماء المتجسده على جليد الأزمان
ذلك مما سفكه أهل ذلك الدين المتحد بالمدنية الآرية ، ليقاوموا دعاة تلك المدنية
السامية (٣) » .

ولم يغل رد الإمام على الوزير (هانوتو) من قسوة ومرارة وإسفاف في اللفظ أحياناً ، وذلك حيث يقول :

« وأنى أقرر لهذا الوزير الحقير بديهية يعرفها صليان المكاتب ، وهى أن دين التوحيد ليس ديناً سامياً ، بل هو دين عبرانى ، فقد عرف به إبراهيم عليه السلام وبنوه ، ومنهم عيسى من جهة أمه ، إلى أن قال :

« وإن صغرت شأن (هانوتو) فى معارفه التاريخية ، فذلك لأنه صغير فيها حقيقة . وكثير من قومه يعرف ذلك منه الخ (١) .

وعنى الإمام أثناء كل ذلك بموسيقية العبارة بل إن هذه العناية جاءت صدق لحواطفه التى جاشت بها نفسه فى ذلك الوقت .
وانظر هنا إلى قوله (٢) :

« ثم لم يكن من أصوله (أى من أصول الإسلام) أن يدع ما لقيصر لقيصر ، بل كان من شأنه أن يحاسب فيصر على ماله ، ويأخذ على يده فى عمله . جاء هذا الدين على الوجه الذى ذكرنا : فهدى ضالا ، وألان قاسياً ، وهذب خشناً ، وعلم جاهلا ، ونبه خاملا ، وأثار إلى العمل كسلا ، وأقدر عليه وكلا ، وأصلح من الخلق فاسداً ، وروح من الفيضلة كاسداً ، ثم جمع متفرقا ، ورأب متصدعا ، وأصلح محتلا ، ومحا ظلما ، وأقام عدلا ، وجدد شرعا . . . فكان الدين بذلك عند أهله كمالا للشخص ، وألفة فى البيت ، ونظاما للملك ، وظهرت به آثار النعمة عليهم فى جميع شئونهم الخ .

ما أظن القارىء بعد ذلك بحاجة إلى أن أسوق له نموذجاً كاملاً من مقالات الإمام فى رده على هانوتو . فهى قريبة إليه فى مصدرها ، ولا تقول فيها أكثر من هذا الحد (٣) .

* * *

(١) ص ٤٢٠ . (٢) (٢) ٤٥٤ .

(٣) ارجع إلى هذه المقالات فى كتابه تاريخ الإمام الجزء الثانى للاستاذ رشيد رضا ،

الرسائل الإخوانية

بقيت صورة أخرى من صور الأسلوب الذي جرى عليه الشيخ ، لانهم الصحافة ولكن تهم الأدب وحده ولم نجد بأساً من أن نختم بها الحديث عن هذا القلم ، لا شئ. إلا ليظهر للقارئ الفرق بين أسلوبه في المقالات الصحفية ، وأسلوبه في الرسائل الأدبية .

هذه الصورة هي أسلوب الشيخ في رسائله الإخوانية . والمطلع على طائفة من هذه الرسائل يجد الإمام فيها كغيره من أفاضل الأدب في زمانه ، يميل ميلاً قويا إلى السجع والاقتياس والاستشهاد بالأشعار إلى درجة يتم فيها - كما اتهم كثيرون غيره من أدباء عصره - بالتكلف والتصنع . ولم تسكد رسالة له تخلو من ذلك عدا هذه الرسالة التي كتبها وهو في سجن القاهرة متمماً بالاشتراك في حوادث الثورة العراقية . وذلك في ٢٠ نوفمبر سنة ١٨٨٢ م ، الموافق ٩ المحرم سنة ١٣٢٠ هـ ، حيث قال (١) .

عزى :

تقلدتني الليالي وهي مدبرة
كأنني صارم في كف منهزم
هذه حالي . اشتد ظلام الفتن حتى تجسم بل تحجر ، فأخذت صخوره من مركز الأرض إلى المحيط الأعلى ، واعترضت ما بين المشرق والمغرب ، وامتدت إلى القطبين فاستحجرت في طبقاتها طباع الناس إذ تغلبت طبيعتها على المواد الحيوانية والإنسانية ، فأصبحت قلوب الثقلين كالأحجار أو أشد قسوة ، فتبارك الله أقدر الخالقين .

انتشرت نجوم الهدى ، وتدهورت الشموش والأقمار ، وتغيبت الثوابت النيرة ، وفر كل مضيء منهزماً من عالم الظلام ، ودارت الأفلاك دورة العكس ، ذاهبة بنيرانها إلى عوالم غير عالمنا هذا . فولى معها آلهة (٢) الخير أجمعين ، وتمخضت السلطة لآلهة الشر ، فقلبوا الطباع ، وبدلوا الخلق . وغيروا خلق الله . وكانوا على ذلك قادرين .

(١) ص ٥٩٢ ج ٢ تاريخ الأستاذ الإمام .

(٢) العجب من هذا الشيخ كيف يصطنع في كتابة لفظ (الآلهة) بصيغة الجمع هكذا على

سريقة الأورويين أو اليونان الأقدمين (المؤلف)

رأبت نفسى اليوم فى مهمة لا يأتى البصر على أطرافه . فى ليلة داجية . غطى قىها وجهه السماء بنهام سوء ، فكائف ركاهم ركاهم ؛ لا أرى لساناً ، ولا أسمع ناطقاً ، ولا أئوم مجيباً .

أسمع ذئاباً تعوى ، وسباعاً تزار ، وكلاباً تبح ، كلها يطلب فريسة واحدة هى ذات السكائب والتف على رجلى تيمان عظيمان ؛ وقد خويت بطون السكل ، وتحكم فيها سلطان الجوع ، ومن كانت هذه حاله فهو لا ريب من الهالكين .

فقطع جبل الأمل ، وانفصمت عروة الرجاء ، وانحلت الثقة بالأولياء ، وضل الاعتقاد بالأصفياء ، وبطل القول بإجابة الدعاء ، وانفطر من صدمة الباطل كيد السماء . وحقت على أهل الأرض لعنة الله والملائكة والأنبياء والناس أجمعين .

سقطت اللحم ، وخربت الذمم ، وغاض ماء الوفاء ، وطمست معالم الحق ، ومزقت الشرائع ، وبدلت القوانين ، ولم يبق إلا هوى يتحكم ، وشهوات تقضى ، وغيظ يحتم ، وخشونة تنفذ ، تلك سنة القدر ، والله لا يهدى كيد الخائنين الخ . وهكذا جاءت هذه الرسالة ضرباً من الهياج العصبى ، الذى ركب الشيخ منذ دخوله السجن ، وهى رسالة طويلة نسكتفى منها بهذا القدر .

وتتلخص ملاحظاتنا عليها فيما يلى :

أولاً : مراعاة السكائب لهذا الترادف الموسيقى للعبارة ، وهو ترادف كان يساير اضطراب السكائب فى مشاعره ، وتأثره بانفعالاته .

والسكائب فى الجزء الذى نقلناه من الرسالة شاعراً أكثر منه كاتباً ، وهو مستسلم لمواطفه ، حريص على التعبير عنها تعبيراً يلائم قوتها فى نفسه ، وقدرتها على إرعاد جسمه وقلبه .

ثانياً : وبما يلاحظ على هذه الرسالة تلك القافية النونية التى التزمها السكائب فى نهاية كل ققرة من فقرات الرسالة ، وهى ظاهرة تذكر بالفن القرائى . ولعلها أثر من آثاره فى نفس الكاتب والعجيب أن الشيخ التزم ذلك فى الرسالة من أولها إلى آخرها ، على طولها وامتداد القول فيها إلى درجة تلفت النظر .

ثالثاً : وبلاحظ على الرسالة أيضاً أن السكاتب عنى فيها بجانب التصوير عناية كبيرة . فقد صور نفسه في هذه المحنة التي مرت به كأنه في صحراء مترامية الأطراف ، في ليلة شديدة الظلام ، ليس فيها إنسان ، ولكن فيها آسداً تزار ، وذئاباً تمعوى ، وكلاباً تنبح ، وبعيانياً يلتف حوله ، وكأها تطلب طعاماً ، وهو وحده في هذا المسكان المظلم الذي تملؤه الوحشة هدف لسكل هذه السباع الجائعة . ومن كانت هذه حاله فهو لا شك من الهالكين .

فإذا أضفنا إلى كل ذلك أنه بدأ رسالته مستشهداً ببيت من الشعر ، عرفنا إلى أى حد كان كلف الشيخ بالصناعة اللفظية ، التي لم تفسد مع ذلك المعنى ، ولأخذت من حرارة العاطفة .

ولو ترك الشيخ وشأنه لكان من كتاب الصنعة ، لأنه لم يكن يتركها إلى الترسل الخالي منها إلا في ظرف واحد ، هو الكتابة في الصحف .

* * *

وللشيخ بعد هذا كله مشاركة قوية في لوائح الإصلاح والتعليم الديني في أشهر أقطار العالم الإسلامي ، وأهمها ثلاث :

الأولى : لإصلاح التعليم في تركيا ، كتبها وهو في منفاه ببيروت ، ووقع عليها مع بعض وجهاء المسلمين ، وأرسلها إلى شيخ الإسلام بالآستانة في ٦ جمادى الثانية سنة ١٣٠٤ هـ .

والثانية : في إصلاح القطر السوري ، قدمها إلى وإلى بيروت بعد تقديم اللائحة السابقة إلى شيخ الإسلام . كتبها بروح الرجل المسلم العقيدة ، العثماني المشرب ، الذي لا يجد - على حد قوله - في فرائض الله بعد الإيمان بشرعه ، والعمل على أصوله ، فرضاً أعظم من احترام مقام الخلافة ، وشحن الهمة لنصرته بالفكر والقول والعمل .

..
فإنما الخلافة حفاظ الإسلام ودعامة الإيمان ، فحافظها محاد لله ورسوله ،
ومن حاد الله ورسوله فأولئك هم الظالمون ، .

والثالثة : فى إصلاح التعلیم فى مصر ، كان قد فرغ من إعدادها ، ولكن يظهر أنه لم يقدمها بالفعل لأولى الأمر . بدأها بمقدمة جلية فى طبيعة مصر والمصريين ، ووصف فيها أخلاقهم ونفسياتهم وتدينهم واستعدادهم للإصلاح ، ثم رسم طريق هذا الإصلاح فى المدارس الحكومية والمدارس الأجنبية ، فى الجامع الأزهر وفى مدرسة دار العلوم .

والاستاذ الإمام فى هذه اللوائح الثلاث يقصر همه على إصلاح التعلیم الدينى فى العالم الإسلامى عامة ، وفى مصر خاصة ، وكان يبنى نفسه بمنصب مدير لدار العلوم بعد عودته من المنفى .

ورضع لنفسه وللمدرسة هذه الخطة الحكيمة ، ولكن ولاية الأمور - كما رأينا - كانوا يخشون عودة الشيخ إلى الاتصال بالشباب المصرى . لحيل بينه وبينهم وفرغ الشيخ منذ يومئذ لإصلاح المحاكم ، وإصلاح الشورى ، وإصلاح الأزهر ، ومات على هذا الأخير .

أما لغته فى هذه اللوائح فهى هى لغته فى مقالاته الصحفية السابقة ، قوة فى العرض ، ودراسة للموضوع لها حظ من العمق ، ومعرفة جيدة بطبائع الأمم ، وعلم دقيق وبصر بأمور التربية والتعلیم ، وفقه عظيم بالسياسة ، ثم سهولة ووضوح فى تأدية المعنى ، وعدول تام فى هذه اللوائح كلها عن الزينة اللفظية أياً كان نوعها .

ولا أظن القارىء بحاجة هنا كذلك إلى أن نعرض له نموذجاً من هذه اللوائح ما دامت كلها لا تنسج للنقد الأدبى إلى أبعد من هذا الحد .

* * *

تلك حياة الأستاذ الإمام ، حافلة بالجهاد فى سبيل الوطن والدين والعمل الدائب لما فيه خير المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها .

وتلك صورة من أسلوبه فى الكتابة والتحرير ، حاولنا أن نجمع خطوطها ، وأن ننعم النظر فى أصباغها وألوانها ، وأن ندرس الإطار الذى عرضت فيه من جميع نواحيه ، ونحن نحشى مع هذا أن نكون قد أسأنا إلى الشيخ من غير قصد ،

أو شوهدنا من جمال أسلوبه في أثناء العرض . فإن رأى القارىء شيئاً من ذلك فما إليه قصدنا ، وما التوفيق إلا من عند الله .

والحق أنه لولا أن رسمت مقالات الشيخ بالطول من ناحية ، وبطابع الدرس من ناحية ثانية ، لقلنا إنه بلغ الغاية من المقال الصحفي من حيث موضوعه ، ومن حيث أسلوبه في وقت معاً .

ومع ذلك سنعود إلى هذه المسألة مرتين : أولاً عند الموازنة بين الإمام وبين الكاتبين الآخرين الذين اشتمل عليهما هذا الكتاب . وهما أديب إسحاق وعبد الله النديم والثانية عند الكلام في الطابع العام للمقال الصحفي لتلاميذ المدرسة الثانية . وذلك في الفصل الذى ينتهى به هذا البحث .

الفصل السادس

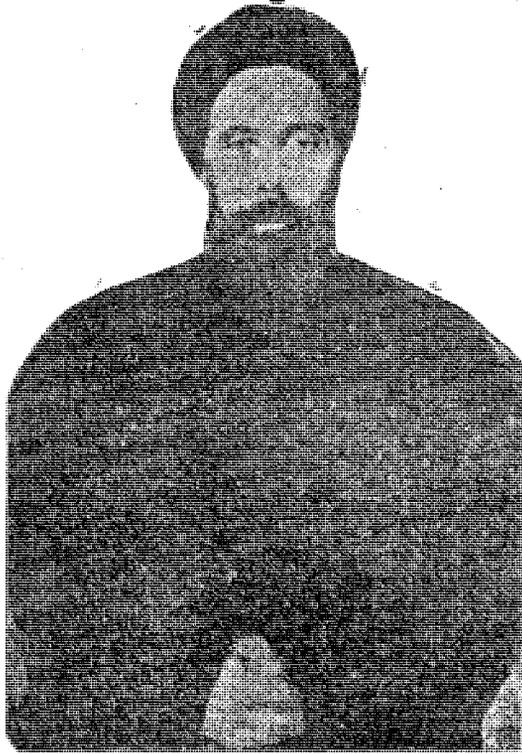
حياة السيد عبد الله النديم

١٨٤٥ - ١٨٩٦

من الناس من يعرف العظمة بأنها نوع من الشذوذ البشرى ، وكثير منهم لا يستطيعون - وإذا خيروا لا يريدون - أن يدفعوا ثمن هذا الشذوذ الذى هو أشبه شيء بتتوء ظاهر فى جسم جبل أملس ، أو طريق واضح معبد .

غير أن للطبيعة نفسها وأما بذلك ، لأن هذا الشذوذ الذى هو نوع من المخالفة للعتاد مصدر من مصادر الجمال على كل حال . وإلا فهل تكون الطبيعة جميلة إذا كانت لا تفتت إلا أشجاراً متساوية فى الغلظ أو الطول ، وهل كانت الحياة البشرية تحتمل لو أنها كانت تتألف من رجال فقط ، أو من نساء فقط ، أو من طوال فقط ، أو من قصار فقط ؟ أظن لا .

هذا رجل نجار أو خباز يعيش على الكفاف ، واسمه (مصباح) ، وقيل إن نسبه ينتهى إلى إدريس الأكبر ، من أسباط الحسن بن على بن أبى طالب . ولد له ابن سماه (عبد الله) . وكان ذلك بالإسكندرية سنة ١٢٦١ هـ - ١٨٤٥ م . فلما كبر أرسله إلى الكتاب ، وهناك أمم الولد حفظ القرآن قبل أن يبلغ التاسعة من العمر ، ثم أخذ هذا الولد يختلف مع الصبية من أمثاله إلى جامع يقال له (جامع إبراهيم باشا) ، حيث درس الفقه والأصول والمنطق ، ثم لم يصبر الصبى على الدرس ففر من الجامع ، ولكن إلى أين ؟ إلى التسكع فى الطرقات ، وحشر نفسه حشراً بين الجماعات ، فإذا وجد جماعة من الناس يتناشدون الرجل أو الشعر ، أو يتبادلون الملح والنوادر ، أو يتاجنون بما أرادوا من ألوان المجون ، اندس الصبى بينهم ، واستمع بكل أذنيه لهم ، وأودع ذلك كله خزانة تعرف كيف تحفظ كل شيء يستقر بها ، وهذه الخزانة هى حافظته القوية ،



عبد الله النديم

١٢٦١ - ١٣١٤ هـ

١٨٤٥ - ١٨٩٦ م

وذاكرته العجيبة ، التي كانت إذ ذاك كل ما يملكه من أسباب التفوق على أقرانه ، ثم أصبحت فيما بعد - أعنى في وقت الشباب والكهولة - كل ما يملكه من أسباب الشهرة الشعبية التي وصف بها .

أليس عجباً أن فنى هذا شأنه ، وتلك أسبابه ، لم يكلف نفسه ذهباً إلى المدرسة أو الجامعة ، ولا أخذ نفسه في أول الأمر بشيء من جد الحياة في وقت الطلب ، يصبح في زمن ليس بالطويل إماماً من أئمة الأدب في عصره ورائداً من رواد النهضة في أمته ؟ .

الحق أن القارىء - حياة هذا الرجل ليؤمن إيماناً لا ريب فيه بأن ملاسة الحياة نفسها . ومخالطة الناس على اختلاف طبقاتهم ، ربما كانت أقوى تأثيراً في النفس ، وتكويناً للخلق ، من الجامعة أو المدرسة .

ولا غرابة في ذلك فالحياة الواقعة نفسها كانت أهم مصدر للثقافة رجل كبير من رجالات الأدب العربي (هو الجاحظ) ، وجاءت كل تصانيفه أكبر شاهد على ما تقول .

تخيل معي هذا الفتى الصغير وهو يجول في أنحاء الإسكندرية ، أو في أرجاء طنطا أو المنصورة أو القاهرة ، يستمع إلى السوق وهم يتحدثون ، أو إلى الخاصة وهم يتحاورون ، ويفشى الموالد العامة حيناً ، ويرج بنفسه هناك في غمار هذه الطائفة التي عرفت باسم (الأدبائية) ، ليلتقط ما يقولون ، ويقدم فيما يفعلون ، لا تفوته حركة من حركاتهم ، ولا من حركات الناس جميعاً في ذهابهم وإيابهم ، ولا تضيع منه همسة من همساتهم ، وكان ذهنه آلة تصوير تهبأت لالتقاط كل هذه الأشياء المتعددة . والنفس الحساسة تحتزن حتى حفيف أوراق الشجر ، وهففة الأغصان ، وديبب النمل ، وحلاوة البسمات ، وأدق مجالى الجمال والقمح ، ثم تعرف كيف تستخدم ذلك في فنها متى آن أوانه ، (١) .

ولندع هذه المقدمات ، ولنذكر طرفاً من حياة هذا الرجل على سبيل

(١) اقرأ زعماء الإصلاح لأحمد أمين ص ٢٠٦ .

الإيجاز ، وفي اعتقاد الكثيرين أن حياته تصلح أن تكون رواية تمثيلية من الطراز الأول .

فند ترك عبد الله النديم جامع إبراهيم باشا اتجه إلى تعلم فن الإشارات البرقية ، وإذا تم له ذلك التحق بمكتب تلغراف بمدينة بنها . ثم اهتم له الحظ ، فشغل مثل هذا العمل بمكتب (القصر العالي) ، وقد أتاح له هذا العمل الجديد نوعا من الترف والفراخ . فكان يفضي بنفسه في أوقات الراحة بجالس الأدب بالقاهرة ، وخاصة مجلس محمود سامي البارودي ، حيث التقى بالصفوة الممتازة ، من أمثال علي أبي النصر ، وعبد الله فكري ، ومحمود صفوت الساعاتي ، والشيخ أحمد الزرقاني ، ومحمد سعيد ، وجعفر مظهر ، وعبد العزيز حافظ .

وقد أثنى النديم عليهم جميعاً في مقال له نشر (بالسلافة) .

وفي القاهرة أيضاً كان النديم يختلف أحياناً إلى الجامع الأزهر حيث تعرف هناك بصديقه العالم الكبير الشيخ حمزة فتح الله . وبقي النديم في (القصر العالي) حتى غضب عليه (خليل أغا) فطرد نهائياً من القصر ، وسدت أمامه أبواب الرزق ، وانتهى به الأمر إلى أن اشتغل مدرساً لأولاد أحد العمدة بمديرية الدقهلية ثم تخصص هو والعمدة ، واضطر النديم إلى تركه ، ولكن بعد أن هجاء أقذع هجاء ، في قصيدة له شحذت لسانه شحذاً جيداً ، وراضت فنه الشعرى رياضة جيدة .

ثم انفصل أمر النديم بأحد أعيان المنصورة ففتح له دكانا يبيع فيه العصائب والمناديل ، فاتخذ النديم من دكانه هذا متجرّاً ومجتمعاً في الوقت نفسه لرجال الأدب ، وذلك على عادة المثقفين من تجار الريف المصري إلى يومنا هذا . فعلى هذا النحو كان حسن عبد الباسط الهجاء المشهور صاحب دكان عطارة . وعلى هذا النحو كان الشيخ أحمد وهي الشاعر الأديب صاحب دكان طرايشي ، وهكذا .

ثم أقلس النديم وأغلق دكانه ، وأخذ يرحل من بلد إلى بلد ، حتى وصل إلى طنطا ، وفيها بيت رجل من وجوه القوم ، واسمه (شاهين باشا كنج) كان

له كلف بالأدب ، فاتصل به النديم . واسمع إليه بقص عليك قصته مع شاهين باشا ، فيقول :

د كنت بمولد السيد البدوي ، ومعى السيد على أبو النصر والسيد حلاوة ،
وجلسنا على قهوة الصباح تنفرج على أديب وقف يناظر آخر ، فلما فطن أحدهما
لانتقادنا عليهما ، استنافت أخاه إلينا ، وخصانا بالكلام .

فأخذنا يمدحنا واحداً فواحداً ، إلى أن جاء دورهما إلى ، فقال أحدهما
بخطبتي :

أنعم بقرشك يا جندي ولا كسنا آمال يا أفندي
إلا أنا وحياتك عندي بقی لی شهرین طول جمان
فقلت على سبيل المزاح :

د أما الفلوس أنا مدبشي وأنت تقولى ما امشيشي
يطلع على تحشيشي أقوم أملك الأودان

قد بلغ شاهين باشا ذلك ، وأنى غلبت الأدبانية ، طلب شيخهم ، ووعده
إن غلبوني بمطيم ألف قرش ، وإن غلبتهم يضرب كل واحد منهم عشرين سوطاً ،
واجتمع لذلك حشد من الناس كبير ، (١) . ثم أخذوا يقولون والنديم يرد عليهم
واحداً بعد واحد ، واستمرت هذه المساجلة طويلاً حتى أغمهم .

ومنذ يومئذ أصبح النديم أثيراً عند الباشا ، بل أصبح الباشا لا يجد له غنى
عن مجالسته . وحضر النديم اجتماعاً حافلاً في منزل الباشا ، وتعامل عليه كل القوم ،
حتى اقترح بعضهم عليه إنشاء قصيدة يعارض بها دالية المتنبي المشهورة التي مطلعها:
أقل فعالي بله أكثره مجد (١)

وكانوا يقصدون بذلك تمجيزه ، فغضب النديم ، وأمسك القلم ، وأنشأ
قصيدة أولها

سيوف الثنا تصدا ومقولى العمد ومن سار في نصرى تكفله الحمد

(١) انظر تراجم أعيان القرن الثالث وأوائل القرن الرابع عشر لأحمد تيمور باشا ، وانظر
مجموع مجلة الأستاذ ص ٩٨٦ بتاريخ ٦ يونيو سنة ١٨٩٣ ،

ومنها .

ومن عجب الأيام شهيم آخر حجا يمارضه غمر ويفحمه وغمد
ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدما لتحفظ أعراض تكفلها المجد (١)

وفي هذه الأشعار القليلة من الفحولة والمجزالة ما يبني بموهبة هذا الرجل ،
ويبشر بمستقبل له عظيم في عالم الأدب .

وإلى الآن كان النديم غارقاً في لهُو الحياة ، منغمساً في هذا العبث اللفظي ،
الذي كسب به بعض الأصدقاء ، وتقرب بسببه إلى بعض الكبراء . ولعله كان
يحسب أن الحياة نفسها لم تكن تعدو ذلك الوضع ، ولا تكاد تعرف غير هذا
اللون . غير أنه سرعان ما عاد إلى الإسكندرية - مسقط رأسه - وهناك ولد
هذا الفتى ميلاداً جديداً ، وأعيد خلقه على غرار جديد . فقد رأى الناس في هذه
المدينة لا يشتغلون بما كانوا يشتغلون به أمس من الأسفار المسلية ، والفكاهات
المضحكة ، والأحاديث الفارغة ، يقضون بها أوقات فراغهم ، وما أطول الأوقات ،
ويصالون بها سواد ليلهم ببياض نهارهم ، وما أكثر ما توالى عليهم الأيام . بل
هاله أن رأى مدينة الإسكندرية وعليها طابع المجد . فهسى يومئذ تتحدث في
أمر كثيرة ، كهندوق الدين وتدخل الدول الأجنبية والشورى ، والظلم
والاستعباد ، والاستقلال والحرية ، والجهل والعوز ونحو ذلك . وكلها أمور
طبعت على حياة الناس يوم ذاك عبوساً وتقطيباً حل فيها محل البشر والإيناس .

فماذا يفعل النديم ؟ أيمضى في عبثه القديم ؟ أم يدخل فيما دخل فيه الناس
من هذا الجديد ؟ إن طبيعة النديم تدعوه دائماً أن يكون قطعة من الوسط الذي
يحل فيه ، أو البيئة التي يعيش فيها . فما أسرع ما ترك اللهُو والعبث ، وبدأ
حياة المجد والكفاح ، وكسب لنفسه هذه الشهرة التي نتحدث عنها ، والعظمة
التي سلت له ، فكان أول ما صنعه النديم وهو بالإسكندرية أن اشترك
مع أديب إسحاق وسليم النقاش في صحيفتي (المحروسية) و (العصر

الجديد) (١) اللتين صرح بهما لسليم النقاش عقب إلغاء جريدتي (مصر) و(التجارة).

ولم يكتف النديم بذلك حتى التحق بجمعية سرية ، هي جمعية مصر الفتاة ، كانت تهدف إلى نشر التعليم ، وكانت تخوض في سياسة إسماعيل ، وما زال بهذه الجمعية حتى أخرجها من السر إلى العلن ، وجمع له بنفسه من أعيان الثغر مالا نعشها به من جديد ، وأطلق عليها اسم (الجمعية الخيرية الإسلامية ، وهي غير الجمعية المعروفة الآن بمصر بهذا الاسم . وأعلن النديم وزملاؤه يومئذ أغراض هذه الجمعية ، ومنها إنشاء مدرسة لتعليم الفقراء مجاناً ، ومنها بث الروح القومي في البلاد .

وسرعان ما تم إنشاء هذه المدرسة ، وعين النديم مديراً لها . وكان ذلك في أواخر عهد إسماعيل ، وشارك النديم مشاركة قوية في وضع مناهجها ، بل قام هو بتدريس مبادئ الأدب والإنشاء فيها ، ولم يأل جهداً في تمرين التلاميذ على الخطابة ، التي كانت سمة من سماته وخلقة فيه .

ثم حين عزل إسماعيل ، وتولى مكانه توفيق توسل إليه النديم أن يحضر امتحان المدرسة ، فحضر بنفسه وسر من إجابات التلاميذ ، ثم سأله النديم أن يعهد إلى ولي عهده (الأمير عباس) برياسة المدرسة ، ففتح الخديو المدرسة هذا الشرف ، وأتى لزيارة المدرسة ومعه ولي العهد في يوم حافل أعد له النديم ثمانين وعشرين خطبة ا ا ثم أكثر النديم في إقامة الحفلات . وكان التلاميذ يقومون فيها بتمثيل روايات ناجحة كان يؤلفها لهم النديم ، ويشترك معهم في تمثيلها بنفسه ؛ ومن هذه الروايات رواية بعنوان «الوطن» و «طالب توفيق» ، وأخرى بعنوان «العرب» .

(١) كانت صحف سليم النقاش وغيره من السويين في مصر تأخذ جانب الحكام . وقلمًا كانت تأخذ جانب الشعب المصري ، ولذلك أصبحت المحروسة يوماً ما لسان حال شريف باشا رئيس النظار ، ثم أصبحت لسان حال عمر لطفي باشا محافظ الإسكندرية وذلك في الأسابيع التي سبقت الاضطرابات التي حدثت في مدينة الإسكندرية وكانت تهزيراً بالثورة الرامية وضرب الإنجليز مدينة الإسكندرية .

وبقى النديم على هذا العمل يشتغل فيه بعقله وقلبه وأعصابه ودمه ، حتى كاد له إخواته بالجمعية الخيرية ، ولفقوا له تمهاً فصل بسببها من الجمعية ومن المدرسة في وقت معاً .

إذ ذلك فكر النديم في أن يجعل الصحافة حرفة له يكسب منها عيشه ، ويدب فيها فكره ، وينفذ بها إلى قلب الشعب الذي تأدب بأدبه ومهر في دراسة نفسيته بطريقة عمليسة بحتة ، هي طريقة الاندماج في هذا الشعب بكل جوارحه كما رأينا .

وكانت أولى صحف النديم التي ظهرت باسمه صحيفة يقال لها (التنكيك والتنكيك) سلتحدث عنها عندما نفيض في أسلوبه وبيان الخصائص التي يشتهر بها هذا الأسلوب .

ثم ظهرت بوادو الثورة العرابية ، وكانت شدة النديم قد سرت في الشعب المصرى على اختلاف طبقاته وزادها سرياناً ما طبع عليه النديم من ميل - كما قلنا - للخطابة ، واستعداد لها إلى درجة ربما لم تتيسر لشخص غيره في مصر ، منذ القرن الماضى إلى اليوم .

فقد كان النديم يظهر في كل مجتمع ، ويقف في كل حفل ، ويخطب في كل ناد ، ويرتجل الكلام ارتجالاً ، ويتدفق فيه تدفقاً ، تسفنه فيه بديهية لم نسع بمثلاً في تاريخ الأدب المصرى الحديث ؟

وإذ ذلك فكر رجال الثورة منذ بداية الأمر في أن يكسبوا لأنفسهم وجلا ذرب اللسان ، سريع الخاطر كهبد الله النديم ؛ وما أسرع ما انضم هذا الرجل إليهم ، ووجد في ثورتهم مجالاً لإشباع نهمه في الخطابة من جهة ، وشغفه بالصحافة من جهة ثانية .

والحق أن العرابيين رجحوا كثيراً بانضمام النديم إلى صفوفهم ، ولقبوه فيما بعد بخطيب الثورة . ثم منذ إعلان الدستور في فبراير سنة ١٨٨٢ أى في أوائل عهد توفيق ، انتهز النديم وأمثاله من قادة الشعب هذه الفرصة ليفهموا الناس طائفة من المعاني الجديدة عليهم كل الجدة ، وهي معاني الدستور ، وما قيمته

وكيف تحصل الشعوب عليه (١)؟ وكثيراً ما كانت تقام الحفلات العامة لهذه الأغراض ، وكثيراً ما كان النديم يقوم فيها مقام الخطيب الأول ، حتى إذا خطب الحاضرين كأديب إسحق أو قنحي زغلول أو إبراهيم اللقاني أو مصطفى ماهر أو غيرهم في معنى ما ، قام النديم بعد كل واحد من هؤلاء يعقب على حديثه ، ويشرح هذا الحديث ، ويستمع الناس إلى هذا التعقيب دون أن يشعر أحدهم بشيء من السأم أو الملل . وكان العامة في مصر بحاجة إلى من يشرح لهم هذه المعاني الجديدة عليهم كل الجديدة ، إذ قبض الله للخاصة أمثال السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده ليفهمهم تلك المعاني . واشتعلت نار الثورة بالفعل ، وزادت طيبياً ، فكان كلام النديم وقودها الذي زادت به ضراماً ، وزيتها الذي أصبحت به نوراً وهاجاً ؛ وحيثما كان يجتمع من الناس في مولد أو فرح ، ثم وجه النديم ، وثم صوته يجلجل في الحاضرين ويتندر الناس بذلك ، حتى كان إذا سئل محمد عثمان المعنى أين تعنى الليلة؟ قال : في الفرحة الفلاني مع عبد الله النديم ، والنديم في كل موقف لا يتورع من التهويل على العامة والتهريج أمامهم ، فيقول مثلاً في بعض خطبه : إن طوابي الإسكندرية إذا أطلقت مدافعها بلغ مرماها جزيرة قبرص من هذا الجانب ، ومدافع الآستانة إذا أطلقت بلغت هذه الجزيرة من الجانب الآخر . فكيفما جالت الأساطيل الإنجليزية فهى تحت رحمة مدافعنا . فيصفق الناس لهذا التهريج ، ويسكرون بهذا الحديث ، والحق أن هذا التهريج الذي اشتغل به النديم كان سلاحاً ذا حدين ، فهو من ناحية يقوى الروح المعنوي في الشعب وفي الجند ، وهو من ناحية أخرى يملأ قواد الجيش المصري غروراً ، ويزيدهم تكاسلاً وقعوداً عن التهيؤ له . وهذا ما قد حدث بالفعل ، فقد جازف

(١) ومن المعاني الجديدة التي خطب فيها النديم فكرة الجمهورية التي احتفظ بها الوطنيون حتى يصبح الوقت مناسباً لإعلانها ، وقد كان هذا أسس عقيدتهم منذ البداية . ولكنهم بصروا في العواقب ، ورأوا أن يسبوا سيراً وثيداً في هذا الموضوع . راجع التاريخ السري لاحتلال الإنجليز مصر مؤلفه المستر بلانت ص ٢٥٧ .

عرايى بميشه فى الموقعة ، ولم يكلف نفسه قط درس الظروف المحيطة بها ، ولا كانت هناك سياسة رشيدة ، ولا صحافة مستنيرة ، ولا مستشارون أمناء صادقون ، يساعدونه على درسها ووضع الخطط المحكمة على أساس هذا الدرس (١)

ولما اتقل النديم بخطابته إلى الميدان يمرض الجنود على القتال ، فقد اتقل إليه بصحيفته بنفس هذه الغاية ، وذلك يوم استبدل باسم جريدته الأولى (التسكيك والتبكيك) اسماً جديداً آخر ، هو (الطائف) ، وهو اسم اقترحه عليه عرايى متيناً بطائف الحجاز ، وتفاؤلاً بأنها ستطوف بالأرض كلها ، وتطبق شهرتها العالم كله .

واتتهت الثورة بالهزيمة المعروفة ، ووقعت البلاد بأسرها فى محنة عظيمة ، وقبض على الزعماء ، واختفى النديم يؤمئذ عن الأنظار . وعبثاً حاولت الحكومة العثور عليه والترصد له ولكن أنى لها ذلك وهو عفريت من الجن ، ثم بدا له بعد ذلك أن يكتب صفحة من حياته تصلح حقيقته أن تكون رواية (بوليسية) من أروع ما كتب الناس فى هذا الفن .

وقد صار النديم يتسكّر بشتى الطرق ، وتسمى فعلاً بتسعة أسماء قنارة يتسمى بالشيخ يوسف المدنى ، ونارة الشيخ محمد الفيومى وثالثة بالحاج على المغربى ، ورابعة بفلان البنى ، وعامسة بفلان الأنجدى . وهكذا .

وكان يلبس لسكل حالة لبوسها حتى ليخيل إليك أن تقرأ عن شخصية من شخصيات المقامات فى الأدب العربى . وأمن النديم فى التسكّر حتى أشاع عن نفسه أنه سافر إلى خارج القطر ، ونشرت هذا الخبر جريدة فرنسية تقرأ فى مصر فصدق ولاية الأمور ذلك ، مع أن الحقيقة أن النديم كان يؤمئذ فى قرية نائية ،

(١) يضاف إلى ذلك أسباب أخرى كبيرة من أهمها الحياة التى لقيها عرايى من البدو ومن ضباط الجيش المصرى من أغرام تولى على الحياة بالمال ومنام بالوعود ، وكان المراسكة فى الجيش منصرفاً هاماً فى المزرعة . . . راجع المصدر المتقدم فى الفصل الذى عنوانه « موقعة التل الكبير » .

ليس معه إلا زوجته التي ضربته على فمه حتى سقطت ثناياه ، وغادمه الذي بدأ عليه الفزع والهلع ، حتى هدد سيده بأنه سيفضح أمره ، ويدل عليه الطالين ، فاحتال النديم على غادمه يوماً بأن أخذ يقرأ المجريدة الرسمية ، ثم تصنع الفزع ، وضرب كفاً على كف ، وقال على مسمع من غادمه : « لاحول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » ، فسأله الخادم عن ذلك ، فقال النديم :

« إن الحكومة قد جعلت لمن يرشد عنى ألف جنيه ولن يأتيها برأسك خمسة آلاف ، يخاف الخادم ، وأخذ يبائع في التنكر . وكافأه النديم على ذلك بأن علمه القراءة والكتابة ، وحفظه جمل من سور القرآن . وأقرأه مبادئ الفقه والتوحيد ، ثم زوجته واتخذها صاحباً ، وبدأ للنديم في هذه العزلة أو الخبأ أن يكتب ويقرأ ، وهل كان في استطاعته أن يفعل غير ذلك ؟ وبعت إلى صديق له إذ ذاك برسالة يقول فيها : « إن سألت عنى فأنا بخير وعافية ، وحالة راقية صافية . . لا أشغل فكري بما يأتي به الليل إذا كنت بالنهار ، ولا أتعب ذهني بتوالي الخطوب والأكدار ، ولا أتألم من طول المدة ، ووقع الشدة . لا اعتقادي أن لكل شدة حدة . متى انتهت جفت الأوجال ، وحسنت الحال ، فتراني فكري كليسى ، وقلبي نديسى . تارة أشتغل بكتابة فصول ، في علم الأصول ، وأجمع عقائد أهل السنة ، بما تعظم به لله المنة ، وحيناً أشتغل بنظم فرائد ، في صورة قصائد ووقتاً أكتب رسائل مؤتلفة ، في فنون مختلفة ، وآوتة أكتب في التصوف والسلوك ، وسير الأخبار والملوك ، وأصنف الكثير في العادات والأخلاق وجغرافية الآفاق ، ومرة أطوف الأكوان . على سفينة تاريخ الزمان ، ويوماً أشتغل بشرح أنواع البديع ، في مدح الشفيع . وقد تم لي الآن عشرون مؤلفاً بين صغير وكبير ، فانظر إلى آثار رحمة الله اللطيف الخبير ، كيف جعل أيام المحنة وسيلة للنسحة والمنة ، أتراني كنت أكتب هذه العلوم ، وفي ذلك الوقت المعلوم وقد كنت أشغل من مرضعة اثنين في حجرها نالك وعلى كتفها رابع ، وأتعب من مربي عشرة وليس له تابع . أشتغل بعض النهار بتحرير الجورنال ، وأقضى

ليل في دراسة الأحوال - مشتغلاً بمجالس الجمعية الخيرية ، ومدارسها التعليمية ،
وزيارة الإخوان ، ومراقبة أبناء الزمان . وقد نسيت الأهل والعيلة ، وربما
نسيت الطعام يوماً وليلة ، فكنت كآلة يحركها البخار ، لا سكون لها ما دام الماء
والنار ، فتي كنت أظن للخلفات ، وأكتب هذه المؤلفات ؟

ولو أن نار مصيبتى في الغير أصلاه الزفير
لكنها في ساحة من فوقها جو مطير
هو صدق إيماني وصبري للقضاء بلا تكبير
ووقوف جيش عريقتي في باب مولانا البصير

والعجيب أن النديم كان يعيش هو وأسرته وأسرته خادمه على ما يوجد به
الموسرون من أهل البر ، ممن كانوا يعرفونه بشخصه . ومع هذا يساعدونه على
إخفاء أمره .

حدث أن كان النديم محتفياً مرة ببلدة يقال لها (العتوة) من بلاد الغربية ،
ومضى على إقامته بها أكثر من سنة . حتى قضى رب البيت نجبه . فجاءت زوجته
بأكبر أولادها وهو شاب لم يجاوز الخامسة عشرة من عمره . فقالت هذا عبد الله
النديم ، الذي جعلت الحكومة لمن هداها إليه ألف جنيه ، أفريد أن تؤويه
وتكرم مثواه كما فعل أبوك ، أم ترغب في حطام الدنيا ، فأكون بريئة منك إلى
يوم الدين ؟ فقال حاش لله أن أخفر ذمامي ، فسترين أني أحافظ عليه محافظتي
على عرضي ، ولن يصل إليه بسوء ما دمت حياً . فقالت له والدته الكريمة :
بارك الله فيك من شهم حازم فكنت في جوارهم نحواً من أربع سنين ضيفاً كريماً
ثم وشي به بعض أقرباء الرجل لضغائن بينهما ، فضى هو ليلا وصار يضرب في
بلاد مديرية الغربية ، وكلما أتى عصا التسيار في مكان أكرمه أهله ، وأنزله
علي الرحب والسعة ، وشدوا أزره بتزويجه منهم (١) .

وأكثر من ذلك وأشد إمعاناً في الكرم ، أن النديم صادقه في طريقه إلى
هذه البلدة . وهي العتوة ، أحد مأمورى المراكز ؛ وكان جركسياً ، ومعها قوة

(١) - سلافة النديم - المقدمة بقلم أحمد سمير ص ١٤

صغيرة من الجند ، فأمرها أن تسبقه قليلا ، ثم لوى عنان فرسه إلى النديم فقال لا ضرورة للتسكر فقد عرقتك وأنت النديم . فلم يكن له بد من الاعتراف بجملية أمره . فقال له الأمور : لا بأس عليك ، اذهب في دعة الله وحفظه ولا تخف ؛ واعلم أني وإن كنت جركسي الأصل فإنني عربي الكرم ، ولهذا وهبتك حياتك ، وتنازلت عن الجمل الذي جعلته الحكومة لمن دل عليك ، مع احتياجي للقليل ، كما تنازات عن كل ما عسى أن أناله بواسطة القبض عليك من الرتب والمناصب ، لتعلم أن في بقية للسكرام . ولكن إياك وهذا الطريق المسلوك ، فربما صادفك من يقبض عليك فيه . فخرج عنه إلى جهة اليمن ثم مد يده إلى جيبه ، وأخرج ثلاثة جنيهات ودفعتها إليه ، وقال . والله هذا هو كل ما أملك الساعة ، أخذه وأستعين به على أمرك .

وأخيراً قبض على النديم في نوفمبر سنة ١٨٩١ وجرى به إلى طنطا ، وحبس أياماً بها حتى عفا عنه الخديو توفيق على الأيكة بالأراضي المصرية . فاختار النديم (باقا) فسافر إليها ، وكان في استقباله العلماء والأدباء والأعيان ، وبق في ضيافتهم أياماً ، ثم اتخذ لنفسه داراً أقام بها سبعة أشهر . وكانت هذه الدار منتدئ للصفوة المهذبة في تلك المدينة . وانتهز النديم فرصة وجوده بفلسطين فأخذ يطوف بأنحاءها ، ويرى وزاراتها . ويملا ناظره بحال الطبيعة بها .

ثم حدث أن ولي أمر الديار المصرية أمير في ريعان الشباب ، هو الخديو عباس الثاني ، وكان رجلاً حراً في آرائه ، وكان الشعب المصري الذي نضج فيه الوعي القومي بعض الشيء يبادل الأمير حباً بحب وكان من مآثر هذا الأمير أن عفا عن النديم ، وأذن له بالرجوع إلى القاهرة ، وذلك في عام ١٨٩٢ م . .

وفكر النديم أول ما فكر بعد رجوعه إلى أرض الوطن في إنشاء جريدة له جديدة باسم (الأستاذ) وعاد أمر النديم إلى الظهور ، وبلغت شهرته مسامع الباب العالي ، فخاف السلطان عبد الحميد شر هذا الداهية الأريب ، وقدكر في أن يسكته بالطريقة التي أسكت بها السيد جمال الدين الأفغاني ، وهي أن يسكته قسراً من قصوره بالأستاذة ويجعل فيه الخدم والحشم ، ويعين منهم الأرصاء

والرقيباء ، ودعى النديم إلى السفر إلى الأستانة وهناك عينه السلطان مفتشاً
للمطبوعات ، براتب شهرى قدره خمسة وأربعون جنياً ، يضاف إليها خمسة
وعشرون جنياً من الحكومة المصرية .

وفي الأستانة سعد النديم بصحبة السيد جمال الدين الأفغانى ، ولكنه اصطدم
فيها بشخصية عجيبة هي شخصية (أبى الهدى الصيادى) وهو رجل سورى من
حلب ملأ قلب السلطان عبد الحميد . إذ كان يفسر له أحلامه ويكلمه كلاماً
على هواه ، وما زال أمره بالأستانة فى ازدياد حتى سُمى (مستشار الملك) ،
(وحامى العثمانيين) ، و (سيد العرب) ومع ذلك لم يخش النديم التعرض لهذا
الرجل ، ولا تهميب منازلاته وهو فى جبروته وعظم صيته ، فكاتب كتاباً فى هجائه
سماه (المسامير) وما زال به فى الكتاب ينشره ويطويه ، ويأتى بكل جديد فيه ،
حتى آلمه وأوجمه ، وأصاب منه مقتلاً .

ثم لم تطل حياة النديم بالأستانة ، فقد أصيب فيها بالسكر ، ومات فى الرابعة
والخمسين من عمره ، وكما يقول أحمد سمير (متمثلاً) .

خرجوا به ولكل باك حوله صعقات موسى يوم ذك الطور
هذا وقد وصفه المرحوم أحمد باشا تيمور فقال .

« كان شهبى الحديث ، حلو الفكاهة ، إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز ،
لقيته مرة فى آخر إقاماته بمصر ، قرأت رجلاً فى ذكاء إياس ، وفصاحة سحبان ،
وقبح الجاحظ ، أما شعره فأقل من نثره ، ونثره أقل من لسانه ، ولسانه الفأية
التصوى فى عصرنا هذا (١) » .

فى سبيل الصحافة والوطن ما تحمل النديم من أذى ، وما قاسى من أهوال ،
وما ذاق من تشريد واعتراب دونه كل عذاب فى هذه الدنيا .

هكذا كان النديم أديباً جريئاً ذائع الصيت ، وكانت له من المواهب ما ليس
لغيره من رجال مصر كما رأينا . قوة فى الخطابة وقوة فى الكتابة وجرأة على
الحكام ، وقوة فى البرهان . وقوة فى البديهة .

(١) أميان القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ،

ولكننا إذا أردنا أن نحاسبه على أنه زعيم أو عظيم قلنا إنه كان رجلاً لا يسيطر على الحوادث المحيطة به ، ولا يدرس الظروف التي حوله ، ولا يفكر كثيراً في المستقبل . والعظيم لا تسل له عظيّمته بالمعنى الصحيح إلا إذا كان ذا حظ من هذه الصفات .

ثم كان للنديم فضل آخر لا سبيل إلى إنكاره ، هو الجهد الذي بذله في الإصلاح الاجتماعي ، فقد نبه الناس بقوة في صحفه - كما سنرى ذلك - إلى العيوب المتفشية في المجتمع ، وكان لا يترك طريقة إلا سلكها في سبيل هذه الغاية . وأما الإصلاح السياسي فلم تكن له فيه خطة واضحة كل الوضوح ، يدلنا على ذلك أنه لم يتخذ لنفسه منذ أول الأمر رأياً في الثورة العراقية ، فقد وجدنا الثوار يأخذونه قسراً ويضمونه إلى صفوفهم قهراً ، وهو لا يستطيع لهم رداً ، بل كان يكتفي بأن يتأفف سراً من وقوعه في هذه الورطة ، فإذا خلا بأحد من أخصائه أظهر له حقيقة ما يضره . وفي ذلك يقول أحد سمير وهو يترجم له في كتاب (سلافة النديم) :

سمعت مرة في غرة نومته حيث لائثك بيننا يقول ما معناه : إن البلاد قد ضاعت بتهور رؤساء الجند الذين خدعونا في مبدأ الحادثة ، وأوهونا أن لا خوف من العاقبة ولا فزع ، فإنما هي أقوال تقرب بأقوال ، وقد اعتاد الأجانب أن يبلغوا منا ما أرادوا بالتهديد والإيهام ، فنحن إنما نقابلهم بالمثل ، وإلا فهم أعقل بكثير من أن يقصدوا محاربتنا فعلاً . ولكن وجدنا الآن يحدثني بفساد هذه المزارع ، فقد تقادم الخطب ، واشتدت النازلة ، وظنى أن الحرب واقعة ولا بد . فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، إنه ليس لنا اليوم إلا أن نبقى مسيرين لا مخيرين ، فقد ملئت الكأس ولا بد من شربها ، ولم يمض أكثر من أسبوعين على هذه الحادثة حتى زلزلت الأرض زلزالها ، وهاجت القاهرة وماجت ، وحمل البرق إلينا من الإسكندرية أخبار ضرب الإنجليز لها في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ وانتشار الحرب بينهم وبين عرابي .

ليس معنى ذلك أن النديم كان مندبداً في مذهبه السياسي ، أو أنه يعد هذا الحزب السياسي بما يعد به الحزب الآخر ، لا . فقد كان النديم من هذه الناحية (م ٩ - أدب المقالة ج ٢)

بطلا في جميع المحن التي مرت على مصر في حياته ، وقد صمد وحده في الميدان في الوقت الذي فر فيه من هذا الميدان كثير ، ولكن التاريخ يؤاخذ الناس كلا على قدر منزلته وموهبته وقد خص الله النديم بطائفة من هذه المواهب كان يستطيع بها أن يقيم من أود الثورة ، وأن يطفئ من حدة الثوار ، وأن يقود السفينة إلى بر الأمان . ولكنه لم يرد ولو أراد لتولى لسانه مهمة الإقناع .

أجل : لست أنكر على كثيرين من زعماء المصريين في ذلك الحين أن الثورة جرفتهم ، وسلبتهم إرادتهم . ولكننا نأخذ على الزعماء هـذا الموقف ، لأنهم الراشدون في هذه الأمة ، وعليهم يقع عبء توجيهها ورد الطائش منها إلى شيء من الحكمة والروية والتدبر ، وعبد الله النديم واحد من أولئك الزعماء ، بل هو أخطرهم وأقربهم إلى نفوس الشعب إذ ذاك .

وفي رأبي أن أعظم ما في النديم إنما هو شعبيته وقوة حيويته وميله الشديد إلى الاجتماع بالناس ، فهو رجل خالط الشعب في جميع الطبقات ، فرة يكون مع السفلة وأخرى يكون مع العلية ، وثالثة يكون مع التجار ، ورابعة يكون مع الأدباء والعلماء ، وخامسة مع الوزراء والأمراء ، وهذه كلها خصال تنفع النفع كله في تكوين الأديب الاجتماعي - أو بعبارة أخرى - في تكوين الصحافي . ولكن الصحافي فوق حاجته إلى كل هذه الأمور ، فإنه بحاجة كذلك إلى دراسة الهدف الذي يرمى إليه ، ودراسة الوسائل التي توصله إلى هذا الهدف . حتى إذا فرغ من هذه الدراسة بدأ جهاده ، فإن وفق فيها فذاك ، وإلا فقد أدى واجبه نحو أمته بقدر ما استطاع .

مهما يكن من أمر فقد كان النديم بوقاً عظيماً للشعب ، وبوقاً عظيماً للجند ، وبوقاً عظيماً للثورة ، ثم بوقاً عظيماً في أخريات حياته للخديو عباس الثاني ، وقد قلنا أن الخديو كان شاباً حراً جريئاً وكانت له توجيهات حكيمة وآراء سديدة اتخذ من النديم معروفاً صحفياً له على نشرها ، والترويج لها ، وكانت للنديم صفة شعبية محبة إلى النفس ، هي صفة الإخلاص للمبدأ أو الرجل أو العمل الذي يختاره لنفسه ويؤثره بحبه ، وهي صفة قل أن تجدناها في غيره ممن شاركوا في الثورة العراقية أو عاشوا بعدها .

كما سبق تتضح لنا أخلاق السيد عبد الله النديم، ويتضح لنا جانب من جوانب شخصيته . وهي شخصية غربية كل الغرابة في كل طور من أطوار حياته التي وصفناها بإيجاز شديد ، لأنه لا سبيل إلى التفصيل فيها على نحو ما تستحق من هذا التفصيل .

ولعل القارىء راعه في أخلاق هذا الكاتب خلق الصبر إلى الحد الذي لا تعرف له نظيراً إلا في الأساطير ، ثم خلق الغيرة على مصلحة الدين ومصلحة الأمة ، ومصلحة اللغة ، بما لا يدع مجالاً للشك في صدقه وإخلاصه وتفانيه في خدمة الوطن . ثم خلق الجرأة إلى الحد الذي يرهب به الجبابرة من الملوك والسلاطين ، ولا يرهب هو من أولئك الجبابرة أو الملوك والسلاطين . ويحسن بنا أن نأتي ببعض أبيات قليلة مما نظم النديم نفسه في ذلك ومنه قوله :

إذا ما الدهر صافانا مرضنا	وإن عدنا إلى خطب مُشغينا
صلينا يا هموم فقد عرفنا	بأتنا الصلب مُصلنا أم صلينا
لنا جلد على جلد يقينا	فإن زادوا البلا زدنا يقينا

ومنه قوله في الاستهانة بالخطوب :

إن قوماً تجمعوا	وبقتلى تحشدوا
لا أبالي بجمعهم	كل جمع مؤنث !!

الحق أن النديم منظر من مناظر الحياة المصرية لن تكتسب له العودة إلى هذه الحياة مرة أخرى ، وقطعة من قطع هذه الحياة لن يجود الدهر بمثلها مرة ثانية ، ولون من ألوانها كذلك لن تراه مصر في المستقبل .

أما النديم من حيث مواهبه الكثيرة التي فتح الله عليه بها فكان كنزاً عظيماً من كنوز مصر لولا أن هذا الكنز كان موزعاً على نواح كثيرة ولو أنه تفرغ لناحية منها لطورها وبلغ بها الغاية المرجوة منها ، ومن أهم هذه النواحي التي نشير إليها ناحية القصة ، وناحية القصيدة وناحية المقال .

الفصل السابع

الأسلوب الأدبي للنديم

من حياة النديم نعلم أنه بدأ حياته الصحفية بالكتابة بالإسكندرية في صحف أديب إسحق وسليم نقاش . ثم عزم على أن تكون له صحفه الخاصة به بعد ذلك فكان له من تلك الصحف ثلاث :

١ - صحيفة التنكيث والتبكيث في ٦ يونيو ١٨٨١

٢ - صحيفة الطائف في سنة ١٨٨٢

٣ - صحيفة الأستاذ في ٢٢ أغسطس ١٨٩٢

كان في أولها معنياً بالإصلاح الخلقى والاجتماعى . وفي الثانية معنياً بالثورة العرابية ، وفي الثالثة عاد إلى الإصلاح الاجتماعى مرة أخرى ، واهتم إلى جانب ذلك بالإصلاح السياسى .

ويجمل بنا قبل الوقوف عند كل جريدة من هذه الجرائد الثلاث أن نصف نوع العلوم التى اتصل بها ، ونشرح نوع الثقافة التى أعانته على مهمته ، وإن كانت هذه الثقافة كما قلنا ليست ثمرة مدرسة أو جامعة ، ولكن ثمرة الحياة التى كان يحياها هذا المغامر النادر المثال .

حدثنا أحمد سمير فى ترجمة حياة النديم قال :

« وله - أى للنديم - من المؤلفات الكبيرة والصغيرة ما يعد بالمئات ، منها ديوان شعر يشتمل على نحو أربعة آلاف بيت - نظمها وشبابه باسم الثغر طلق الحميا - وديوان آخر فى ثلاثة آلاف بيت - وروايتا « الوطن ، و « العرب ، - ورسائل أدبية مسجوعة لم تصل أيدى جامعى السلافة منها إلا إلى أربع عشرة رسالة بعد السعى الكشبر ، ومكابدة العناء الجزيل (وكان ويكون) (وهو الذى طبع بعضه فى الأستاذ) - وواحد وعشرون كتاباً فى فنون مختلفة ، قطع لأجلها أيام

حرب الاختفاء رقاب الفراغ بسيوف الأفسلام . منها ديوان شعر يحتوى على مايقارب عشرة آلاف بيت ، وهو الآن محجور عليه في القسطنطينية مع باقى تلك الكتب التى ينادى لسان حال كل واحد منها وفيها النحلة فى الرحلة - الاحتفاء فى الاختفاء - والشرك فى المشترك - وكتاب فى المترادفات - وآخر فى اللغة سماه : موحد الفصول ، وجامع الأصول - والمرائد فى العقائد والالكاء والدرر فى فوائح السور - والبديع فى مدح الشفيح - وأمثال العرب ، الخ .

ثم قال أحمد سمير :

ولضياح أغلب مؤلفاته بواعث شتى ، منها أنه كان إذا سود شيئاً جاء إليه من يستعيره منه ، ثم لا يرده عليه ، وقد فعل ذلك معه جماعة من أهل القاهرة والإسكندرية والمنصورة . ومنها أنه كان مقيماً فى بلدة من أعمال الدقهلية يقال لها بدواى ، فبلغه أن فريقاً من أهل البلدة يأتمرون به ليقتلوه ، فاتخذ الليل جملأ ، ومضى إلى حيث يأمن ، فلما جاء المؤتمرون ولم يجدوه أحرقوا البيت حرقاً ، فاحترقت كتبه فيه . ومنها أنه زمن مقامه بالمنصورة للتجار ، غافله خادمه وسرق بعض متاع البيت ، ومنه الكتب ، وهرب ومنها أن والده رحمه الله هاجر من الإسكندرية إلى القاهرة فيمن هاجر يوم الحرب الأخيرة ، فأحضر معه كتبه جميعها (وكان لى أنا أيضاً فيها كتب قيمة) وملاها وبيأى أمتعته عربية نقل من عربات السكة الحديدية ، فلما وصل القطار إلى كفر الزيات ازدحم المسافرون من المهاجرين وغيرهم ازدحاما هائلا ، فلم يسع رجال المحطة إلا أن رموا جميع ما بئلك العربية فى النيل ليركب الناس فيها .

ونحن وإن لم نطلع على هذه الكتب التى ألفها النديم فإننا نستطيع أن نقول إن موضوعها الشعر ، والتمثيل ، والأدب ، واللغة ، والفقه ، والتصوف ، والبديع . والظاهر أنها لم تكن تعدو ذلك ، فثقافته إذن ثقافة لغوية أدبية دينية فى أكثرها مع أنه لو تعددت ثقافة هذا الرجل واتسعت إلى ميادين شتى ، لسكان لمصر منه رجل لا يقل فى شأنه عن الجاحظ ، لأن له قلباً كقلبه ، وخلقاً كخلقه ، واستعداداً كاستعداده ، وقلماً مسهباً كقلبه ، ونفساً طويلاً فى الكتابة والخطابة كنفسه ،

وحباً في الظهور كحبه . وحرصاً على تسجيل كل ما يمر به كحرصه ولكن أنى للنديم أن يبلغ ما بلغ الجاحظ، ولهذا الأخير علم لا يدانيه علم ، واطلاع لا يتعلق به اطلاع والفرق بين المصرين الذين أظلا هذين الرجلين كبير إلى درجة لا تسمح بالموازنة بينهما .

أجل هذا لو كان النديم متعلماً على الطريقة المنظمة عارفا بلغات كثيرة ، قارئاً لنماذج من الآداب العالمية في عصره ، إذن لكان لنا منه أديب وعظيم نفاخر به الدنيا كلها والأمم بأجمعها .

على أنى أحب أن أسوق للقارئ مثلاً واحداً من أمثلة دراسة النديم للبديع، بعد أن درسه بنفسه وبدون إرشاد من الأساتذة ، فجاءت دراسته مع كل هذا دقيقة مستفيضة ، يدلنا عليها أنه تعرض يوماً لبيان أنواع البديع المختلفة في سورة الفاتحة ، فوجدنا كيف استطاع النديم أن يصل إلى خمسة وسبعين نوعاً من أنواع البديع في هذه السورة التي لا يزيد عدد كلماتها على خمس وعشرين كلمة (١) .

ومارس النديم الكتابة قبل ممارسة الصحافة فكان يميل ميلاً ظاهراً إلى البديع ويتهاقت تهاقاً قوياً على السجع ، وتفوق في ذلك حتى على القدماء أنفسهم . ومن أمثلة ذلك ما كتبه بعنوان :

نار القرو و نار العرو :

وهي رسالة عجيبة كتبها النديم بنظام غريب ، فكان يأتي بسجعة - بعدها آية قرآنية واستمر على هذا النمط من بداية الرسالة تقريباً إلى نهايتها ، مع تمكن شديد من الدخول على الآية في غير تكلف ظاهر .

قد كتب إلى صديقه عبد العزيز بك حافظ حينما رآه يجتمع ببعض المغاربة ، ويشغل معهم بحرفات باطلة . يقول (١) :

لا حول ولا قوة إلا بالله . اشقبه المراقب باللاه ، واستبدل الحلوى بالمر ،

(١) انظر الجزء الأول من سلافة النديم فصلاً بعنوان حسن الاجداء ،

(١) سلافة النديم الجزء الأول ص ٣٤

وقدم الرقيق على الحر ، وبيع الدر بالخزف ، والمخز بالخسف ، وأظهر كل لئيم
كبره ، إن في ذلك لعلبة ، سما سما ، فالوشاة إن سموا لا يعقلوا ، ويحبون أن
يحمدوا بما لم يفعلوا ، فكيف تشيرون منهم القار في صفة العنبر ، وقد بدت البنضاء
من أفراهم وما تخفى صدورهم أكبر ، وكيف تسمع الأحباب لمن نهى منهم
وزجر ، ولقد جاءهم من الأنبا ما فيه مزدجر ، عجبت لهم وقد دخلوا دارنا وهم
عنها معرضون ، فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون ، فقابلوهم بنبال الطرد في
الأعناق ، حتى إذا أثنتموهم قشدوا الوثاق ، أيدخلون بما لا ينفع ، في بيوت
أذن الله أن ترفع ، سيعلمون مقام الهبوط والعروج . يوم يسمعون الصيحة بالحق
ذلك يوم الخروج ، ويقولون إذا لم يجدوا ملاذاً ، يا ويلنا قد كنا في غفلة من
هذا ، فإنهم عزموا على الإقامة مدة ، ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ، وأنت
يا عزيز العليا ووحيد الدنيا قد يذنب لك فعلهم ، فيما رحمة من الله لنت لهم ،
ولكنهم طمعوا في عيم طولك ، ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من
حوالك ، أتراهم يعقلون كلامك أو يفهمون ، لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون ،
لهم قلوب لا يدرون بها للحسد قراراً ، لو اطلعت عليهم لوليت منهم قراراً ،
وإني قد شيدت لك بقلبي حصناً صعباً ، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا
له تقياً ، نسيت بالعاذل جميل الصوت وأنكره ، وما أنسانيه إلا الشيطان أن
أذكره ، رميت أيها العاذل بسيف النذر في نحرك ، أجمتنا لتخرجنا من
أرضنا بسحرك ، فإن لم ترجع عن السحر وفعله ، فلنأتينك بسحر مثله ،
كيف يسعى العاذل بين النديم وألفه ، وقد خلت النذر من بين يديه ومن
خلفه ، فيا سادتي دعوني من المعجب والمطرب ، ليس البر أن تولوا وجوهكم
قبل المشرق والمغرب ، واجملوا سيف ثباتكم للعدال مسلولاً . وأوقوا بالعهد
إن العهد كان مستوداً ، فإنهم إن قالوا كذب النديم أو بطر ، سيعلمون غداً
من الكذاب الأشر ، وها قد صار أمر الحويين عندك جلياً . أي الفريقين
خير مقاما وأحسن نديا ، أنظن عهد العاذل عند غضبك لا ينسك ، مثله كمثل
الكلب إن تحمل عليه يلهث . على أنه لكم حدوكبير ، ففروا إلى الله إني لكم

منه نذير ، فإنه جمع اقتتالك الأولاد والأحفاد ، وآخرين مقرنين في الأصفاد ، تركوا أمر الله واشتغلوا بما يرضونه ، فأعقبهم نفاقا في قلوبهم إلى يوم يلقونه ، وظنوا أن وصل إليك كتابي أنهم يطردون ويردعون ، وحرام على قرية أهلكناها أنهم لا يرجعون ، أيعجبك إذا مشى هذا اللاه ، نأني عطفه ليضل عن سبيل الله ، وإنك إن فرحت بعلم ما يجهلون ، قد نعلم أنه ليحزنك الذي يقولون ، فإن قلت إن اجتماعي بهم لأجل الصدقة أو شيء من هذا القبيل ، إنما الصدقات للفقراء . ١١ الك . المؤمن عليها والمؤلفة قلوبهم والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل ،

از مشاء بنميم ، وطباعهم كما تعلم منكرا مستفدرة
سورة . وقد قال وقائي خاطب عزيزك هذه

المرء وإن لم يعمل فيك فسكرا ، وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتشفه الذكرى ، فقال لساني إن الود هو الرسول المأمون ، فأرسله معي رداً أصدقني إنى أخاف أن يكذبون ، فقلت سيروا مع المحبة ذات الفتوة ، ولا تكونوا كالتى تقضت غزها من بعد قوة وقولوا له عند الغاية ، قد جئناك بأية ، ولا تهابوا جيش الأعداء وإن كبر ، ستمزم الجمع ويولون الدبر ، ولا تظنوا من ظاهر الأمر حلول البلوى ، إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ، بل قاتلوهم قتال المستشهدين ، وليجدوا فيكم غلظة ، واعلموا أن الله مع المتقين ، وإذا اشتبك القتال فليذب كل منكم عن مولاه ، وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ، فسيروا ودعوا الأولاد والجننة ، وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة ، ولا تسألوا عن الميرة من أصله . وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله ، فإن الله قد أثاركم لقتال العذال العائنين ، ليقطع طرقا من الذين كفروا أو يكتبهم فينقلبوا خائنين ، واحملوا عليهم فإنهم متى طعنوا في جنوبهم رضوا بأن يكونوا مع الخولاف وطبع الله على قلوبهم ، ولا تدبروا إذا أريتموهم إقدامكم ، إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم ، وإن أخذتم أسرى فقاتلوا أنصارها . فإذا منأ بعد ولما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ، فإن أظعنم رفعتهم وأصلح الله بالكم ، وإن تتولوا يستبدل قوماً غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ، وسأتلوا في خطبتكم عند قدمكم سالمين ، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .

تكفيينا هذه الرسالة دليلا على أن النديم كان في المرحلة الأولى من تاريخه الأدبي مفتونا بالجمع وبغيره من ألوان البديع ، وقد بدأ النديم يكتب على هذه الطريقة منذ السادسة عشرة من العمر ، فقد أمده الذين أرخوا لحياته بطائفة من الرسائل الأدبية المنمقة التي كتبها في صباه فقاربت العشرين رسالة . أولاها رسالته التي عنوانها .

أراء النصر في أدباء العصر :

قبل أنه كتبها منذ دخوله القاهرة ، أو منذ عمله بالقصر العالى . واجتماعه في أوقات فراغه بجامعة من الشعراء والمنشئين . وذلك عن طريق صديقه الشيخ أحمد وهبي . وإذ ذاك تعرف النديم بستة من الشعراء . ثم سرعان ما كتب - وهو في هذه السن المبكرة - رسالة في تراجمهم بدأها بقوله :

... وبعد فهذه نتيجة بهيجة عن ناقل الأكياس من الناس ، روى عن فكره عن لبه عن نظره عن قلبه ، حديثاً الصدق منه ، والحق عنه ، والدقة إليه والركة عليه ، إنه ركب أفراسه ، ونار واستصحب الفراسة ، وساريجوب الأقطار اختبارا ، ويترك الأوطار اختيارا ، ويقرأ الجرائد اكتشافا ، وينظر الخرائد استطافا ، في شرف نفس عن الناس ، على طرف أنس بلاكس ، لاترده المتاعب عن أمله ، ولا تلهيه الملاعب عن عمله ، حتى ملا أوعيته حكما ، وعاد أنديته حكما ، وقابل أحباره ببضاعته ، وقص أخباره على جماعته ، فغطوا رءوسهم وناموا ثم قطبوا وجوههم وقاموا ، سكوتنا لا يتكلمون من الهم ، ومرضى يتألمون من الندم ، فتعلق بالأذيال وصاح ، وتحقق الوبال ففاح ، ونادى بأعلى صوت أيها السكرام . .

على هذا النمط الذي يذكر القارىء بأسلوب المقامة في الأدب العربي سار النديم في رسالته حتى هيا لنفسه الطريق إلى مدح أولئك الأدباء الذين عرفهم

واتصل بهم ، وأشبع في نفسه رغبة جامحة وشهوة عارمة ، هي شهوة الاجتماع بالناس ، والتحدث إليهم والانتفاع بأفكارهم وآدابهم .

وفي هذه الرسالة استطاع هذا الفتى اليافع أن يهدى باقة من الزهر إلى أدباء العصر وهم بحسب ورود أسمائهم في هذه الرسالة ، السيد أحمد وهبي ، وعبد العزيز بك حافظ ، والسيد علي أبو النصر ، ومحمود أفندي صفوت الشهير بالساعاتي . ومحمود بك سامي البارودي (محمود باشا فيما بعد) والشيخ أحمد الزرقاني ، ومحمد بك سعيد نجل جعفر باشا مظهر ، وعبد الله فكري (عبد الله باشا فيما بعد) .

ما كان أشد كلف النديم منذ صباه بالسجع ، لقد كان يأبى إلا أن يكون عنوان رسالته مسجوما ، ومن رسالته المسجوعة حتى في عنوانها : التنوير المسحور في المغامرة بين السفينة والوابور ، وطالع السكرامة بحسن السلامة ، ودرر النخلة وغرور الرحلة ، حفظ الودائع لدرر البدائع ، تنبيه الليب وتسليمة الحبيب ، الساق على الساق في مكابدة العشاق ، رياض الرسائل وحياض الوسائل ، حوض الخمر وحوض البحر .

وكانت هذه الرسائل كلها ترويضاً للفتى على الكتابة ، وتدريباً له على التتميق في التحرير ، ولم يكن في هذه المرحلة إلا مقلداً لروح العصر ، ومحاكياً لطريقة أعلامه في النثر .

غير أن النديم في هذه الرسائل كان يبدو متأثراً كما قلنا — إلى حد بعيد بأسلوب المقامة . بل يظهر أن المقامة كانت ألح شيء في أدبنا المصري في القرن الثامن عشر حتى تأثر بها وحاكها كل أديب من أدبائنا في القرن الذي تلاه ، على تفاوت بينهم في هذه المحاكاة .

ولولم يشتغل هذا الفتى بالصحافة بعد ذلك لبقى يكتب بهذه الطريقة عينها طول حياته ، فقد كانت له قدرة بالغة منذ نشأته على الإتيان بهذه الأسجاع ، إلى درجة أنه لم يكتب بالقوافي الخارجية للجميل حتى جعل لها قوافي داخلية أيضاً كما في قوله من ضمن رسالته السابقة « فرأي الناس يتهادون بالمواهب مع اختلاف المذاهب

في المعاملة ، وكل ينادى على بضاعته ويفتنخر بصناعته حتى يكدر آمله ، فلا يرحم منها غير الكاسد ولا ينجح منهم إلا الحاسد البليد الجار تراه في المشدقة ، كأنه في مشنقة يحاول الفرار ، يعارض أستاذه ، ويفتك أفلاذه بما يديه ، إذا دخل على أمير ، لا يفارق السرير حتى يسديه ، وإن فارق صوبه ، جر ثوبه مهرولا في مشيته ، يسلم بالبنان وينكر بالجنان ويعبت في لحيته

ولا شك أن هذه وأمثالها لا تعدو كونها محاولات أولى يشق بها الفتى طريقه إلى الإنشاء . والحق أنها أفادته وهياتته للجهد الصحفي الضخم الذي بذله فيما بعد .

ولقد كانت با كورة هذا الجهد الصحفي الجهد مقالات كتبها في مجلتي المحرسة والعصر الجديد لصاحبها أديب إسحق وسليم نقاش ، غير أنه لم يدم على ذلك طويلا حتى حصل من الحكومة على إذن له بإصدار :

الفصل الثامن

جريدة التنكيت والتبكيث

في ٦ يونيو سنة ١٨٨١ أصدر النديم أول عدد من أعداد هذه الجريدة وكتب افتتاحيتها بعنوان (أيها الناطق بالصاد) قال فيه :

أقدم بين يديك بخدمة وطنية ، دعاني إليها حبي فيك ، وخوفي عليك ، وما هي بالمعظمة قدشكر . ولا بالبليغة فتمدح ، وإنما هي صحيفة أدبية نهديبية ، تلو عليك حكماً وآداباً ومواعظ وفوائد ومضحكات ، بمبارة سهلة ، لا يحنقها العالم ، ولا يحتاج منها الجاهل إلى تفسير ، تصور لك الوقائع والحوادث في صور تروح إليها النفوس وتميل ، ويخبرك ظاهرها المستهجن بأن باطنها له معان مألوفة ، وينبهك نقابها الخلق بأن تحته جمالا يمشق ، وحسناً تذهب الأرواح في طلبه ، هجوها تنكيت ، ومدحها تبكيث ليست منمقة بمجاز واستعارات ، ولا مزخرفة بتورية واستخدام ، ولا مفتخرة بركة قلم محررها ، وبخامة لفظه وبلاغة عباراته ، ولا معربة عن غزارة علمه وتوقد ذكائه ، ولكنها أحاديث تعودنا عليها ، ولغة ألفنا المسامرة بها . . فهي في مجلسك كصاحب يكلمك بما تعلم ، وفي بيتك كخادم يطلب منك ما تقدر عليه ، ونديم يسارك بما تحب وتهوى . فاجعل لها نصيباً من عمرك الجليل . وتمعها بنظرة تجلو مرآتها ، وتبصر خباياها . ولا تفوق سهام الرد قبل أن تدخل المضار ، ولا تنكر عليها ما تحدثك به قبل أن تطبقه على أحوالنا ، ولا تظن مضحكاتها هزواً بنا ، ولا سخرية بأعمالنا ، فإلى إمكانات صدور ، وزفرات يصعدنا مقابلة حاضرنا بماضينا ، فإن صدقت في الخدمة فأجرى منك المساعدة ، وإن قصرت فقد بلغت جهدي ، وحزمت ما في إمكاناتي فإن شئت عذرت ، وإن شئت أطلقت عنان أفكارك في ميدان يكبو فيه جوادى .

ولسنا بدار الحرب أو أرض قتنة ولكن لنا في العالمين نظير

ثم مضى النديم في هذه المقدمة الطليقة يوضح للقراء كيف تقدم الغرب وتأخر الشرق ، أو كيف تنبه الأوربي ونام المصري ، وكان أسلوبه في أداء هذا المعنى موسيقياً بما كان يوفر له من السجع أو الزواج ، وجزلاً بما كان يؤثر إذ ذاك من خولة الألفاظ . وذلك حتى ختم حديثه بقوله :

« وسأتحفك بفرائب قومك ، ومناقب أصلك أقدمها إليك شذوراً مردقة بما نحن فيه من التنكيت ، لتعذر المهتمين ، وترحم المسكين ، وتكون من الذين أعادوا مجدهم ، وأحبوا أوطانهم فأصبحوا ببقاء ذكرهم في الوجود من الخالدين » .

ثم جاء هذا العدد عامراً بمقالات كثيرة ، بعضها باللغة العربية الفصيحة ، لأن الحديث فيها موجه للخاصة ، وبعضها الآخر باللغة العامة غير الفصيحة لأن الحديث فيها موجه إلى العامة ، والنديم يقيم من نفسه أستاذاً لهؤلاء وهؤلاء ، كما كان يفعل الأستاذ الإمام سواء بسواء ، مع ملاحظة فرق واحد بينهما ، هو أن الإمام لم يحاول قط أن يصطنع في الصحف لغة الشعب ، وإن كانت لغته قريبة كل القرب من هذه اللغة كما رأينا ، على حين أن النديم كان لشعبيته التي أشرنا إليها يلذ له أن يجمل للشعب من صحافته نصيباً موفوراً فن الموضوعات التي قصدها النديم إلى الخاصة موضوع كتبه في هذا العدد الأول من أعداد جريدة التنكيت والتبكيك بعنوان .

مجلس طبي على مصاب بالافرنجى^(١) :

دخل به في صميم المسألة المصرية التي كانت تشغل الأذهان في وقته وكفى

(١) الأفرنجي كلمة كان يطلقها المصريون في القرن للماضي على مرض الزهري والكاتب

يستعملها استعمالاً مجازياً كما يدل عليه سياق الحديث . والمقال مأخوذ من كتاب سلافة النديم -

الجزء الأول صفحة ٧٩ .

بلغظ مصاب بالافرنجى عن الخراب الذى أصاب البلاد وكان نتيجة لإسراف
إسماعيل ، ووقوعه فى الديون ، ثم تدخل الأجانب فى مصر وفرضهم الرقابة
الثنائية عليها ، إلى آخر تلك المصائب التى حلت بالبلاد ، وتآلم لها أهلها جيلا
بعد آخر .

وانظر إلى النديم يقول فى هذه القصة التى رمز بها إلى جميع تلك الأمور :

كان هذا المصاب صحيح البنية ، قوى الأعصاب ، جميل الصورة ، لطيف
الشكل ، مارآه فارخ القلب إلا تصبا ، ولاسمع بذكره بعيد لإطاراً إليه شوقاً ،
نشأ فى العالم روضة ، ودار به أهله يحفظونه من الأعداء ، ويدفعون عنه الوشاة
والرقباء . وقد مات فى حبه جملة من العشاق الذين خاطروا فى وصاله بالأرواح
والأموال ، وكلما وصل إليه واحد سحره بركة ألفاظه وعذوبة كلامه ، وسلب عقله
ببهجة يحار الطرف فيها وعزة لا يشاركه فيها مشارك . وهو هو غزال فى الخفة ،
وغصن فى اللين ، وبدر فى البهجة ، وجنة فى المنظر . تمر عليه الدهور فتزيده
حسناً ، وتوالى عليه العشاق فتزداد هياماً . وأهله فرحون بهذا البديع الفريد ،
والطالع السعيد ، يشعقون الموت فى حياته ، وقد اتفقوا على توحيد كتبهم فى
حفظه ، وجمع شتاتهم فى رحابه ، وصرف حياتهم الطيبة فى بقاءه فى الوجود معززاً
بأهله ، مؤيداً بمشائره ، حتى لاتمد إليه يد عدو ، ولا يوجه إليه فكر محتال ،
ولا يقرب منه مغتال .

ويبينما هو يقيه بحسنه ، ويدل بجمله ، صحبه أحد المضلين ، واستماله بنفاق
تميل إلى النفوس ، وتملق ينجل ، فظن أهله أن هذا المصل من الأتقياء الذين
لا يعرفون اللهو ، ولا يميلون إلى المفاسد ، وسلوه جنة حياتهم ، وروضة ثروتهم ؛
فدار به فى الأسواق والطرفات ، وعرضه للعشاق تقبله جهاراً ، وتسايه حلى أصابعه ،
وزينة صدره ، وقد علموا أن الجمال يأسر الجميل فأحضروا من الغواني من تعارض
الشمس بحسنا ، وتكسف البدر بنورها ، فدُرن فى سبيل بيته يغازلن أهله بنغيات
تحرك الجبان ، ومؤانسة تستميل الشجعان ، حتى سلبن العقول ، وحولن الطباع ،
وبغضن المحبوب إليهم ، وأطهين كل ذى لب عن أفكاره ، وأنسين كل مدبر

ما كان يتصوره من نوايخ الحكم ، وغريب الأمثال ، وجملن الجمل مبدولاً
بلاقيمة والوصال منحوحاً بلا مقدمات . وذلك الصاحب مكبّ على هواه ، مغرم
بجمع الغرباء ، واستدعاء الأعداء ، ومصاحبة الأشقياء ، ومسامرة الأغيبياء ،
ينام ومحبوبه قلق ، ويضحك ومعشوقه كئيب ، إلا أن هذا الغزال الطاهر
العرض لما رأى أهله أهדרوه وأهملوه واشتغلوا بالفواني ، وولعوا بخدمة ،
الأجانب ، وانكبوا على الملاهي يتبعون آثارها ، استسلم للقضاء ، وترك النصار
والتحمس ، ومال مع أغراض هذا الصاحب وسار معه في طريق لا يرى فيه أحداً
من أهله .

فأهى إلا رشفة كأس حتى اصفر وجهه ، وارتخت أعضاؤه ، وذهبت
بهجته ، فسلم جسمه الشريف إلى الفراش يتلملم عليه ، ففطن له واحد من أهله ،
وزاره في خربة لم يجد فيها غير شيخ بهلل نفسه بالأمانى ، ويصعد الزفرات . وقد
برزت عظام وجهه ، وغابت عيناه ، ونشوه وجهه ، وتبدلت محاسنه بقبايح تنفر
منها الطباع ، فبكى وانتحب وقال :

أى حياتى ، أى جنتى ، أى نزهتى ، أى مطلع عزى ، ما الذى أصابك ؟
أين جمالك البديع ؟ أين محياك الزاهى ؟ أين حسنك الذى أفنى الكثير من
العشاق ؟ أين صحتك التى أشابت الدهور وهى فى عنفوان الشباب ؟ أين قوتك
التي أسرت بها الأشباح ؟ أين رقتك التى جذبت بها الأرواح ؟ أين ما كان عليك
من الحللى والزينة ؟ أين تاجك الذى ما لبسه لإنسان إلا افتخر على الوجود ؟ ..

فتنفس المصاب تنفس الضعيف ، ورمقه بعين لا يكاد يتحرك جفنها ، وقال
بصوت خنى : لا يمز عليك جسم أمرضه أهله ، فإنكم تركتمونى لصاحبى يدور
بى أينما دار ، فمرضنى لمن لم أعرف طبيعه ولا عادته ولا لغته ، ووكل بى من
يغرنى ويسلك بى سبيل الفوايه فلم أجد بدأ من الموافقة ، ودرت فى أماكن اللهو
حتى أصبت (بالداء الأفرنجى) فلم أعيا به فى أول الأمر ، وتركت نفسى ،
وكتمت خبرى ، فإنى لم أجد أحداً من أهلى حولى . ولم أعلم أن الداء سرى فى

دى وعروقي ، وتمكن من عظامي وأعصابي ، حتى ولم يترك عضواً من أعضائي إلا نشب فيه .

فلما ضعفت قواي ، وتمطلت حواسي سقطت في هذه الخربة^(١) ، أقلب جسمي على الأحجار ، وأرمق بعيني آثار أهلي ، وقصورهم المتهتمة ولكن لا أستطيع حراكاً ، حتى كدت أغالب هذا (الأفرنجى) وأصل لي مقرى ومنشأ عزى ، فأعاج نفسي بمشائش تربتي ، وعقاقير أرضي من يد أطباء بلادي ، وصيادلة ديارى^(٢) فإن قويت على^٣ فأحملني ، وإن تأذيت من صديدي فأجمع إلى قومي ، جفتم ، ويسعى في نجاتي ،

، أسفاً ، وبعض أنامله غيظاً . وأسرح

أيتها القبور الصامته ، انشقي وانفرجى ، وابعثن من فيك من الأموات ، فقد أتت الطامة الكبرى ، وانسكدرت نجوم النشور ويا أيتها الأرواح الخاملة — هلى إلى أجسامك البالية ؛ فأقيمها من موتها ، وابعثها في الوجود لتنظر هذا الذى تشق بدمه وتحاسب عليه ، فلم يكن إلا كلمح البصر حتى ملئ الفضاء بأناس لا عدد لهم ، يقدمهم طيب بارع ، قد استصحب معه جملة من الأطباء ؛ وساروا إلى تلك الجيفة ، واحتاطوا بها يقلبونها عن اليمين وعن الشمال ، ويقرعون صدرها ويحسون نبضها ، حتى وقفوا على دائها ، وعلموها أصل مصابها فحكوا على صاحبها^(٣) باقتزاحه عنها ، وعدم قر به منها ، وفوضوا أمر هذا المصاب إلى الطبيب البارع يتولى علاجه ، ويداوى جراحه . فطلب من بقية الأطباء أن يراقبوه في هذه المعالجة ليتقوى بأفكارهم على ما يصلح به هذا الجسد الشريف .

وبعد تبادل الأفكار بينهم فر^٤ الرأى على أنهم يركبون له دواء يوقف سريان

(١) الخربة هنا كناية عن الحراب الذى حل بالبلاد بسبب إسرائف إسماعيل .

(٢) أراد بأطباء بلاده وصيادلة دياره العقلاء من أمته وهم وحدهم القادرون على إقاذ

البلاد من هذا الحراب .

(٣) صاحبها . كناية عن إسماعيل ،

الداء الآن ، حيث تحكم وتمكن وبعد ذلك يتداولون فيما يزيل المرض ويهيد الصحة ، فتعلق بهم أهله يسألونهم الإسراع في معالجته ، والاجتهاد في دفع مصابه . فترضتهم الأطباء وسألهم الهدوء والسكون ، ومساعدتهم في خدمته ، وتنظيف محله ، وتطهير أعضائه وحفظه بحيث لا يتركوا الغرباء يتولون خدمته ، ولا يمكنون الأجانب من الوصول إليه . خوفاً من إفسادهم العلاج ، وسعيهم في إتلافه أكثر مما صنعوه به .

فكثرت صياح أهله ، وعلت أصواتهم بالعويل ، ووضعوا أيديهم على أكبادهم وتصبروا وابتدأوا يعملون بمشورة الأطباء ، ويبدلون الجهد في وقايتهم وصيائهم من كل من كان من جنس مصيبتهم .

قال الراوى : وبينما أنا أبكى وأنوح مع هؤلاء المساكين ، وإذا بالمؤذن ينادى حى على الفلاح فقامت لأفضى الغرض ، وأعود لمباشرة الخدمة مع إخوانى ، إذ لم أر قبل هذا اجتماع مجلس طبي على مصاب بالفرنجة .

هكذا بين النديم للنخاسة من أهل مصر خطورة هذا الداء ، الذى سرى في البلاد وهو داء الإسراف ، كما بين لهم أن الشفاء منه ليسور بإسناد الأمر إلى عقلاء الأمة وحكائما ، وإلى المخلصين من أبنائها على أن يتكاتفوا في مهمتهم ، ويضعوا لأنفسهم خطة تقوم على علاج سريع مؤقت وعلاج آخر بطيء ولكنه يشفي تماماً من المرض .

* * *

بهذه الطريقة وأمثالها أخذ النديم يخاطب الخاصة ، أما العامة فخاطبهم بأكثر من مقال في العدد الأول من الصحيفة ، ومنها مقال بعنوان « عربى قفرنج » ، وآخر بعنوان « سهرة الأنطاع » ، وثالث بعنوان « تخريفة الجنون قنون » ، ورابع بعنوان « محتاج جاهل فى يد محتال طامع » ، كل ذلك بيننا خص الطبقة المثقفة بمشال « مجلس طبي على مصاب بالفرنجة » ، ومقال أو قصة بعنوان « غفلة التقليد » .

وفى هذا المقال الأخير سخر النديم من بعض الموسرين من سماهم (حيدر الاموال) وقد بنى لنفسه بيتاً عظيماً وملاؤه بالفراش الوثير ، والادوات الثمينة (١٠ م - أحب القالة > ٢)

ثم مجرد التقليد أتى لنفسه بخرافة كتب مלאها بكتب الأشعار والتاريخ وبقية العلوم ، وهو بعد لا يعرف القراءة والكتابة ، فعل ذلك لا لشيء - كما قال علي لسان رب الدار - إلا لأنه دخل بيت الشيخ فلان ، والسيد فلان ، والحاج فلان ، والحمام فلان ، والأمير فلان ، فرأى في مضيقة كل منهم خزانة بها كتب وعليها ستارة خضراء ، وبجانها منشة من الريش ، والخادم كل يوم ينفذها ويمسح الزجاج والخزاة ، فعلم أن هذا طرز جديد في بناء البيوت ، فرتب مضيقتهم مثلهم ليكون في صف المتمدنين الخ .

ولا نستطيع أن نترك الجانب العامى من هذا العدد الأول من أعداد مجلة التنكيك والتبكيك حتى نسوق فيه نموذجاً للقارىء يوضح له طريقة هذا الصحنى في مخاطبة الشعب في صحيفته . ولنتخذ لتلك الحكاية التى عنوانها :

محتاج جاهل فى بر محتال طامع :

احتاج أحد الزراع لاستدانة مائة جنيه ، فقصد بعض التجار ، وطلب منه المبلغ ، فحرت بينهما هذه الحكاية بحضور بعض النبهاء .

الزارع : عاوز ميت جنيه بالفرط (١) يا سيدى .

التاجر : فرط الميه عشرين كل سنة .

الزارع : اعمل الى عمله .

التاجر : شيل عشرين من الميه بيقى كام ؟

الزارع : لهُو أنا كاتب شوف يفضل كام ؟

التاجر : بيقى سبعين .

الزارع : يدوب كده .

التاجر : دلوقت صار لى مية جنيه ، ضم عليهم عشرين واكتب السكبيالة

الزارع . اكتب وخذ الختم أهو .

وفى وسط السنة ادم له الزارع عشرة قناطير قطن وعشرة أرادب سمسم

(١) يريد بالريح أو الربا .

وعشرين من القمح ، وثلاثين من الفول ، وأربعين من الشعير وجا . يحاسبه
فكانت الحكاية هكذا .

الزارع : طلع لي ورقة الحساب يا سيدى .

التاجر : انت جبت قطن بعشرين جنييه . وقمح بعشرين جنييه وشعير بعشرة
جنييه ، يبقى كام ؟

الزارع : ما قلت لك من ديك المرة ما بعرفش الحساب .

التاجر : يبقى أربعين جنييه شيلهم من مية وعشرين ويكون الباقي كام ؟

الزارع : مين يعرف شيه بعده (١)

التاجر : الباقي تسعين جنييه ، وفرطهم عليهم عشرين ، يبقى مية وخمس عشر
طالب انت كان ثلاثين . يبقى مائة وستين ، ضم عليهم أربعين فرط . يبقى
السكبيالة بماتتين وعشرة ونصف .

الزارع : هو إيه - من الأصل سبع عشرات وعشرين ، وجالم ثلاثين
وثلاثين ، شلت منهم ثمن البتوعات التي جبتهم ، يبقى لك دلوقت ما تين وعشرة
بس والنص جبتو منين ؟

التاجر : النص أجرة كتابتي لا من الأرباح .

الزارع : آى دلوقت صحت الحسبة ، والسنة دى أبيع لك خمسين فدان في
عشرة جنييه ، يبقى لك إيه بعد كده ؟ يا جنينين يا ثلاثة ، خذلك بهم جاموسة ،
ويبقى على رأى المثل شيل ده عن ده ، يستريح ده من ده .

فقال النبيه للتاجر : أما تنق الله في هذا المسكين ، أخذت محصوله ، وصار
دائناً لك ، فلفقت له حسبة لا أصل لها وجعلته مديون ، مع أن حسبتك
معه هكذا .

٧٠ بفائدة ٢٠ ٪ فالمطلوب ٨٤

وهو أورد لك هذا القدر .

١٥ قنطار قطن سعر القنطار ٢ جنييه فالجموع ٣٠

(١) يريد شيه كثير ،

- ١٠ أردب سمسم سعر الأردب ٢٥٥ جنية فالمجموع ٢٥
- ٢٠ أردب قح سعر الأردب ١ جنية د ٢٠
- ٣٠ أردب فول سعر الأردب ١ جنية د ٣٠
- ٤٠ أردب شعير سعر الأردب $\frac{1}{4}$ جنية د ٢٠

والمجموع الكلي ١٢٥ جنية.

يكون له عندك ٤١ جنية ، فكيف جعلته مديناً بمائتين وعشرة ونصف بعد ذلك ، إن هذا هو السلب بلا خوف .

التاجر ، يا حبيبي الزاري حمار ، وأنا إذا كان مش يعمل كده مش لازم ييجي تاجر بنكبر بعد خمسة سنة .

فقال : قد تغيرت هيئتنا وتذهب حكومتنا ، فهي تسمى في عمل نظام يحفظ الحقوق ؛ ويمنع تعدى مثلك على هذا المسكين حتى لا يقع بعد ذلك جاهل محتاج في يد محتال طامع .

أى سخرية بالجهل إلى هذا الحد ؟ أرايت موعظة للشعب أبلغ من هذه الموعظة ؟ أرايت تنبيهاً لأولى الأمر أقوى من هذا التنبيه ؟ لا شك أن هذه الحكايات وأمثالها على بساطتها وسذاجتها ، وعناء الكاتب في عملها أثرت في نفس الشعب المصري وحكومته أبلغ تأثير ، ودفعتهم إلى نقض الجهل عن أنفسهم بعزيمة دونها كل عزيمة .

أما في حكاية الجنون فنون ، ففيه عرض الكاتب لقرائه فنظر قهوة بلدى يستمع فيها العوام إلى رجل محتال هو (الشاعر) المعروف في تلك المواطن وهو يقص عليهم قصة عنزة ، وهذه القصة بطلان هي عنزة وعمارة ، والعوام ينقسمون قسمين بتشجيع كل قسم منهما لواحد من هذين البطلين ، قال الشاعر :

« وبيننا هم في قتال ونزال ، وقد انكشف الغبار عن أمر عنزة ، وسنخلصه في الليلة القابلة » .

فقال له أحد الحاضرين (النديم بسميهم المجانين) لا بد أن تخلصه الآن وخذ عشرة جنيهات ! فأبى المحتال وسكت عن الكلام ، فشتمه الجنون ، وعلت

أصواتهما بالقبائح وآل الأمر إلى الضرب والإهانة .

سهرة الانطاع :

وفي حكاية سهرة الانطاع ، قضينا عرض النديم لقرائه كذلك صورة قوم جلسوا في دارهم ، وعلائم الهم والتفكير بادية عليهم ، فدخل عليهم من سألهم على تلك الهموم ، وأخيراً وبعد بحث طويل عرف الذي أهمهم هو «عادة الكيف» الذي شغلهم عن كل شيء عداه في حياتهم الاجتماعية ، ولم يجعل لهم حظاً من النشاط ، إلا رغبة في معرفة أخبار الوطن سيئة كانت أم حسنة الخ . وما لهم ولهذا كله .

« فهذا شيء يوجب وجع الدماغ ، ويشقت الفكر ، ولا يشتغل به إلا من ليس له شغل » .

عربي نمرنج :

ثم في حكاية (عربي نمرنج) يتخيل الكاتب أنه ولد لأحد الفلاحين واسمه ولد معيط وسماه (زعيط) تركه يحيا حياة الفلاحين في العزبة ، ثم أرشده الناس إلى ضرورة إرسال ولده إلى المدرسة فأطاعهم في ذلك ، فلما أتم علومه أرسلته الحكومة إلى أوروبا . وعاد إلى بلاده بعد أربع سنوات ، وأتى أبوه لاستقباله في رصيف الإسكندرية ، واندفع الأب محتضن ولده وبقبله ، فابتدره ابنه قائلاً .

سبحان الله عندكم يا مسلمين مسألة الحضن دى قبيحة جداً .

معيط : آمال يا بني نسلم على بعض إزاي ؟

زعيط : قول . بون أربني (Bon Arrivé) وحط إيدك في إيدي مرة

واحدة وخلص .

معيط : لهو يا بني أنا بأقول منيش ريني .

زعيط : موش ريني يا شيخ ، أتم يا أبناء العرب زي البهائم !

معيط : الله يسترك يا زعيط ، والله جا خيرك ! . الخ .

وهكذا احتوى العدد الأول من مجلة (التنكيك والتبكيك) ست مقالات ،

إثنتان منها للخاصة وأربع للعامة ، وغاطب النديم كل طبقة بما يلائمها ، وذلك من حيث اللفظ والفكرة في وقت معاً .

ثم في العدد الثاني من هذه المجلة ، رأينا النديم يطرق موضوعاً آخر ، وهو موضوع المحافظة على اللغة القومية للبلاد ، وهو موضوع ذوبال ، وقد أثار به جدلاً كثيراً ، واتخذ هذا الجدل شكل مناظرات قيل أن النديم نفسه ، كان حكيماً في بعضها .

جاء في هذا المقال الذي نشير إليه بقول النديم تحت عنوان ،

إضاعة اللغات تسليم للزات :

أيها الناطق بالضاد ، بم تستبدل لفتك وما لها من مثيل ، وإلى من تركها وأنت لها كنفيل ؟ وما الذي استحسنته في غيرها واستقبحت مقابله فيها ؟ وأى شيء طلبته فيها ولم تجد له إسماً ؟ .

ليبك أيها الأخ الشقيق - وإن لم نحمل في بطن واحدة - اللغة سر الحياة ، والحد الفارق بين الإنسان والبهيم ، بها يترجم اللسان خواطر القلب ، ويجلو بها بنات الأفكار ، وبها يعشق المرء وإن كان دميم المنظر . . . وهي التي بها جذبت قلب أمك ، واستعطفت جانب أبيك وتمسكت فكر أخيك ؛ واستملت صاحبك وألفت جارك ، وتعارفت مع مواطنك ، وقابلت بها نزيلك ، فهي أنت إن كنت لا تدري من أنت ، وهي وطنك إن لم تعرف ما الوطن . أما كونها أنت فقد قدمت لك من عرفتهم بها ، وأنت إذ فقدتهم صرت وحيداً غريباً في الوجود ، لا ترى من يقول لك من أنت ؟ وأما كونها وطنك ، فإنه إنما يعمر ويسمى وطناً برجال يتمازون على إحيائه وإظهاره في الوجود محلاً للسكن ، وداراً للإقامة ، وقد علمت أنك بمفردك لا تهتدي لشيء ، ولا تقوى على أمر كان ، ومن فقد المواطن فقد الوطن .

أسمعك قول : إذا فقدت لعتى اعتضت عنها بأخرى .

أجل - إنك اعتضت عنها ، ولكن بما أضاع منك الوطن ، والمعتقدات الدينية ، فإنك لا تخاطب بها إلا أجنبياً من البلاد . مغايراً في الجنسية ، وأنت

تعلم أن لمعاني الألفاظ تصوراً لا يقوم به مقابلها في غيرها ، فإنك لو سمعت قولي :
ومن غرر الأخلاق أن تهر الدما لتحفظ أعراض تكفلها المجد

وأردت أن تلقيه بلغة أخرى لفقد قوة الحانسة ، ووقع الألفاظ . وربما
عدت عنه بما لا يؤدي معنى ... رويداً فقد قدتك إلى الحق ، ورميتني بالأضلال
فإني لم أحرم عليك غير لغتك لضرورة تقتضيها ، ونازلة تدفعها ، ومشكل تحمله ،
وإنما أردت تذكيرك بأن لغتك كان منطوقاً بها من غير تعلم ، محفوظاً في غير كتاب
وبمخالطة الدخيل قسد بعضها ، وخيف عليها الضياع ، فدونت في بطون الأوراق
ولقيت أوتها في اللفظ والكتابة .. إلى أن قال :

« هون عليك فالأمر سهل ، فإننا لا نحتاج لحفظ لغتنا أكثر من إحداث
درس في جميع المدارس يلقن فيه الطفل لغته العربية الشريفة ، بطريقة تهيئية
لا يصعب الأخذ بها ، ولا تمل النفس من ملازمتها ، مع اجتماع الأمة على تكثير
المدارس بالجمعيات ، وصراف تلك وقت الطفل في تعلم اللغة والوطنية وتهذيب
الأخلاق . وإذا تمت هذه المبادئ رأيت لبلادك نشأة جديدة ، وخلقاً بديعاً ،
وعلت بما تراه من جمع الكلمة ، وسر وحدة التعليم ، وانتظام الهيئة الاجتماعية
أن إضاعة اللغة نسليم للذات .

على أن هذا الموضوع الذي بدأه النديم ، هو المحافظة على اللغة العربية ،
وجدناه قد تركه بعد ذلك ، ولم يعد إليه إلا حين أصدر آخر صحيفة له ، وهي
صحيفة (الأستاذ) على النحو الذي سنشرحه بعد ، وكتب النديم في العدد الثاني
من أعداد مجلته كذلك مقالا انتقد فيه المجتمع المصري . في « عادة التبذير
والإسراف » ، وجعل عنوانها يدل عليها . وبلغت النظر إليها . وهو قوله :

هف طلع الشراء :

كما كتب مقالا آخر بعنوان « كم في الروايا من خبايا ، يتهم فيه بلغة رجال
الإدارة وجهلهم وسوء تصرفهم فن ذلك أن أحد المأمورين ارتكب خطأ في
عمله ، فأرسل له رئيسه كتاباً يوبخه فيه ، ويسأله الإجابة . فطلب المأمور رئيس
كتابه ، فكتب له جواباً سخيفاً في لغته ، وسخيفاً في فكرته ، فلم يسترح

المأمور إلى ذلك ، وأخيراً دله بعض جلسائه إلى شاب عنده في الديوان ، لا يتجاوز راتبه ثلاثة جنيهات ، ولكن يحترف الكتابة ، فكتب الإجابة بلغة صحيحة ومفهومة ، فلما قرأها على المأمور كاد يطير فرحاً بهجاجة الشاب .

وقال ، كيف يكون هذا بثلاثة قرش ورئيسه بألف قرش ؟

فقال له الوكيل : هذا من أولاد الفقراء ، وليس له محسوبة على أحد الأمراء ، ولا يعرف النفاق ، ولا يفعل أعمال المحتالين التي تقدمه إلى ذوى الغايات .

ثم علق النديم على هذا بقوله :

(التبيكيت) أعظم مصيبة من رئيس كتاب لا يعرف الإنشاء ، وجود مأمور لا يحسن كتابة جواب من شأنه أن يكون من أسراره الخفية !

ثم في نفس هذا العدد من أعداد مجلة التنكيت والتبيكيت أجاب النديم عن سؤال تخيل أنه ورد عليه ، وهو بأى سبب ماتت صنائع الشرق ، واقترا أهلها ؟ وبأية وسيلة تحيا وتعود ثروة أهلها ؟

فأجاب عن ذلك بأن الصنائع قد ماتت بتحارب أهلها وتباغضهم اللذين أورثاهم الفقر وفقد الأمن والثقة بهم ، واحتج لرأيه هذا بمقال طويل وأدلة قوية . أما العامة فكان نصيبهم في هذا العدد أحاديث ، منها حديث له بعنوان :

تخريفه فمن عبد الله واتكل على الله :

قال فيه :

سافر لأحد الأغبياء ولد ، فلما طالت مدة غيبته توجه إلى بعض الرمالين ، وقال له : دخلت الرمل ، وشوف نجمى ازبه ، .

نخط الرمل وقال له : ما شاء الله ، أنت طالعك سعود ، وأيامك سعود ، شوف النجم يخبر بأنك بتاكل وتشرب ، وتقوم وتقعده ، وتفرح وتزعل ، وتركب وتمشى ، وتنام وتيقظ ، وتمسك وتمسك ، وفوقك سما ، وتمتلك أرض ، وفي فكرك كلام ، وطالب حاجة ، وبذك تبق غنى .

فغمز النبي رفيقه ، وقال له : شفت . أنا ما قتلتكش يعرف كل شيء ، مين قال له على اللى يعمله دا كله ، النجم بين كل ساعة .

ثم التفت إلى الرمال وقال له :

شوف أبو الزلني ابني ماله غاب كده .

فقال الرمال : دلوقت حصل سحب كثير ، والنجم ما يصحش في السحاب

فقال النبي : أظن نجم الواد ساقط !

فقال الرمال : الظاهر كده .

فشق النبي نفسه بعمامته ونادى .

آه يا ابني — يا أعز الرجال يا أبو الزلني ،

فسمعت أمه فخرجت صارخة مولولة قائلة إيه جرى لابني ؟

فقال لها أبوه : النجم خبر عنه أنه مات !

فصاحت وصوت واجتمع إليها النساء من كل فج ، وأحضرن اللبن وابتدأن بالندب والعيويل ، حتى قامت الناس على ساق ، وجلس أبوه يقبل العزاء ، ودموعه تسيل على خدوده .

وبيناهم في شياط وعباط ، وإذا بالولد داخل عليهم ساهلاً زكية الزوادة ، فابتدره والداه واحتضناه ، وقالت أمه لأبيه :

شفت الرمال بتاعك الكذاب ده !

فقال لها : د والله يا وليه الراجل ما لو دعوه ، الراجل قال لي السحاب كثير ما سمعش منه والابردة كلامه حق ،

ولهذه الحكاية بقية أتى بها التديم على وفق خياله ، ثم علق على ذلك بقوله :

(التبيكيت) — انظر إلى الغفلة واستحكامها في العقول السخيفة ، وكيف رأى هذا النبي أن الرمال كذب فيما يفتره ، وحضر ولده من سفره ، ولم يرض (١) أن يكذبه ، وحمل عدم صدقه على وجود السحاب .

(١) ترى أنه كان على الكاتب هو أن يأتي بفعل (يرضى) ظاهراً لاضميراً مستتراً وإن كان سياق الحديث يفهم منه أنت الضمير في (يرضى) يعود على الأب .

وتأمل قوله أنه يعرف كل شيء . بعد كونه يخبر عن أشياء من ضروريات
الهيمة ، فضلا عن الإنسان .

وفي جريدة التبكيك والتنكيك ، وجه النديم عنايته كذلك إلى تقصير كبير
يرتكبه المصريون ، وهو صنعهم في الخطابة وبخاصة الدينية .

ودعاه ذلك إلى بحث كبير في الخطابة وأصولها وقيمتها ، وتاريخها وأنواعها ،
واقتهى من ذلك إلى قوله .

وأود وجود نفر من أعيان بلادنا يتبرعون بمبلغ يقوم بنشر خطب أدبية
وسياسية . وأنا أقوم بإنشاء خطبة في كل أسبوع ، تناسب أحوال الزمان . ثم
تطبع هذه الخطبة وتنتشر في سائر أنحاء القطر ، لتتنبه الأفسكار وتعرف الأمة
قدرها ، وما تحفظ به نظمامها بين الأمم . ولا يتم هذا الأمر إلا إذا اجتمع
هؤلاء الأعيان ، وعرضوا ذلك لديوان الأوقاف ، ليتسكنوا من العمل بالخطبة
وما أظن أن أحداً يأبى هذا السعى الجليل ، مع تمتعنا برعاية ملك تقي يسره وقاية
الدين من سقطات الجهلاء ، وحفظ المملكة بأفكار رجاله وأفراد رعيته (١) .

ونرى النديم بالفعل قد أخذ يكتب نماذج للخطبة المنبرية العصرية في جريدته
هذه ، لكي يحتذيها الناس ، وينسجوا على منوالها .

ونريد أن تلخص ما عن لنا من ملاحظات على هذه الجريدة حتى الآن
فنقول .

أولا : إن وجه تسمية الجريدة (بالتنكيك والتبكيك) هو أن النديم كان
يقسم مقاله العائى في الصحيفة قسمين : قسم يستخر فيه من عادة من عادات المصريين
أو خلق من أخلاقهم ، ويأتى بقصة يشرح فيها كيف ينقاد المصريون لهذه العادة
وكيف يأتهم الضرر من قبلها ، وقسم يوبخ فيه المصريون على اتخاذ هذه العادة ،
أو التمسك بهذا الخلق ، ويأتى توبيخه على هيسأة تعقيب من الجريدة على هذه
الحكاية التى أوردتها ، والقسم الأول من هذين القسمين هو (التنكيك) بالنون
والقسم الثانى هو (التبكيك) بالباء . ومن ثم كان محققاً فى هذه التسمية .

(١) سلافة النديم الجزء الأول ص ١٢٧ - ١٢٨ .

ثانياً . إن المقالات التي كان يكتبها النديم باللغة العربية الفصيحة ، كانت على هيئة أحاديث ممتازة ، أو قل في صورة خطبة . والنديم خطيب بطبعه وخلقته كما رأينا وهو لهذا يجد سهولة كبيرة في التحدث إلى الناس على هذا الوجه ، بل يجد لذة عظيمة في ذلك ومن هنا كانت عناية النديم بالبحوث الخطابية في صحيفة مقابلة لعناية إسحق بالبحوث الـكتـابية في صحيفته ، أو من ناحية أخرى كان النديم يؤمن بالإصلاح عن طريق الخطبة ، في حين أن الأستاذ الأمام كان يؤمن بالإصلاح عن طريق النفسية .

ومن ثم كان الإمام عالماً بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة ، وكان النديم خطيباً شعبياً ، والخطبة الشعبية لا غنى لها عن التهريج كوسيلة لإقناع الجمهور .

ثالثاً ، إن الموضوعات التي طرقتها النديم في صحيفة التنكيك والتبكيك ، كان أكثرها يتصل بالمجتمع ، وأقلها يتصل بالسياسة ، وقد كان النديم من أوائل من أدركوا في مصر أن لغة الصحافة البحثية ينبغي أن تكون غير لغة الأدب البحثي ولذلك ترك السجع ، وعدل عن الزخرف ، وآثر عليهما طريقة الرمز ونسج الأفاصيص الصغيرة ، التي يقرأها العامة والخاصة ، وتترك في نفوسهم تأثيراً واحداً على السواء .

أما الكلام عن بقية الخصائص التي لأسلوب عبد الله النديم ، فله موضع آخر عندما نلخص القول في هذه الخصائص ، وذلك بعد الفراغ من البحث عن بقية الصحف التي كُتبت فيها هذا الرجل .

* * *

نشبت الثورة العراقية ، واتصل بها النديم راضياً أو كارهاً . أو طلب إليه أن يخدّم الثورة بصحيفته ، وسعى رجال الثورة أنفسهم حتى نقلوا النديم وصحيفته إلى ميدان القتال ، وأطلق هو على صحيفته الجديدة اسم الطائف .

الفصل التاسع

الطائف

وفي هذه الجريدة كتب النديم مقالات سياسية ذات طابع ثورى واضح ،
ومنها مقالات في تاريخ إسماعيل وفي النقمة عليه ، أهمها مقاله الذى جعل عنوانه :

سلب الأموال من الملوك :

كتبه في ٦ مايو سنة ١٨٨٢ وملاها فراغ صفحتين من صفحات الجريدة
الأربع ، ومرض في أثناء ذلك فأتم المقال ، وأرسل يعتذر ، عن تحرير الجريدة
إلا ما كان من تاريخ حضرة إسماعيل باشا ، فإني أكلف بكتابته ، لأن نشره
من ضمن علاج ما بي ١١

ونص النديم في نقد إسماعيل والنقمة عليه في أمور كثيرة : منها أنه أرحق
المصريين بالضرائب الكثيرة ، وأنه سلب أموالهم ، ونهب عقارهم ؛ وحرّمهم
أرضهم ، وظلمهم واستبد بهم ، ولم ينج منه حتى أصدقائه وأقربائه من أعضاء
الأسرة الحاكمة . وذهب النديم في تجريح إسماعيل مذهباً بغيذاً ، إلى حد أنه
راح يبنى عنه كل سعى له في ترقية مصر ، وارتفاعها بالحضارة الأوربية الحديثة ،
واقتراداته في ذلك بجدّه محمد على . فهذا أتى بالأوربيين النابضين ، وهذا (يريد
إسماعيل) استحضر من الأوربيين من اقتسح التيارات والمراقص ، ومن بنى له
السرايات التى أنفق عليها أحمالا من الذهب ، ومن فتح له البنوك لمساعدته على
شهواته البدنية ، ولذاته الخصوصية^(١) .

ثم انتقل النديم من نقد إسماعيل إلى نقد توفيق ، إلى أن اضطرت الحكومة
إلى تعطيل جريدته ، وذلك في ١٧ مايو سنة ١٨٨٢ ، ثم عادت للظهور بعد ذلك
الحادث الخطير ، وهو ضرب الإنجليز مدينة الإسكندرية بالمدافع ، واحتلالهم لها .

(١) الطائف في ٢٠ يوليو سنة ١٨٨٢

وهكذا بعد أن كان النديم في صحيفة (التشكيك والتبكيك) يكتب بلغته
تقوم على الكتابة والرمز ، وتم عن الحياد والحذر ، أصبح في جريدة الطائف
يكتب بلغته سافرة ، لا يخشى فيها سلطانا ، ولا يأبه بملك أو أمير ، وهو في هذا
الدور الأخير إنما يسير الثائرين في حركاتهم ، ويترجم عن أفكارهم وآرائهم ،
ويصدر عن هذا الرجل الذي غلا في صدورهم ، حتى أوفى في كل ذلك على الغاية .

ثم إن النديم فضلا عن تلك المقالات العنيفة التي كتبها في نقد إسماعيل وتمييز
توفيق باهتمامه بالدول الأجنبية ، طفق يكتب مقالات أشد ثورة ، وشرح فيها
حالة الفلاحين ، وما انتهوا إليه من بؤس وعوز ، ودعا الحكومة إلى العناية بهم
من جميع النواحي الممكنة .

أما الإصلاح النيابي في مصر فقد استأثر بجانب عظيم من مجهود النديم في
صحيفة الطائف ، وكان يرى أن الإصلاح السياسي في مصر لا يقوم إلا على
الإصلاح النيابي (١) .

وحيث وقعت الواقعة ، وأذنت البلاد بثورة جامعة ، وأعلن عرابي ورفاقه
عصيانهم للخديو انتقل النديم بجريدته هذه إلى الميدان كما قلنا ، وأخذ يكتب
المقالات التي هيجت الخواطر ، وأثارت الفتن . وكان النديم يلقب (عرابي) في
أثناء ذلك (بحامي حامي الديار المصرية) .

وحيث قامت الحرب فعلا بين عرابي والإنجليز أراد النديم أن يروج للحرب ،
ويشيد بالهمم التي يبذلها رجال الجيش ، طفق هذا الكاتب الخطيب يهول في وصف
المعارك التي دارت بين عرابي والإنجليز ، ويشيد بذكر العناد الحربي الذي يملكه
الجيش المصري ، ويذيف في وصف الهزائم التي أوقعها المصريون بالإنجليز ،

(١) وقد أرسل النديم خطابا إلى مجلس النواب بتاريخ ٤ مارس سنة ١٨٨٢ يطلب فيه
امتنيازاً بلمصر محاضر المجلس في هذه الجريدة . ووافق المجلس على أنه بتاريخ ٥ مارس سنة
١٨٨٢ ، ولكن يبدو أن جريدة الطائف لم تعظ بنفورها هذه المحاضر لأن المجلس انعقد
في ٢٦ مارس فلم يستطع النديم في هذه المدة البسيطة التي لم تتجاوز تسعة عشر يوما أن يلمع
شيئا من هذه المحاضر التي سعى حتى نال الموافقة عليها .

ويركب متن الشطط في وصف شجاعة العربان الذين ألحقوا أنفسهم بالعرايين ، ولم يلتزم النديم جانب الصدق في شيء من ذلك .

وما للنديم والصدق في هذه الحالة !

أليس يريد تقوية الروح المعنوية في الجيش ؟

الس . ، يد أن بذود عن الشعب كل شعور بالقلق أو الخوف ؟

ومن هنا كانت الجريدة الثانية من جرائد الثورة - ونعني بها جريدة (المفيد) محررها حسن الشمسي - أدنى من الطائف إلى العمل الصحفي ، فبينما كان النديم يخرق على هذا النحو ، إذا بحسن الشمسي يسلك طريقاً آخر ، هو إثارة العداوة والبغضاء في قلوب المصريين ضد الإنجليز ، ويحسم الخطر الذي يهدد المصريين من دخول الإنجليز ، حتى لقد أبلت (المفيد) في هذه الناحية بلاه لا بأس به ، وجاء أسلوب محررها حسن الشمسي أقوى نوعاً ما من أسلوب النديم ، الذي راح يكتب نشراته الحربية كتابة قليلة الحظ من الأناة ، بل من الجودة الفنية .

ثم أن النديم كان يصدر مع الطائف ملحفاً به ، وكان يبيح لنفسه في هذا الملحق من حرية النقد ، والمبالغة في التجريح والذم ، فوق ما ينبغى لصحفي شرق أو غرب في الظروف المعتادة .

ولكنها الثورة يتهزها أمثال عبد الله النديم ، ويتجاوزون فيها الحدود ، ويخرجون فيها على القوانين .

ومن ذلك أن النديم تعرض للصحفيين السوريين ، وكتب في ملحق من ملاحق الكاتب مقالا بعنوان (سليم وبشاره تقلا وتوفيق باشا) ملأه سباباً وإفخاشاً ، وأمعن إذ ذاك في تجريح أولئك السوريين تجريماً تناول ذواتهم وطباعهم وأخلاقهم وطعن في زيمهم وأنسابهم وأعراضهم . وكان ذلك من الأمور التي أسكتت صحف أولئك السوريين ، واضطرتهم إلى الرحيل عن الديار المصرية ، حتى تنجو البلاد من خطر الثورة العرابية .

وأرى بعد هذا التمهيد أن أكتفي هنا بأن أنقل للقارىء مقالا أو نشرة من النشرات الحربية مكتوبة بأسلوب النديم . وهو فى ميدان القتال بالقرب من الإسكندرية ، ثم أتبع ذلك بمقال لحسن الشمعى كتبه فى هذه الظروف - خارج الميدان - فى قلب القاهرة . وغرضنا من ذلك أن يوازن القارىء بين الرجلين ، وبين المنهجين ، وبين الأسلوبين موازنة سريعة موجزة بقدر المستطاع . كتب النديم فى العدد الرابع والستين من جريدته الطائف ، فى ٨ شوال سنة ٩٩ بعنوان .

المهمة الثانية

إن جندنا لهم الغالبون

أى بنى مصر ، خذوا حديثاً يرويه العيان عن المشاهدة ، ويخبر به الصدق عن الحقيقة . جهل الإنجليز مقام المصريين ، فاعتدوا وأجلبوا عليهم بالخيال والرجل ، يريدون ليطلقوا نور الله بأفواههم ، والله متم نوره ولو كره توفيق باشا ومن معه . ونال الإنجليز العذاب ألوانا من يد المصريين فى ٥ رمضان سنة ٩٩ فأبى جهنم إلا أن يساق إليها جانب عظيم منهم يزداد به وقودها ، فتجمعوا وأقاموا خمسة عشر يوماً مجهزون ويرتبون ، حتى إذا جاء أجلهم ساقنهم المنية فى يوم السبت زمراً تحت رياسة الدوق (دوكنوت) رابع أنجال ملكة الإنجليز؛ وقيادة السير (أرشبالد أليزون) أشهر قواد الإنجليز ، فخرجوا فى الساعة التاسعة بقوة مركبة من عشرة آلاف عسكري ، ما بين قيادة وسوارى وطوبجية . وكان خروجهم على هذا الترتيب .

وبينا كانت الطابية تضرب القطورات قربت عساكرهم القيادة والسوارى والطبجية من عساكرنا ، فأمرتهم بنادقتنا رصاصاً غير بارد ، وسقتهم شراباً غير راو ، وكانت مدافعهم من جهة محطة السيوف ومن طابية الرمل تضرب ، ومدافع مقدمتنا الامامية وطابية الخفراء الأولى تجمع من شرد منهم وترد الحارب ، فإن طوبجيتنا من المشهود لهم أنهم من الطبقة الأولى . وقد أظهروا فى هذا اليوم ما خلد لهم فى تاريخ العسكرية ذكراً جميلاً ، كيف لا ورئيسهم البطل الهمام سعادة بدوى بك

كان يطوف حول المدافع ، كأنهم بين يدي أمير مطاع ، يأمر فلا يرى إلا نشاطاً
وحرركات سريعة .

وعندما تسكاثرت نيراننا عليهم تقهقروا ، فانقض عليهم أربعمائة من سوارينا
وخمسمائة خيال من فرسان العرب ؛ وألف وخمسمائة من العرب الراحلة ، انقضاض
الشهب المحرقة ؛ وساقوم سوق الأغنام ؛ ومدافهم تضرب من كل ناحية .
وهؤلاء الأسود لا تخيفهم نيران العدو ، ولا ترهقهم كثرتة ، حتى التجثوا إلى
تخيل السيوف والمندرة ، فاتبهم فرساننا الظاهرون ، وأطلقوا أعنة الخيل
خلفهم . وقد سارت العرب الراحلة تبارى جياد الخيل عدواً وجرياً ، حتى تمكنوا
من الألوف المنزومة ، وأذاقهم المنون حرقة بنار الرصاص ، وضرباً بالسيوف ،
وكسراً بسنابك الخيل ، وكلما التجثوا إلى ربة أو توارطوا في منخفض ، تبعوم
وشردوم ، حتى وصلوا بهم محطة السيوف . ورأى العدو أنهم لا يرجعون مع
استمرار المدافع من طابية الرمل ، فقصدوا جهة طابيتهم ، وأسود مصر خلفهم
تزار ، وفرسان العرب تصيح بصوت له ضجة عظيمة ، حتى منعوم من الالتجاء
إلى الطابية ، فزلوا على جسر السكة الحديد ، قاصدين سراى الرمل ، فقبهم
صناديدنا تضرب وتذبح ، وحالوا بينهم وبين السراى ، وفروا جهة الإسكندرية
والسيوف تنوشهم ، والرصاص يصيدهم ، حتى صاروا أمام الحدراء . ورأى
رجالنا أنهم إن تبعوم إلى الإسكندرية أصابتهم نيران مدافع باب شرقى ،
فعادوا وجئت القتلى تحت سنابك الخيل ؛ كأنها ربوات . ومن العجب أن أنفار
العملية أخذوا فؤوسهم ونبايتهم وهجموا مع المسكر ، وتوغلوا في السير معهم ،
وقد تجمعت خلفهم نساء العرب تزغرد وتغنى بألغاز حماسية وصوت رخيم .
وكان في ساحة القتال سعادة البطل الفيور طلبه باشا عصمت ، قندان كفر الدوار
وسعادة محمد رضا باشا . وحضرة مصطفى بك عبدالرحيم حكمدار المقدمة ، وحضرة
أحمد بك عبد الغفار أميرالاي السوارى ، وحضرة عييد بك وحضرة سليمان بك
سامى ، وحضرة أحمد بك عفت ، ومن البسكباشية حضرة محمد أفندى فوده ،
وحضرة رزق أفندى حجازى ، وحضرة إبراهيم أفندى هيبه ، وحضرة علي
أفندى رمزى ، وحضرة علي أفندى رضا .

فهؤلاء الأمراء العظام أظهروا في هذا اليوم ما أعاد لمصر مجدداً يشرف به الحاضر ، ويفخر به الآتي من المصريين . وكنا نود لو حضر الإفرنج ، ورأوا عساكرنا وعرباننا وهم كالليوث خلف غزلان تستحي الحرب من نسبتهم إليها ، حتى كانوا يقطعون ألسنتهم بأيديهم ، جزاء لما اقتروه على المصريين ، وما كانوا يقولونه من خوفهم من البرانيط التي لم تجد تحتها رؤوساً . ولكنهم وإن فاتهم النظر ، فلا يفوتهم الخبر ..

* * *

ولله در الفارس الضرعام شيخ العرب للموم السعدى ، والبطل الغضنفر عمر محبوب كيشام . فقد أظهروا من الحماسة والإقدام في الهجوم ، ما شهدت لهم به القتلى ، واعترف المنتهزمون به .

* * *

وهذه الطريقة السالفة كتب النديم كذلك وهو في الميدان - مقالا في جريدة الطائف ، يصف ما سماه يومئذ باسم :

المعمعة الثالثة

وما نريهم من آية إلا وهى أكبر من أختها

« قالوا لهم بعد ذلك إن الله يأتيكم ، ويخزهم وينصركم عليهم ، ويشف صدور قوم مؤمنين » ، ذلكم العادون المفترون بغاث^(١) الإنجليز الذين استسروا في الوجود بأوهام وخيالات ، واستضعفونا فجاءوا بالحيل والرجل ، وقد زلزلت أرضهم ، فأخرجت أبقالها ، ونبتت بأقدامنا أرضنا ، فكنا أوتادها . غرهم مراكبهم ، الحربية ، فتخيلا أنهم يسبرونها في البر ، ومدروا أن الأسماك يقتلها التراب ، وتنتها الشمس . وهى إذ لا تقرب الشاطئ خوفاً من الصياد ، وبين أسود تنبع فريستها أنى سارت . يعلم ذلك من شاهد واقعة يوم الأحد ٥ شوال سنة ٩٩ ، فقد أخذ العدو يبوء عساكره من الساعة السادسة نهاراً . وفي الساعة التاسعة

(١) بغاث الطير صغارها ،

ظهر بقوته المركبة من ستة قولات قادمة من جهة الرمل شرق المحمودية ، وقوانين من جهة حجر النوانية غرب المحمودية ، وقطرين من طريق القبارى ، وكان سعادة طلبه باشا قنطان فرقة كافر الدوار قد رتب مقدمتنا من أربع أربط شرق المحمودية تحت حكاذارية عيد بك ، وحضرة أحمد بك عفت ، الخ .

وعندما صار العدو تحت نيران مدافعنا اشتغلت الطوبجية من الطريقة ، واشتعلت نيران المدافع ، وعلت القنابل في الجو ، تعارض الصواعق في انقضاضها وتضارع الشهب في إحراقها ، وقد أبدى حضرة محمد افندى حشمت البكباشى ، وأحمد افندى فضلى اليوزباشى ، وبقية ضباط وعساكر الطوبجية تحت حكاذارية الهمام حضرة بدوى بك ، من المهارة ودقة الضرب ، ما غطى وجه أرض الميدان بجثث القتلى من العدو .

وقد شاهدنا عدة قنابل فرقت في وسط قولات العدو ، فتركت مشات من رجاله صرعى لا روح فيهم ثم وجهت مدافعنا إلى القولات الشرقية ، فأعدمت وأحرقت ، وشدت وبددت ، ووجه بعض المدافع إلى قطورات السكة الحديد ، فكسرت وقتلت ، واستمر الضرب بالمدافع ساعتين ونصفاً ، وعساكر البيادة والسوارى والعربان تتقدم تحت حماية نيراننا ، حتى صارت على قرب ستمائة متر من العدو ، وأطلقت عليه نوبة بلك لإتش ، وأتبعها بنوبة لإتش ، فتقهقر العدو منهزماً ، وكان يود أن يجعل قهرته بانتظام ، ولكن هجمت عليه سوارينا وفرسان العربان فشرده من النخيل ، وتبعته تضرب بالنار وتذيع بالسيف ، إلى منتصف الساعة الأولى من الليل ، ومن عهد انتشار الحرب لم يخرج العدو بقوة كهذه ، فانها كانت مكونة من ١٢ ألفاً بما فيهم آلاى الحرس الملكى وكان الدوق (دكسينوت) رابع أنجال الملكة مع توفيق باشا جهة الرمل ، ينظرون بالظارات ، فلما رأوا عساكرهم تقهقرت وتلفت ، عادوا إلى الإسكندرية بالحنية والندامة .

وفي هذا اليوم حضر أحد عساكر موسيقى وابور المحروسة ، وأخبرنا أن قتل العدو يوم السبت ألفاً ومائتان ، وأما قتل يوم الأحد فإنها مضاعفة ، وستأيننا بأعدادها ، فنكتب إليكم بها . فحق للمصريين أن يفتخروا بإخوانهم

المجاهدين الذين أسسوا لهم دعائم مجد يبني عليها تاريخ العز والشرف . نصرهم الله (كسب في ميدان القتال بالملاحه) .

هكذا وجدنا النديم يعنى في تلك المقالات العاجلة بوصف المعمعة ، وليس في أسلوبه في هذا الوصف عناية ما بأكثر من العناية بالألفاظ الفخمة الجزلة ذات الوقع في الآذان ، والحرص على إيراد المصطلحات الحربية الغنية بألفاظها التركية ، ثم العناية بالافتباس من القرآن وخاصة في مطالع هذه المقالات ، وقد رأيناه يجعل من الآيات القرآنية عنوانات لهذه المقالات . وهو بعد هذا كله ليس معنياً بالترادف الموسيقي للعبارة ، ولا للتوازن بين الميل من حيث الموسيقي ، ولا بالاستعارات إلا فيما ندر ؛ كما في استعارته التي شبه بها مراكب الإنجليز بالسماك يحيا في البحر ويموت في البر ، هذا من حيث الأسلوب الكتابي ، وأما من حيث العناية للحرب فقد رأيناه كعادته يتخرق بذكر أوصاف يضيفها إلى الجيش المصرى ويومم بها جمهور المصريين بأن جندهم هم الغالبون ونحن نعلم أن الحقيقة كانت غير ذلك غير أننا نذكر له بالثناء قصده إلى ذكر أبطال المصريين عن اشتركوا في الدفاع عن بلادهم ضد الإنجليز ، وقد رأينا أنه كان يعنى بذكر كبير الضباط وصغارهم على السواء . ولا ريب أنه كان لمثل هذه الطريقة في الكتابة ، ولقصد الكاتب في ذكر أسماء الأبطال ، وقع عظيم في نفوس هؤلاء الجنود ، ورتة فرح في المعسكر المصرى الذى كان بحاجة شديدة إلى مثل هذا التشجيع .

وكان النديم يضمن جریدته الطائف عنوانات مغرية دائماً ، كما في قوله (الريح الدائم) ثم يأتي بعد ذلك بالآية تبدأ بقوله تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، . إلخ) . وهكذا كان النديم يستمد من القرآن الكريم قوة يضيفها إلى كلامه ليجمع بها هذا الكلام .

وبيننا كان النديم يكتب هذه الكلمات وهو في وسط الميدان إذا بصحافي آخر هو حسن الشمسى يكتب خارج الميدان في صحيفة المفيد مقالات لا شك أنها كانت لسان حال الثورة العرابية ، وأنها عبرت عن كثير من معاني هذه الثورة ، كما

عبرت عن البغض الشديد الذي كان يحسه الثوار ضد الإنجليز .
وهاك نموذجا مما كتبتة جريدة المفيد في عددها الصادر في ٣٠ يولية
سنة ١٨٨٢ بعنوان :

هالنا مع الانجليز:

إلى متى توقظنا الحوادث ونحن رقود؟ وحتام تدهمنا المصائب ونحن قعود؟
وكيف ينادينا الوحي لنحميه فيجد آذاننا صماء؟ أم كيف يشير إلينا الوطن
لنحفظه من غوائل الطمع ، فيرى أعيننا عمياء؟ فما للدافع لاتدق ، وما للنفس
لا تزهد ، ومن للأعراض تحمينا إذا دخلنا تحت صحور الحين (١)؟ ومن
للوطن يمنعه بحوزته إذا تأخرنا عن نصرته؟ ما رأينا عرضاً حفظ وصاحبه في
سكرات غفلته .

وما منعت دار ولا عز أهلها من الناس إلا باقتنا والقنابل
أفهل يسرنا أن نتنظم في سلك الهند التي فتح الله عليها أبواب العذاب في
الدنيا ! إذ أمسك زمام ملكها قوم لا يرقبون للإنسان إلا " ولا ذمة ، ولا يراعون
للنمدن حقاً ولا حرمة ، يحسبون توحشهم تمدنا ، وظلمهم عدلا ، وجورهم إنصافا !
ألا وهم الإنجليز .

قد علمتم ما هي الأمة الهندية من بعد الصيت في التجارة والصناعة . وطرق
أذانكم ما جرى في وطنهم من الثورة . ولسكنهم قوم تبكى عليهم العيون دماً ،
وتنفطر لسوء حظهم الأكباد . فإن الأمة الإنجليزية قد مسكت الطريق على ثروتهم ،
فأثرت بها نفسها ! ترى في الهند الجم الغفير من التجار الذين تضرب الأمثال بعظم
تجارتهم ، ولهم الشهرة العالية في رواج بضائهم ، ومع ذلك فإنهم في بلادهم أقر
من الزاهد البطال ، لأن حكومة الإنجليز في الهند تمر في آخر كل يوم ، فتأخذ
من صاحب الحان أو الدكان ما عنده من النقود في البنك ، فإن أراد أن يشتري
بضاعة يازم بحكم القانون الإنجليزي الهندي أن الحكومة تتحقق جيداً من

(١) الحين ، الموت .

البضاعة التي يريد مشتراها ، ثم تكتسب للتاجر تحويلا على البنك بالتقود فإن كان البائع هنديةً يبقى المبلغ الذي به التحويل في البنك باسمه كما يقال وإن كان إنجليزياً قبض الثمن نقداً وهكذا . فأنت ترى أن ثروة أهل الهند بيد الإنجليز ، وليس للأهالي منها حظ ، لأنها محتكرة أموالهم ، وواضحة لها في سجن البنك تحت استعمالها كما كيف شامت . فأهل الهند بمنزلة الممتوه ، والحكومة الإنجليزية بمنزلة القيم ١١ وأما غير التجار وأرباب الصنائع فإن الإنجليز لا يستعملونهم إلا في ذمة الصناعة ، ولا يوظفونهم إلا في سافل الرتب ، ولكون الحكومة الإنجليزية لا تقدر أن تسوى الهنود بالعدل لعدم قدرتها عليه ، قد ضيقت عليهم أشد الضيق حتى إنها جعلت في كل حارة قره قولا وعلقت في كل قره قول سكيناً في سلسلة فن برد أن يذبح فرخة أو يقطع لحماً أو يقرم بصلاً أو نحو ذلك يأتي إلى القره قول ، فيذبح أو يقطع أو يقرم هناك ، ولا يمكن أن أحداً منهم يكون له سكين مهما كانت ، ولا يخرج أحدهم من الهند أو يدخل منها إلا بأكبر المضايقات .

هذا حال الهنود من الإنجليز الذي التهب أكبادهم بنار الشره قصد الاستيلاء على مصر — لا بلضيم الله ذلك .

فإن جبننا وتفرقت كلمتنا في المدافعة عن وطننا وعرضنا ، قالت من هذه الأمة الباغية مناها — أحرقتنا الله بحسرة الخيبة في مقاصدها .

فيأبها الإنجليز — ما تريدون منا؟ زعمتم إن مرادكم إصلاح حالنا ، وأتم أسوأ الناس حالاً . هذه الأمة الأارلندية تنديها الإنسانية ، وتبكيها الرحمة ، ويتلف عليها العدل ، ويتحسر عليها الإنصاف ، قد روت الأرض بعرق جبينها ، وقلحتها بقوة يديها ففتحت أبواب النصب عليها ولم تكتسب لاسوء معاملتكم ، وعظيم تكبركم ؛ وبأس تجبركم ، وقد فاضت نفوسهم من عسفكم ، فقاموا لطلب الحرية التي بذلتهم جهديكم في رياء السير فيها للأرقاء ، فركتم خروقتكم مفتوحة وأنتم لإينا مدعين السلم ، ومنادين الأمن وأتمم أحراب من الحرب ، وأخين (١) من الخيانة . وقد هددمونا وزعمتم أننا نهددكم .

(١) الصواب أخون ، لأن الفعل خان يخون .

لا تطمعوا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا
الله يعلم أنا لا نجبكم ولا نلومكم ألا تحبونا

أطبقتوا فم الشره عن مصرنا . فإنها باب الحرمين اللذين يبيع كل مسلم
روحه في المدافعة عنهما ، سبياً وأن مصر تابعة لدولة لها ذكر عال بين الدول
المعظمة . فلا يمكن أن تدعكم وشأنكم هذا . وأيضاً كل مسلم لا يترك لكم الميدان
فسيحاً تجولون فيه كيف شئتم ، وهذه الأمة المصرية قد خنتموها ، وأطلقتكم كل
خيانتكم على طوايبها ، ومدت يديكم على غرة منهم حيث سودتم وجه التمدن بالفسخ ،
فقتلتم إنا قوم مسالمون . وكان في ظنكم أنكم تسوقون المصريين بمدافعكم وتهدمون
الإسكندرية وطوايبها في مسافة أقل من الساعة . فها هي كللكم قد استمر
إطلاقها فوق العشر ساعات . ومع ذلك فقد نزل على رؤوس مراكبكم القضاء ،
وما استطعتم ولن تستطيعوا أن تبرزوا أمام المصريين في البر . فما أتم إلا مثل
السماك إن قدرتم على خيانة الإنسان في الماء تهشون لحمه ، فلا تطول حياتكم
في محاربة البر .

ومع ذلك فإن لكم منا أحوانا اتخذوكم أولياء ، وإنا ولينا الله ، فنعم المولى
ونعم النصير . وحاشا لله أن يكون أحوانكم منا ، وإنما هم أناس ضل سعيهم في
الحياة الدنيا ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنماً ، قاتلهم الله أنى يؤفكون .

هذا نموذج من كلام صحف الثورة العراقية خارج ميدان الحرب . فانظر
إلى قوة هذا النموذج في أوله كيف صاغه الكاتب صياغة حسنة من حيث الموسيقى
ومن حيث المعنى في وقت معاً ، فقد بدأ بقوله :

إلى متى توقفنا الحوادث ونحن رقاد؟ وحتام تدهمنا المصائب ونحن قعود؟
وكيف يتنادينا العرض لنحميه؟ فيجد أذاننا صماء؟ أم كيف يشير إلينا الوطن
لنحفظه من غوائل الطمع ، فيرى عيننا عمياء؟ . . الخ .

وهكذا مضى المحرر في مثل هذه العبارات المثيرة يحرك فيها مكان الحمية
من قلوب المصريين ، ويحمس فيها الحمم لقتال الإنجليز . ثم لم يقف صليمة

عند هذا الحد حتى أخذ يزرع في قلوب المصريين هذه الكراهية المرة والبغض الشديد للإنجليز ، ويفضح نواياهم الاستعمارية ، ويكشف عن أطماعهم السياسية ، ثم انظر كيف سلك المحرر سبيله إلى تخويف المصريين من حكم الإنجليز ، وكيف ضرب لهم مثلاً واضحاً بالهند ، وكيف صور هذه البلاد بصورة المعتوه لا يملك تصرفاً في ماله ولا في نفسه ، وإنما يتصرف فيهما غيره وهم الإنجليز .

ثم ضرب لهم مثلاً بالأمة الإيرلندية وكيف خدعهم الإنجليز عن أنفسهم وكيف حرّموا هذا الشعب من حريته ، وتظاهروا بالدفاع عن هذه الحرية .

وأخيراً يبلغ محرر المفيد غايته في إثارة بغض المصريين للإنجليز بقوله مثلاً بهذا الشعر :

لا تطعموا أن تهينونا ونكرمكم وأن نكف الأذى عنكم وتؤذونا
الله يعلم أنا لا نجسكم ولا نلومكم ألا تحبوننا

الفصل العاشر

جريدة الأستاذ



عفا الخديوي عباس حلمي الثاني عن السيد عبد الله النديم . فعاد إلى مصر وآلى على نفسه الدفاع عن الخديو الذي من عليه ، ونفذ إلى الميدان السياسي من هذه الثغرة ، وصال في هذا الميدان وجال ، مدافعاً عن الحركة الوطنية حيناً ، ومهاجماً الاحتلال الإنجليزي حيناً آخر . وكان غرضاً من أغراض هذه الصحيفة . ومن أجله كانت (جريدة الأستاذ) معرضاً كبيراً للأشعار التي مدح بها عباس الثاني ووزيره رياض ، فلم تكن تمر فرصة عيد جلوس أو عيد ميلاد أو عيد أضحى الخ إلا وجريدة الأستاذ تنشر القصائد الطويلة . في مدح أمير البلاد والثناء عليه والدعاء له .

الخديوي عباس حلمي الثاني

على أن هذا الغرض السياسي لم يكن أول أغراض (الأستاذ) بل كان غرضاً ثانوياً بالقياس إلى أهداف الجريدة الأساسية .

وهذه الأهداف هي : -

أولاً - الإصلاح الاجتماعي .

ثانياً - إصلاح التربية والتعليم .

ثالثاً - الدفاع عن الشرق ضد أوامم الغرب .

رابعاً - الحملة على المبشرين المسيحيين .

ولا ننسى أن نقول إن النديم آثم في مجلة الأستاذ ما بدأه في مجلة التنكييت والتبكييت من العناية بأمر اللغة العربية باعتبار أنها اللغة القومية ، فدعا إلى احترام هذه المادة في مناهج الدراسة ، بل دعا إلى المساواة بين مدرس اللغة العربية ومدرسي المواد الأخرى .

ونشر في مجلة الأستاذ ، مقالا لبعض المدرسين كتبه بعنوان (المساواة بين البنين)^(١) وجه فيه الحديث إلى نظارة المعارف وشبهها بالأب الكبير لجميع المعلمين وهذه الأبوة تفرض عليها المساواة بين الأبناء . وإلا فقد بذرت في قلوبهم بذور الحقد والشقاق ، قال الكاتب د فإن قال هأنا الذي قام بحقوق البنوة وقد رما حق قدرها ، فما على " إلا أن أقدم له (نجله العربي) يئن بصوت حزين متمثلا بقول القائل :

وإذا تكون كريمة أدهى لها وإذا يحاس الحيس يدعى جنذب

. . . . يا أيت - أنا يوسف وأنت يعقوب - فلا نكثرت بالمفسدين ، ولا يهولتك زخرفة المبطلين ، فإنهم أعداء لك ولأبنائك ، ويريدون أن يزرع الشيطان بينك وبينهم ، فتلاف بعزمك مكرم ، ورد عليهم كيدهم في نحرهم لتكون أنت وأبناؤك بمن وصلت سهامهم إلى أغراضهم قبلوا غاية آمالهم .

فعلق النديم على هذا المقال بقوله :

(الأستاذ) يا يوسف أنت في غيابة الجب ، وقد تسلى عنك يعقوب يهودا وشمعون وروبييل وبقية الأخوة الذين يزدون ويروحون أمامه ، فانتظر بعض السيارة بليتقطك ، لملك تنال العيش في صورة العبودية ، حتى ينتهي دور الاسترقاق ، ويعطف عليك الأمير العزيز لما يراه فيك من الأهلية إذ ذاك تقول : اجعلني على خزائن الأرض إنني حفيظ أمين !!

وعاد النديم يدافع عن اللغة العربية في مقال له كبير بجريدة الأستاذ بعنوان

(١) مجلة الأستاذ العدد الخامس والعمرون بتاريخ ٧ فبراير سنة ١٨٩٣ .

(مجتمع اللغة العربية بمصر) (١) ذهب فيه إلى أن العربية تنسج لكل معنى وتؤدي كل غرض ، وناقش الكلمات التي أقر المجمع استعمالها ، فوافق على بعضها ولم يوافق على الآخر .

وما دمنا نتحدث عن إنصاف اللغة العربية ومدرس اللغة العربية ، فلنصف بإجمال جهود النديم في إصلاح التربية والتعليم ، من ذلك أنه فسح صدر جريدته لبحوث القائلين بشئون التعليم من أمثال علي باشا مبارك ، فحركة يتحدث عن التعليم في بروسيا وبقية الدول الأوروبية وتعرض صورة دقيقة من التربية في تلك البلاد وإحصاء أدق عن عدد المدارس والتلاميذ والكتب والحصص المناهج وما إلى ذلك كله .

وكتب النديم بنفسه بحثاً أخرى في التعليم بالأزهر والتعليم بمدارس الحكومة ، وكانت هذه البحوث أشبه بلوائح تعليمية كذلك التي وضعها الأستاذ الإمام محمد عبده .

وفي مقالة عن الأزهر بعنوان (العلماء والتعليم) (٢) وهي مقالة طويلة ملأت أكثر من ست عشرة صحيفة من صفحات مجلة الأستاذ وصف النديم طريقة التعليم بالأزهر وصفاً يمتاز بالدقة ومطابقة الواقع ، وقدم في إصلاح الأزهر أربعة وعشرين اقتراحاً قيمياً ، عمل بها ولاية الأمر ولم يزالوا يعملون بها إلى اليوم .

أما التعليم بالمدارس الحكومية والمدارس التابعة للجمعيات ، فكتب عنه النديم بعض مقالات كان يعمم القول فيها حيناً ويخصصه حيناً ، ومن المقالات التي عمم فيها واحدة له بعنوان :

رؤية الأبناء :

عرض فيها السكاكب لطرائق التعليم عند الأوربيين ، فإنهم الآن محل الاختراع ومرجع الترتيب ، فالحسن ما حسنوه والقيح ما قبحوه ، والرواية إن لم تلتد لهم

(١) الأستاذ بتاريخ ٧ مارس سنة ١٨٩٣ .

(٢) مجلة الأستاذ العدد ٢٦ بتاريخ ١٤ فبراير سنة ١٨٩٣ .

فهى باطلة ، والنسبة إذا لم تتصل بهم فهى عاطلة . وهذا الذى لزمنا العدول عن البحث فى طرق تعليم الشرقيين إلى النظر فى طرقهم (١) .

وأبان النديم فى هذه المقالة كيف يحافظ التلاميذ على دينهم ولغتهم وتقاليدهم ، وكيف يمجدون عظامهم ، ويقدمون ملوكهم ، ويحفظون تاريخهم ، وهذه التربية هى التى رفعت ممالك أوروبا إلى أوج السعادة والرفعة ، وامتدت بأعما إلى سنام الملك .

وعجب النديم فى هذه المقالة كيف أن العلماء فى الشرق بعيدون كل البعد عن الاشتغال بالسياسة ، وكيف أنهم قصروا أنفسهم على العلوم الدينية ، فإذا عرض عليهم أمر سياسى أحجموا عن الخوض فيه لجهل طرقه ، وإن تسكلموا فيه بالجرأة كان الخطأ أكثر من الصواب لعدم اشتغالهم بمثله ، ولهذا أهملهم الأبرار فى المجالس السياسية ، وأخذوا بأراء من هم دونهم فى الرتبة العلمية .

كما دعا النديم فى مقاله هذا إلى الإكثار من الجمعيات على نحو ما يفعل القوم فى أوروبا فإذا على أغنياء الشرق لو عقدوا الجمعيات الخيرية تحت حماية دولتهم ، وقتحوا بها المدارس الوطنية ، وعلموا فيها هذه المبادئ . تقليداً لأوروبا ، وساعدتهم الحكومة بحفظ مشروعهم من السقوط الخ .

على أنه من أجل التربية والتعليم كان النديم يبدل جهداً من نوع آخر وهو التمثيل — من ذلك أنه ألف رواية باسم (الوطن) الغرض منها الحث على التعاون على إنشاء المدارس العلمية والصناعية .

والخلاصة أن عناية النديم بشئون التربية والتعليم ، وتحمسه لهذه الأمور لا يقاس به إلا تحمس أديب إسحق للإصلاح النيابى فى مصر ، ولا فرق بينهما فى ذلك سوى أن أديب إسحق كان أكثر مرارة ، وأدنى إلى السخرية واللذع فى حين أن النديم كان فى مقالاته الجدية لا يصطنع السخرية ولا يميل إلى العنف .

* * *

أما الإصلاح الاجتماعي فقد كان الفرض الأول من أغراض النديم في مجلة الأستاذ . ولذلك كتب فيه كثيراً بحيث لا يكاد عدد من أعداد هذه المجلة يخلو من بحث اجتماعي أو قد خلق . أو قصة لها هذا المغزى ، أو حوار له هذه الغاية .

فمرة يكتب مقالا في محاربة الخرافات ، وأخرى يكتب مقالا في انتقاد بعض العادات ، وفي ثالثة يبحث في موضوع الطرق الصوفية التي تهافت عليها المصريون ، وكانت جزءاً من حياتهم لا تستقيم الحياة نفسها بدونه .

والقارىء بجميع هذه المقالات يقع في روعه أن المصريين كانوا في تدهور خلقى في القرن الماضى ، وأنهم كانوا إلى جانب ذلك مصابين بالجهل الذى حال بينهم وبين فهم الطرق الصوفية على الوجه الصحيح ، فاضطر السيد عبد الله النديم إلى كتابة البحوث الإضافية في هذا الموضوع الأخير ولم يسلك في ذلك طريق السخرية والتهكم كما كان يفعل أديب إسحق ، أو كما كان يفعل الأستاذ الإمام في بعض الأوقات (١) .

قال محرو الأستاذ :

« وليس القصد إبطال الطرق نفسها فإنها من أحسن طرق التعليم الدينى ، والتربية الأدبية ، فإن الشيخ عندما يلقن المريء لا إله إلا الله محمد رسول الله يشرح له معناه ، فيبين له صفات الله تعالى ، وما يجب له وما يستحيل عليه . وكذلك تجمعهم في الموالد ، فإنه مظهر دينى لم يتفق لغير المسلمين .

وفي مقال آخر بعنوان (الطرق وإصلاحها) استعرض النديم أقوال أصحاب الطرق أنفسهم ليعين للناس أنهم يبيدون عن الخرافات التي رهوم بها . فأورد كلمة (سيدى أحمد الرفاعى) حيث قال : طريقتنا الكتاب والسنة ، وكلمة (أبى بكر الشبلى) حيث قال : المحبة اتباع أوامر المحبوب واجتناب نواهيه . وكلمة (أبى القاسم السنوسى) : هذا طريق مبنى على الغيرة لله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، وكلمة (عمرو الزجاجى النيسابورى) من انحرف عن جادة الظاهر فلا باطن له ، وكلمة (جعفر الخواص البغدادي) من أخلص لله في المعاملة وطرح حب

(١) اقرأ العدد ٣٤ من السنة الأولى بتاريخ ١١ أبريل سنة ١٨٩٣

الجاه والرفعة والتعالى . . حفظ الله تعالى لسانه من الشطحات وأراحه من الدعاوى الكاذبة . وهكذا حتى وصل إلى سادة الطرق في عصره ومنهم (الشيخ الجربي) والسيد البكري ثم قال .

« وليكن في علم إخواننا المسلمين أن صاحب الساحة السيد البكري مستعد لإبطال هذه النحل والبدع . . والأستاذ الفاضل الجربي مستعد كذلك لقبول كل مكاتبة ترد إلى ما يقوله الناس وينسبونه إليه ليظهر البراءة منهم ، .

وهكذا ملاً هذا البحث خمس عشر صفحة من مجلة (الأستاذ) قد لنا بذلك هلى أن أهل مصر في ذلك العصر كانوا بحاجة إلى مثل هذه البحوث المستفيضة لأنهم انحرفوا عن الطريق المستقيم ، ولم يبتدوا فيها إلى الفهم الصحيح . أما أحاديث النديم في نقد العادات الضارة والأخلاق المعوجة فهي من نوع أحاديثه القديمة في مجلة التنكيك والتبكيك تقريباً ، فلا داعى للإتيان بنموذج منها .

* * *

وكان من أهداف جريدة الأستاذ كما قلنا الحملة الشديدة على المبشرين المسيحيين وقد انبثوا في أوروبا وفي الشرق ، واتهموا المسلمين بطائفة من التهم العريضة التي لا أساس لها . والنديم قطعة من العصر الذي عاش فيه وقد كان هذا العصر شديد الحس من ناحية الدين إلى درجة كبيرة . ولهذا وجدنا النديم يتصدى لهؤلاء المبشرين ويصليهم ناراً حامية من ضرباته ويزهق نفوسهم بمحملاته وهجماته ويكلف نفسه قراءة كتبهم حتى يتمكن من الرد على ما جاء بها من النزوات والأكاذيب ، والعجيب أنه سلك في كل ذلك طريق الإقناع والهدوء الذي لم يكن يفارقه إلا في أحوال قليلة ونادرة .

ومن أبلغ ما كتب النديم في هذا المعنى مقالته التي نشرها بمجلة الأستاذ تحت عنوان :

هَذَا عُنْدَكُمْ فَمَا مَقَابِرُ عُنْدَنَا

بدأ بقوله :

كثيراً ما ترمينا جرائد إنجلترا بالتعصب الدينى تشويشاً لأذهان أهلها ، وترويجاً لأفكار سياسيتها التي تبغها المطامع . ولو تأملنا حال المسلمين وقابلنا بين

سكوتهم وعدم تعرضهم لدين غيرهم وبين سعى غيرهم في تنصيرهم ؛ لرأينا أمرًا يذهل العقل كما يحير الأفكار بهذه الدعوى الباطلة فإننا لم نسمع أن مسلماً دخل أوروبا لدعوة أهلها للإسلام ، ولأن جمعية عقد لنشر دين الإسلام بين النصارى ، ولأن ناساً اجتمعوا للمذاكرة في كيفية إخراج النصارى من دينهم ، ولكننا نرى ونسمع هذا كله من أوروبا . ومع ذلك يقول عنا ذوو المطامع الملكية إننا متعصبون تعصباً دينياً ، . . الخ .

ثم أتى المحرر بتقرير جمعية التوراه الإنجيلية الإنجليزية عن سنة ١٨٩٣ وفيه أن هذه الجمعية التي أسست سنة ١٩٠٤ بقصد نشر كلمة الله في الدنيا كلها . وقد صرفت إلى الآن أحد عشر مليوناً من الجنيهات في الترجمة وطبع الكتب ، المقدسة . . . الخ .

ثم قال النديم . فقبل هذا عمل المتساهلين مع غيرهم ، البعيدين عن التعرض لدين الغير ؟ أما هذا عمل المجدين في تميم دينهم ومحو غيره ؟ وهل هؤلاء مع هذا الاجتهاد الغريب غير متعصبين ، والمسلمون مع بعدهم عن هذا كله ، وعدم وجود جمعيات لنشر دينهم كهذه يقال إنهم متعصبون ، سبحانه هذا بهتان عظيم .

ثم أتى المحرر على فصل من كتاب مبشر يدعى (يوحنا هورى الألماني) سماه (الإسلام وتأثيره في تابعيه) ، وهو إجابة عن هذا السؤال .

ما تأثير الدين الإسلامى في تابعيه . وما واجبات الأمم النصرانية نحو هذا الدين وتابعيه .

وللاجابة عن هذا السؤال قال المبشر ما ترجمته :

حيث أن الدين الإسلامى دين صحيح وأنه لا تأثير له في حياة تابعيه الدينية ولا على تقدمهم في العلوم ، ويستحيل إصلاحه ، فحينئذ يلزمنا أن نضع الدين النصرانى محله .

ورد النديم من جانبه على ذلك ، وبني رده على أخبار التاريخ وعلى رغبة فلان وفلان من كبار المسيحيين في الإسلام ، والشهادة له بأنه الدين القيم .

كما رد المحرر في هذا المقال على دعوى المبشرين بأن المسلمين لا يصلحون ،

ما داموا تحت حكم ملوكهم وسلاطينهم ، وأنهم لا يتقدمون ماداموا لا يتعصبون
لديهم ضد مواطنيهم من الأقباط والنصارى ، كما يتعصب المسيحيون في أوروبا ،
إلى أن قال : فمن قرأ هذا الفصل ، وعلم سعى الجمعيات في نشر دينها ، واجتهادها
في تنصير المسلمين خصوصاً ، والعالم عموماً ، رأى الفرق بين لطف الشرقيين ،
وخشونة قسوس الغربيين ، ولو كتب مسلم مثل هذا لقامت على المسلمين قيامة
أوروبا ، وقالوا هذا دعاء للحرب الدينية ، وتعرض للدين المسيحي ، وسحبوا
قناصلهم ونادوا بين أتباعهم المقيمين في الشرق بالرحيل . بدعوى فقد الأمن
العام ، وتوحش المسلمين ، فنحن نسأل من ملأوا أعمدة (التيمس) وغيرها عن
نسبة التعصب إلى المصريين خصوصاً ، والمسلمين عموماً ، هل رأوا المسلمين
اجتمعوا لتغيير دين النصارى ليكونوا معهم ؟ أو تعرضوا لمسيحي بالمجادلة
والمناظرة ؟ أو طعنوا في دين غيرهم وقالوا إن دين النصارى أو دين غيرهم غير
صحيح ، فزعم أن يحمى كما قال يوحنا ؟ . نأله إنهم لا يجدون لهذا السؤال جواباً
سوى قولهم : إننا مفترون عليكم . انهبج أفكار أوروبا ضدكم ، فيحل لنا ما يحرمه
الهدوء والسكون . . . إن كل مسلم ممنوع من التعصب بقول الله تعالى : لا إكراه
في الدين ، وإذا قابل المخالفين له هش وبش وقال : « لكم دينكم ولي دين » فإن
عارضه متعصب أجنبي ذكر له أعمال الجمعيات البروتستانتية وغيرها ، وقال له :
هذا عندكم فما مقابله عندنا ، وملا هذا المقال أكثر من خمس عشرة صفحة ، من
مجلة الأستاذ .

هكذا كان النديم ليناً في محاربة المبشرين المسيحيين ، بحيث لم يؤذ نفوس
الأقباط المصريين ، بل أنه كان من دعاة الوحدة والارتباط بين المسلمين والأقباط
إلى درجة أنه اقترح أن تعقد جمعية مصرية موضوعها البحث في الوطن وخصائمه
وواجباته ومقومات حياته ، وذلك في مقال جميل بعنوان : (المسلمون
والأقباط (١)) .

ولم يسبقه أحد إلى هذه الفكرة الوطنية البحتة .

الفصل الحادى عشر

قضية الشرق والغرب فى صحيفه الأستاذ

بقى أن نتحدث عن غرض آخر من أغراض مجلة الأستاذ ، وهو الدفاع عن الشرق ضد أوهام الغرب واستنهاض الشرق نفسه ليستيقظ من نومه ويلحق بالغرب الذى سبقه أشواطاً بعيدة فى الحضارة والتقدم . وهنا نجد أن النديم يهود أسلوبه ، وتشيع فيه الحماسة ، ويدت فيه الحركة ، ويشعر القارىء بأنه مصارع قوى إنما كذف بنفسه فى ميدان كله أبطال أقوياء ، وصمم فى نفسه مع ذلك أن يخرج منصوراً من المعركة .

إلى هنا نجد المحرر يلبس ثوب الخطيب . ويتدفق فى كلامه تدفقاً يناسب الخطابة أكثر مما يناسب الصحافة . وإن كانت الصحافة ذاتها تؤثر الأسلوب الخطابى فى أكثر الأحيان .

على أن النديم لم تذهب به حماسه بعيداً عن هذا المضمار . لأنه إنما يكتب فى مجلة الأستاذ ، وهذه المجلة الأخيرة إنما تشهد كهولة النديم ، كما تشهد هدوؤه عقب حوادث الثورة العرابية . وعقب اختفائه نحو عشر سنوات ، وعقب استقرار الأمور فى مصر استقراراً نسبياً على كل حال ، لذلك نراه ينجح فى هذه المقالات الجانحة إلى السلم ، ويدعو إلى المحبة والوثام قزاه يقول فى مقال له بعنوان :

مهرب الأفراسم بجيوش الأوهام (١)

فلو ترك الشرقيون والأوربيون لتمتع الفريقان بشمرة المخالطة ، وتمسكت منهما دواعى المحبة ، وتأكدت روابط الألفة بالاشتراك فى المعاملة والمساكنة . وما أوغر الصدور وأفسد النيات إلا هؤلاء السكتاب الذين قبحوا الشرق

والغرب وافتروا عليه الأكاذيب . وملتوا با جرائمهم وكتبهم ، ونشروها بين العالمين الشرقي والغربي ، فظن الغربي أن الشرقي بهم لا يصلح للملك ، ولا يليق إلا للاستعباد والقهر ، ظن الشرقي أن الغربي أعدوه الألد الساعى فى سب سلطته ، ونهب ثروته ، وإعدام دينه واستعباد إخوانه ، فوَقعت النفرة بهذه المقتريات وختم المقال بقوله :

فحذر إخواننا الشرقيين من مقارنة المضلين ومخاطبتهم . وتطلب منهم أن يقرأوا عواقب ما هم فيه من الشدة ، وينظروا إلى المستقبل بين البصراء الذين لا تزعمهم العواصف ؛ ولا تستميلهم الأباطيل ، وأن يجعلوا معاملة الأجنبي بالمعروف ومخاطبته بالمثل نصب أعينهم ، مع التزام الهدوء ، والسكون ، وعدم الميل إلى الأوهام وما ينصبه الأعداء من إشراك الهيجان والاضطراب . فإنهم إن لزموا هذه الحالة قاموا كل تهديد ووعيد ، وأظهروا لأوربا أنهم بقصدهم وحسن تصرفهم فى الأمور قد قاموا بقوة مدنيّتهم (حرب الأقاليم بجيوش الأوهام) .

وليان لنا القارىء أن نقل له نموذجاً كاملاً من مقالات التديم فى هذا الغرض الأخير من أغراضه فى مجلة الأستاذ ، وليكن مقالاً له بعنوان :

لو كنتم مثلنا لفعلمتم فعلنا

هى كلمة أوروبا التى ترددها على ألسان الشرقيين كما فعلت فعلاً يحملها عليه الاستعمار الملكى ، أو الانتشار الدينى ، وقد أحكمت التأليف بين القوتين الدينية والملكية ، فجعلت الأولى سفير وداد والثانية فارس جلاذ وقد أضاف كل ملك أوربى إلى عنوان الملك حماية الدين ، فيقول فى مخاطباته ملك أو إمبراطور كذا وحامى الدين المسيحى ، أو عبارة أشد وقعاً فى النفوس من هذه . لعلم الأمم أنه القابض على زمامى السياسة والدين ، فيؤيد رجال السياسة بتنفيذ ما يروونه من لوازم تأييد الملك وأتباعه ، ويساعد رجال الدين بما يبعث فيهم الغيرة على بثه والدعوة إليه ، فنرى رجال القوى ماشين على نسق واحد ، كل فيما فوض إليه ، لا تفتر لهم همة ، ولا ترقد لهم عين عن وظائفهم التى فيها حياة الدين والملك وزيادة شرف الأمم . والأمم لسكونهم أدركوا ما قصده الملوك ورجال السياسة وخدمته (م ١٢ - أدب المقالة ٢)

الدين اندفعوا معهم اندفاع السيل في المنحدرات ، فعمدوا الجمعيات الدينية والعلمية والصناعية والتجارية والزراعية والسياسية وأخذ كل فريق في إحسان ما كلف به نفسه وأوجه عليه مجاراة جاره في الملك ، ومباراة نظيره في العلم أو العمل ، ومسابقة غيره من قصدوا قصده ، فاشتغلوا بما اشتغل به . وقد بلغوا القصد في بلادهم ، وخرجوا من بلادهم محمولين على قوتى الدين والملك ، سائرين على نور العلم والصناعة ، فدخلوا الأقطار الشرقية سائحين ومتجرين واستوطنوها مراقبين ومتنقلين ، وجر اندم الكثرة العدد برزت تتسابق في ميادين الإنشاء بمواضيع مبتكرة ومقالات مطولة وعبارات مزينة ، فأصبحت ناقلة للأخبار ناشرة للأدب معلمة للعلوم مؤيدة للمبادئ سائمة على المقاصد منشطة للهمم مرشدة للأمم منبهة على الأغاليط محذرة من التقاعد والتكاسل والغفلة عن وثبة الجار أو معاكسة المتأخرين ناشرة للفضائل مؤرخة لرجال الفضل والعمل حافظة لسير الملوك داعية أفراد الأمم إلى ما فيه خير البلاد وتأييد الدين حادعة للشركيين لاعبة بأفكار رجالهم خاتمة لعظائم مقبحة لما هم عليه من دين وسير ومعيشة وانتهاء وصناعة وتجارة وزراعة منادية بينهم بأن الغرب محل التشريع ومنبع العلم ومرجع الفضائل لا حياة للأمم إلا بما تأخذه عنه ولا مجد لمن لم يتم إليه ، ولا فضل لمن لم يتعلم فيه ، ولا شرف لمن لم يتكلم بلسانه ويتعبد بعبادته ويتقيد بعبادته هذه كليات تحتاج لبيان جزئياتها التي لا تحتاج لبرهان بعد ظهورها للعيان .

قالت أوروبا إنكم متوحشون لكونكم لا تحسنون صنع الأثاث والبساح وأنكم في حاجة إلى مصنوعنا ولا تصلون إليه إلا بمقد المعاهدات التجارية وبذا تمكنت من إدخال مصنوعها في الشرق ، لتحول الثروة إليها فأمات ما كان يصنعه الشرقيون ، وحجرت على ما لا بد منه من صناعة الشرق الهندية وغيرها ، فما يصنع في الهند والصين والمعجم والأناضول وغيره إنما ينفق ويباع على يد الأوروبي كما يباع وينفق مصنوع بلاده ، فالشرقيون أجراء يزرعون ويحصدون ويصنعون ليروجوا تجارة أوروبا ، ويعظموا ثروتها ويؤيدوا قوتها الملكية بالإيرادات المالية فلا حظ لهم في الوجود ولا رغبة لهم في الملك . كأنهم أمام أوروبا جنس خلق لخدمتها لبقاعدهم عن مجاراة أهلها وما زادهم بعداً عن الصناعة وثمراتها وجود دخلاء أجراء يزعمون أنهم نصحاء يثبطون الهمم ويرمونهم بالاضغف ، ويوهمونهم بعدم صلاح

بلادهم للصناعة ويغرونهم بتعذر ذلك لتعذر المعدات والآلات وهم يعلمون أن كثيراً من الممالك التي لا آلات فيها استعانت بالآلات اشترتها من الغير وأحيث صناعتها الوطنية وحثمت على أهلها شراءها لرواج صانعيها ومنعت دخول مصنوع الغير حفظاً لثروة أهلها فهم بصرفهم الهمم بهذه الترهات يريدون بقاء الشرق في قبضة الغربي احتياجاً إليه وترك الشرق ميداناً لمسابقة رجال أوروبا فلا يجدون مصنوعاً يعطل عليهم ولا معرضاً عن صناعتهم فنبور . وضعفاء العقول يفترون بخداع هذا الدخيل ، ويظنون أنه من المخلصين ، فلا يتحركون لعمل من الأعمال لوقوعهم في اليأس والقنوط بالمفتريات ، ورجال أوروبا تتعجب من تقاعدهم ويقول لو كنتم مثلنا لفلتم فعلنا .

قالت أوروبا إن وقوفكم عند عاداتكم الشرقية وتخليصكم بأخلاق آبائكم بقاء على الهمجية والتوحش فلا بد من مجاراتنا في حركاتنا المدنية لتساونا في الرتبة وقنعت لنا البير والخجارات والمقامر وأباحث الزنا والربا ووسعت دائرة اللهو والخسران ففعل الشرقيون عما وراء ذلك ضياع الدين والملك والمجد والشرف وانكسب الأعياء والمغفلون على الخنور فساءت أخلاقهم وضعفت عقولهم وفسدت عقائدهم وتحوّلوا إلى المومسات ، فارتكبوا الإثم بارتكاب المحرم ، والعار باتخاذهم الوطنية آلة للفحش . وجعلهم عرضة للأجنبي بعدم غيرتهم عليها ، فهم في رتبة القواد بل هم هم ، ومال فريق إلى القمار ، فباع الغيط والدار ، واضطر لبيع حلى زوجته برضاها أو بسرقة منها والسكل عطف على المرايين يقترض ويصرف في الملاهي ومتلفات العقل والجسم والملك حتى أسكن الأوربي مكانه وصار له خادماً بعد أن كان عظيماً محترماً ، وكما تهالك الشرقيون على الخنور والملاهي واصلت أوروبا وسائل الخمر ، وارتحل لإيهم المومسات وأرباب الملاهي ، تحوّلوا لثروة وإزهاقاً لروح الدين حتى أصبح المتلبسون بهذه القبايع والفضائح لاشرقين ولا غربيين ، واتخذتهم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من الشرق ، وهي تحثهم على المثابرة على عملهم باسم المدنية وما هي إلا التوحش والرجوع إلى الحيوانية المحضة ، إذ لو كان الانغماس في الملاهي وفسادات العقل والدين من المدنية لما تجاشته أوروبا وعدت مرتكبه همجياً جاهلاً ومجنوناً ولما وضعت القوانين الشديدة

للمسكرات ومنع التلامذة منها ولما كتبت الر - ثل العديدة في ذم الخمر والفسوق
وحرمان ضعفاء العقيدة والمتقاعدين على العبادة وحضور الكنائس وإنما هذه
أشراك وخواخ تنصب في طريق الشرق حتى لا يخطئ خطوة إلا وقد وقع في حباله
أوربا ولما رأت أوربا أن الشرقيين لا يذنبون من غفلتهم ولا يعقلون مقاصد
الدول ، ولا يدركون مكايد الملوك ، ولا يسعون في صالح بلادهم ، ولا يحافظون
على دينهم ، ولا يعرفون شرف لغاتهم ، ولا يحفظون كراسى ملوكهم ، ولا يهتمون
بضياح أوطانهم اتخذتهم كرة تلعب بهم كيف تشاء . وهي تقول لهم لو كنتم مثلنا
لفعلتم فعلنا .

قالت أوربا أن الشرق في حاجة لتداخل أوربا لإصلاح إدارته وماليته
وتجارته وتهذيب أممه بالتعاليم الأوروبية وأجمع رجال أوربا على جعله نسبا مقابلا
لها وربطوا عزمهم على ضمه لإيهم الجزء بعد الجزء . والقطعة بعد القطعة على اتفاق
معتود بين الدول ، هذا لي وهذا لك ، ثم تلووا في الدخول فيه تلوى الأسمى ،
وملكوا بعضه بالتجارة والبذل ، وبعضه بدعوى مسح دولة . أولهاته بواب
قنصل أو حفظا لطريق مملكة والداهية الداهايا أن ملوك الشرق وعظماء ملثوا
قلوب أمهم بأوهام ، وخوفهم من الأوربي ، وأرهبهم باسم اللورد والبارون
والكونت والمركيز والجنرال والأميرال والسير والمساجور ، حتى خيلوا لهم أن
الأوربي ملك يمكنه قلب المملكة ، أو حتى يقدر على حرقها ، فامتلثوا رعبا وخوفا ،
ولبسوا ثوب ذل وهوان ، وذلك بسبب المعاملة التي يعاملونهم بها في وقائهم مع
الأوربيين ، وقد اضطروا كثيراً من الوجاه والنباه الذين ينتفع بهم الوطن
والملك إلى الاحتما بالغير تفادياً من تلك المعاملة فسكانوا أقوى يد للأوربي في
تداخله واستيلائه على ممالكهم . فلو ربوا رجالهم على الحماة ومرنومهم على الأعمال ،
وبعثوا فيهم روح الحمية بالمحافظة على حقوقهم وترقيتهم بحسب استعدادهم وساعدومهم
على انتشار الصناعة والتجارة ، وهذبومهم بالأدبيات ، وصانومهم من المفسد
العقلية ، وعلومهم العقائد الدينية ، وعودومهم على الشعائر المليية ، ونهبومهم بمرائد
وطنية صادقة اللهجة صافية النية عارفة بما يقدمهم وينفعهم ، وأوقفومهم على

توارىخ آباتهم ، ومسابقات الدول في بلادهم ودساتر أوريا ، وخذروهم مزرجال الفتن والأجراء الذين يخدمون أوريا باسم المصلحة الشرقية ، لوجدوا أمامهم رجالا وأى رجال ، ولكنهم أهملوا مالكمهم وأهدروا حقوق رعاياهم فأصبح ملوك أوريا يفخرون عليهم ويميروهم بما صاروا إليه من الضعف والاضمحلال ويقولون لو كنتم مثلنا لفلتم فعلنا .

ولا لوم على الأوربيين في ذلك ، فإنهم إنما يسعون في مصالحهم واتساع مالكمهم وتجارتهم ، والشرقيون يرونهم يعملون للأعمال العظيمة في بلادهم ، وهم ينظرون إليهم نظر المغشى عليه من الموت ، ولا يتحركون لجاراتهم أو لإيقاف تيار تداخلهم ، ويرونهم يسلبون أعمال أمراتهم وولائهم عملا فعلا ، وهم ناكسو الروس ، ومنكشون في ثيابهم ، تسمع منهم أصواتا عالية في خلواتهم ، يظنها السامع أصوات أناس حريصين على المجد والشرف ، فإذا خرجوا إلى الطرقات ساقهم أضعف أوربي بعصاه . وهم بين يديه كأنهم قطعان الأغنام تساق إلى الحظائر . بمن قسيس الجزائر إذا شاركه التونسي والهندي والمصري والقبرصي والعدني والمسقطي والزيجباري والبرنوي والبنجاري والمروي والطاقستاني والتركاني والسرخسي وقابله المراكشي والأفغاني برعدة الخائف الوجمل ونظر إليه العجمي والعراقي والبنفي والحجازي والنجدي والسوري والطرابلسي والأناضولي نظر المتوجس الحذر الذي تبعثه الهمة ، وتقعده القلة كما شمو راحة السلم من دولة جباهم لإذار الحرب من أخرى سمياً خلف الدين ، لا طلباً لسعة الملك .

فانه لو كانت الدولة العثمانية مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر بين تلك الدول الكبيرة والصغيرة التي هي جزء منها في الحقيقة ، ولكن المغايرة الدينية ، وسعى أوروبا في ثلاثي الدين الإسلامي أوجب هذا التحامل الذي أخرج كثيراً من مالكم الدولة بالاستقلال أو الابتلاع . ولنا نرى كثيراً من المغفلين الذين حنكتمهم قوا بلهم باسم أوروبا يذمون الدولة العلية ، ويرمونها بالعجز وعدم التبصر ، وسوء الإدارة ، وقسوة الحكام ، ولو أنصفوها لقالوا أنها أعظم الدول ثباتاً وأحسنها تبصراً وأقواماً عزيزة ، فإنها في نقطة ينصب إليها تيار أوروبا العدواني ، لأنها دولة

واحدة إسلامية بين ثمانى عشرة دولة مسيحية غير دول أمريكا وتحت رعايتها جميع الطوائف والأجناس والأديان ، وكثير من اللغات ، والفن متواصلة من رجال أوروبا إلى من يماثلهم مذهباً أو يقرب منهم جنساً ، وكل دولة طامعة في قطعة تجمتها باسم المحافظة على حدودها ، أو وقاية دينها ، واتساع أراضيها ، وعدم وجود السكك الحديدية المسهلة للنقل والتحول وعدم وجود أنهر مستمرة الفيضان في غالب أراضيها ووجودها تحت رحمة الله تعالى إن شاء أمطرها فأخصبت ، أو منعها فأجذبت ، وهذه لو ابتليت بها أعظم دولة أوربية ما قاومت هذه الصواعق أكثر من عام أو عامين وتسقط أو تتلاشى ولكنها تلام على إعطاء السكك الحديدية التزاماً للأوربيين بواسطة أناس يزعمون أنهم من رعايتها ظاهرأ وهم فرنسيون أو إنكليز بإطنا فإن السكك الحديدية بالنسبة إلى المملكة كالشرايين بالنسبة إلى الجسم ، فهي من أعظم العلل التي ستؤخذها أوروبا وسيلة للتداخل باسم وقاية أملاك أتباعها ومن لنا بكف يد الوزراء عن مثل هذا التهاون ، ويكفى ما جرى وما ذهب منا سدى ، فإن ارتكنا على الشروط فقد ارتكنا على أو من من العنكبوت ، فإننا لم نقدر على تنفيذ عهدة برلين فيما يختص بنا وقد وقع عليها الدول ، فكيف ننفذ شروطاً بيننا وبين رجال جعلتهم الدول ذرائع للتداخل ، ووسائل لاسوء المقاصد . ولقد أذهمتنا أعمال أوروبا التي لم تسمح لشرقنا بامتلاك شبر في أرضها ، وهي تخرجنا من مساكننا ، وتقيم فيها بلا شروط معقودة ، ولا حجة مسجلة ، ولكنها معذورة ، فإنها لم تجد من يعارضها أو يجارها فهي لا تعترف أننا معها في ثوب الإنسانية بل تقول لو كنتم مثلنا لفعالتم فعلنا .

أن دولة من دول أوروبا لم تدخل بلداً شرقياً باسم الاستيلاء ، وإنما تدخل باسم الإصلاح وبت المدنية ، وتنادى أول دخولها أنها لا تتعرض للدين ولا للعوائد ، ثم تأخذ في تغيير الإثنين شيئاً فشيئاً ، فلا تقدم على العمل بل تفعل الشيء على قبل التجربة ، فإن نفذ فقد مضى ، وإن عورضت فيه التزم التأويل ، كما فعلت فرنسا في الجزائر وتونس ، حيث سنت لهم قانوناً فيه بعض مواد تخالف الشرع الإسلامى ، بل تنسخ مقابله من أحكامه ، ونشرته في البلاد ، واتخذت لتنفيذه

فضاء ترضاهم ، ولما لم تجد معارضا أخذت تحول كثيراً من مواده إلى مواد ينكرها الإسلام توسيعاً لنطاق النسخ الديني ، ولم يلبث أن جاريناها وأخذنا بقانون يشبهه إن لم يكن هو ، ولم ينتطح في إصلاح مواده المخالفة عزان ، ثم تداخلت في الأوقاف واستولت على غلتها ومنعت المستحقين ، وطردت كثيراً من خدمة المساجد اقتصاداً مالياً ، وتخفيفاً دينياً ، ثم رفضت ضباط العساكر الوطنيين الكبار واستبدلتهم برجالها خوفاً من ثورة يدفونها بها عن بلادهم ، أو يحمون بها دينهم ، ثم حجرت على المدارس تعليم بعض علوم شرعية ، وأزمتهم بتعليم لغتها ، والأخذ بالطبيعيات والرياضيات ، حتى لا يشم الأبناء رائحة الدين لئلا يعلوا أنهم يغيرونهم ديناً ، فيثورون عليهم ، أو يلتجئون إلى دولة أخرى ، وهذه عواقب الالتجاء إلى دول أوروبا والاعتزاز بعودها الخلية ، وشروطها المكتوبة بالماء على صفحة الهواء ، وهذه دولة روسيا دخلت مرو وهراة وبخارى باسم حمايتها من أعدائها ، وبعثت إليها بتجارها فنفذت ، ثم برجال يساكنون أهلها فضوا ، ثم بساكر في الحدود فأقاموا ، ثم بشروط تربطها بها فأمضيت ، ثم هي آخذة في تقدم لغتها هناك توصلاً لإعدام اللغات التي يموت بهوتها الدين وحمية الجنس والغيرة الوطنية ، وهذه إنكزرة دخلت مصر باستثناء أهلها ، وأخذهم بناصرها ، بعة تأييد المركز الحديوي الشريف ، ثم زيد على تلك العلة بت النظام ، ووضع حكومة ثابتة تشابه حكومات أوروبا ، وقد بذلت ما في وسعها في التحسين والتنظيم بما يترامى لها ، ولم تجد غير آذان سامعة وأيد عاملة ، ولكننا مع كثرة سماعنا وتعليمها لنا لم نقلدها في شيء مما دخلت لبثه فينا ، بل تركناها تفعل أفعالها ونحن نتفرج عليها ، كأننا في ساحة سجاوى يرينا من أعماله العجائب ، ونحن في حيرة من أعباه المدهشة ، ومن جهل أعمال إنكزرة في مصر ييناها له ليرى أنه حقيق بما يوجهه إليها من التسكر .

أولا : أطلقت حرية المطبوعات والأفكار ، قرأنا الجرائد الكشيرة تتكلم بما تريد وتتصرف في أفكارها كيف تشاء . هذه تقول أنا وطنية أناذى بأن

خير البلاد وصلاحها موقوف على جعل الأعمال بيد المصريين ، تحوطهم عناية الحضرة الخديوية ، تحت مراقبة بريطانيا العظمى ، حتى إذا رأتهم قاموا بحكومة ثابتة مؤيدة بالقانون الحق الناقد ، وقت وعدها وأجأت جندها ، وتركتم يتمتعون بحريتهم في بلادهم ، كما تتمتع البلغار والجبل الأسود والسرب وغيره مما هو أقل من مصر بكثير ، والأمة مرتاحة لها ، وهذا تقول مصلحة البلاد موقوفة على زيادة نفوذ الإنكليز ووضع الإدارات تحت أيديهم بمساعدة النزلاء حتى يتبأ المصريون لاستلام أعمالهم ؛ لا تبالى رضى عنها المصريون أو غضبوا منها . وهذه تقول إن فرنسا هي الدولة الوحيدة في المحافظة على مصر ، وحقوق السلطان فيها ، وتأييد الخديوى ، ولا يضرها إلا وجود الإنكليز فيها . وهذه مذنبذة لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء . وهذه علمية تهذب النفوس وهذه تورد لهم من مصادر الأديان ما يوقم في الشاك والتردد ، وهذه دينية وهذه حقوقية وهذه طيبة . ثم تركت المصريين يقدون ويروحون بين هذه المتناقضات وهم يتناظرون ويتجادلون ، لارقيب عليهم ولا جاسوس ، ولما رأت أن كثرة المؤثرات الفكرية لم تفهمهم على طلب حقوقهم وظهورهم أمامها بالتظاهرات الأدبية استدلالا على استعدادهم للقيام بأعمال بلادهم وتركوا الجرائد تخوض في المواضيع المضادة وتلبس بالأنسكار الجامدة ، ونحن في بحار اللهو غارقون .

ثانياً : أنها كفت يدها عن الأعمال عند دخولها مصر ، وسلت إلى المصريين ظاهراً لتقيم الأدلة لأوربا أنها ما دخلت إلا لتراقب المصريين ، ونشير عليهم بما فيه التوفيق بين مصالحهم ومصالح الدول ، ولما لم تجد أمامها من يجعل هذا الظاهر باطناً بخصر السلطة في الذات الخديوية الفخيمة . والإدارات في الوطنيين ، أخذت تقول وهم يفعلون حتى أصبحت تفعل وهم لا ينطقون ، وكانت تتق باسمهم المطاعن الأوربية ، حتى خلا الجو وأمنت الاعتراض فأخذوا يذمونها ويرمونها بخلف الوعد ونكث العهد وعدم الصدق وطول الباع في الخداع ، وهم غير محقين ، فإنها ما دخلت إلا لتعمل عملاً أمام أوربا ، فلما فوضوا إليها الأعمال استلمتها بهمة ونشاط ، ومثلها ومثلهم كمثل لص دخل دار قوم ، وقال

طم حملوني ما عندكم من أثاث وحلى وآنية ، فأخذوا يحملونه ما يريد من غير معارضة ، فهل إذا دخل عليه البوايس وأهل الدار يحملونه بأيديهم يقول هذا لص ؟ كلا بل يقول إنه صاحب الدار وهؤلاء خدمه ، أيرون أن الإنكليز هم الذين نشروا منشور المومسات ورخصوا للنساء أن يخرجن للبناء تحت حماية القانون . أم هم الذين سنوا كشف الأطباء على البغايا وإعطاء من شهادات بأنهن صالحات للزنا . فهتكوا حرمة القرآن والإنجيل والتوراة بتحليل ما حرمه الله تعالى في كل كتاب . أم هل قالوا للمصريين سننق ملايين في المقاولات والأعمال الهندسية من غير أن نسأل عما تفعل فيها . فإياكم والسؤال عن مبالغ ستكوتون عبيداً مكلفين بسدائها إلى روتشلد وغيره . أم هم الذين أعطوا الالتزامات الواجورية والأرضية ، ووسعوا نطاق المعاهدات إلى أن ضيقوا كل عمل مصرى ؟ أم هم الذين منعوا المصريين من زراعة الدخان والحشيش لتروج مزارع أوروبا بخراب بيوت هؤلاء الضعفاء ؟ أم هم الذين باعوا مهماتهم وآلاتهم بغير ثمن ، وربما أعطوا من أخذها شيئاً يستمين به على نقلها حتى تركوا البلاد محتاجة لمن يحرسها بالمصا أو بالنبوت ؟ أم هم الذين أبعدوا المصريين عن الخدمة . وحشروا الغرباء في المصالح حتى أصبح ألوف من المصريين لا يجدون القوت ولا يعرفون لاستخدامهم مرة ثانية سبيلاً ؟ أم هم الذين قللوا من تلامذة المصريين في مدارسهم وأكثروا من استخدام الأجانب فيها ، وتدرجوا لإماتة لغتهم الوطنية بفرض المكافآت لمن يذبح في الإنكليزية لنفسى لغة القرآن فينسى بها الدين الواقف عقبة أمام أوروبا ، كما يصرحون بذلك في مجالسهم وأندية شورايم ؟ لا والله ما نالوا أملاً ولا قارفوا عملاً ولا أذلوا رجلاً ولا خربوا بيتاً ولا هتكوا حرمة إلا بالمصريين . ماذا على الإنكليز إذا سعوا في ربح تجارتهم واستخدام أبنائهم ، ولم يجدوا عانقا ، أيرجعون وهم لهذا مرتحلون ؟ ومن يلومهم إذا وجدوا طريقاً لتوسيع ممالكهم لا خوف فيه ولا عقبات أتركونه وهم في جميع بلاد الدنيا طامعون ؟ كانوا يرون أن المصريين إذا رأوا دولة حرة دخلت بلادهم لتأييد خدوبهم وإصلاح بلادهم ، وتعرفهم حقوقهم بين الأمم ، تجمعوا حول

أميرهم حاملين كرسى نؤامته على رؤوسهم منادين باسمه . قائمين بتنفيذ أوامره محافظين على حقوقه ، مستميتين في اختصاصهم بأعمالهم ، والقيام بشعائر دينهم ، مجتهدين في حفظ الأمن وخدمة البلاد ، حافظين لحقوق الأجانب والغرباء النزلاء والمجتازين ، جاعلين محافلهم التي استخدمتها أوروبا في مصالحها محافل وطنية ، تستخدم أوروبا ومصالحهم فكانت تساعدهم على هذه الأمور التي تعهدت لأوروبا أن تعلمها للمصريين ، وتؤهلهم إليها ، ولكنها رأت غير ماظنت ، فلألوم عليها إذا وضعت قدمها على عمائنا لتعلمو جواد الفخر والخيلاء .

لماذا نتألم من أعمالها وأمرأونا اقتصروا على العقود في القصور وركوب العربيات للتفسيح في المنتزهات ، وعقلاؤنا صامتون لا ينطقون بكلمة رجاء أو صوت استصراخ ، وضعفاؤنا حيارى ينتظرون هؤلاء وهم عنهم لاهون ، ونبهاؤنا في المحافل يتحاورون ويتناظرون ، بما لا يفيد الوطن والملك شيئاً متعللين بأن محافلهم لا تتعرض للسياسة ولا للدين فإذا انصرف النبهاء عن وجهى السياسة والدين فبمن تقوم الأعمال ويتقوم أود الحكومة ويبقى عمود الدين قائماً كبقية الأديان؟ أبا لأخاء الذى ربطناه بين الأجنبي نتخلى عن مرجع المجد وأصل الشرف؟ وهل تريد أوروبا أن تقتصر علينا في حرب عوان بأكثر من صرف نبهاء البلاد عن النظر في الملك والدين ، ليخلو لها الجو فتفعل ما تشاء وتغير ما تشاء؟ مع أن النبهاء يمكنهم أن يستخدموا محافلهم في مصالح بلادهم فيتمسكوا بقوام العقليات مما لا يمكنهم منه سيف ولامدفع من غير إزارة قننة أو إزارة قطرة دم ، ويصلحون ما أفسده الاغترار والانخداع ويحدثون في البلاد عصبية وطنية لا تردها أعظم أمة عن مشربها المصرى وسعيها المؤيد بربط القلوب على عزيمة واحدة صادقة . وما الذى استفاده النبهاء المصريون من الأخلط والامشاج ، غير تقدم الغير وتأخرهم واتخاذنا بيت مال لفقرائهم وعجائزهم؟ دعونا من المجاملة في الكلام والتستر بما استهجنه العقلاء ، ما ابتدعت المحافل إلا لتبصير الممالك دستورية ، وقد نجحت في ذلك وقلبت كثيراً من ممالك أوروبا ، وحيث أننا بين يدي حكومة دستورية فلم نؤيدها بعصبية وطنية ونظهر من أعمالنا ما تقتخر به إنكثرة أمام أوروبا؟

والإفان بقي الأمراء في البيوت والنهباء في المحافل على ما هم عليه ، والعقلاء صامتين ، والضعفاء طائرين حول أو هام الأجنبي وإرهابه ، والحدوي الأعمام ينظر إلى هذه الجموع نظر الأب الرحيم إلى الأبناء العاقين ، فلا نعترض على برابرة أفريقية فضلاً عن الإنسكيز إذا جاءوا وأخرجونا من مساكننا وأبدونا عن عائلتنا وتمتعوا بما نخلفه لهم من عرض ومال ومتاع وعقار معذت والله أيام التقاعد والاعتزاز بالترهات ، وصرنا بين يدي خديوي يريد أن نجاري الإنسكيز في الأعمال الإصلاحية والمطالبة بحقوقنا الوطنية ونحن عن إرادته السنية ساهون ويجب أن نتقدم في التجارة والصناعة والزراعة والمعارف ونقبض على أزمة أمورنا ونحفظ عرشه المصري بالمصريين ولسكننا على نظره العالي عمون يتألم من ضياع المصري والاستخفاف به وتركة في زوايا الإهمال أكثر من تألم المبغدين ولو أحسننا بما عنده من الآلام لبئنا لمضاجعنا جافين إن أوربا تنظرنا من بعيد ترى أعمالنا وما تنقلب فيه من الأحوال وما تهدينا إليه إنسكارة مما تؤيد به الحدوي الأعم كمشورها التداخلي ونحن عن هذا كله لا هون . كفوا أيها المصريون عن القيل والقال ، فقد عبرتنا الأمم بأننا نقول ولا نفعل وأطهروا بين يدي إنسكارة رجال يسرها تجمعهم حول أميرهم الذي جاءت تؤيده ، واطلبوا منه حقوقكم المقدسة واشكروا إنسكارة على ما أوصلتكم إليه من الحرية التي تركتكم تتظاهرون تظاهراً أديباً طلباً للحقوق وسعيماً خلف الحقائق والامتيازات الوطنية ، فإن كل إنكليزي يراكم في هذا التقاعد وهو يدأب في عمله الليل والنهار يقول لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا . انتهى المقال .

تحليل المقال :

يمكن أن تلخص الملاحظات على هذا المقال فيما يلي :

أولاً : شغلت المقدمة نحواً من ثلاثين سطرأ أو تزيد ، وهو قدر بسيط ومعقول بالنسبة لطول المقال نفسه ، وفي المقدمة شرح ذكر لهذه الكلمة التي جعلها عنوان المقال . لو كنتم مثلنا لفعلتم فعلنا) ، ثم شرح للسبب الأول من أسباب ذلك .

وهو نشاط الجمعيات الدينية والعلمية والصناعية المنسوبة إلى الأوروبيين وانتشار هذه الجمعيات في ربوع الشرق .

ثانياً . يبدأ الجزء الأول من صلب المقال بالرد على التهمة الأولى من تهم أوروبا ضد الشرق ، وهي (تهمة التوحش) أو (التأخر) ودعواهم أن الشرقيين عاجزون عن السير في مضمار الصناعة والعلم ، ويرد الكاتب على ذلك بأن الأوروبيين هم الذين أرادوا ذلك للشرق حتى يصبح مصرفاً لبضائهم .

ثالثاً : يبدأ الجزء الثاني من صلب المقال بالرد على التهمة الثانية ، وهي أن أخلاق الشرق وعقيدته هما من أسباب تأخره . ومع ذلك فقد انخدع الشرقيون بقولهم هذا ، فارتكبوا كثيراً من المحرمات تقليد منهم للأوروبيين لا أكثر ولا أقل . .

وفي هذا يقول النديم :

وبذلك أصبح المتلبسون بهذه القبائح والفضائح لا شرقيين ولا غربيين
« ص ١٩٠ » ، واتخذتم أوروبا وسائل لتنفيذ آرائها ووصولها إلى مقاصدها من
الشرق الخ ،

رابعاً : يبدأ الجزء الثالث من صلب المقال بالرد على التهمة الثالثة وهي (أن الشرق في حاجة ماسة إلى تدخل الغرب) وهي حجة تدرج بها الغرب لاستعمار الشرق ويوضح كيف أن ملوك الشرق أنفسم خوفوا الناس من اللورد والبارون والكونت النخ ، ولم يحاولوا ترقية الأمة وتربيتها على الحمية والدفاع عن حقوق البلاد ولم يعدوها بالجرائد النافعة أو المرشدة في هذا السبيل وأخذ النديم يوازن في هذه الفقرة بين جسارة الأوروبي وتحريره المصاحبة الذاتية له ولبلاد من جهة ، وجبن الشرق وتخوفه من الخطر الأوروبي من جهة ثانية .

خامساً . وفي الجزء الرابع من صلب المقال ينتقل الكاتب إلى الدفاع عن الدولة العثمانية فيقول « لو كانت هذه الدولة مسيحية الدين لبقيت بقاء الدهر الخ آخر ص ١٩٢ » ، ولكن المغايرة الدينية دعت إلى إخراج كثير من الممالك التابعة لها عن طاعتها . مع أن الدولة العثمانية لا تألوا جهداً عن العمل على رخاء هذه

المالك ومد السكك الحديدية . وهنا يلوم السكك الدولة العثمانية على إعطاء السكك الحديدية التزاماً الأوروبين الذين وجدوا في ذلك الالتزام طريقة من طرق التدخل في أمم الشرق ١١١

سادساً : عاد النديم فشرح أساليب الأوروبين في الاستيلاء على الشرق بدعوى الإصلاح مرة ونشر المدنية مرة أخرى ، كما فعلت فرنسا بتونس والجزائر وسياستها فيهما معروفة . وكما فعلت كل من روسيا وإنجلترا .

سابعاً : وحين وصل النديم إلى إنكارة أخذ يفضح أعمالها في مصر وذلك في شتى المجالات المختلفة . كرجال حرية الصحافة وكيف اتخذت من هذه الظاهرة أداة للتطاحن بين الصحف ، وهي أي إنكارة تقف كالمنفرجة وكرجال الإدارة الحكومية فقد تظاهر الإنجليز بالكف عن التدخل منها حتى أمنوا الاعتراض ، قد تدخلت بشكل ظاهر ، وبرضى من المصريين أنفسهم حكاية اللص) ص ١٩٧ .

وبعد أن أتى النديم على القارىء أسئلة استنكارية كثيرة تتصل بشريعات البناء والتعليم والزبا وغير ذلك قال عن الإنكليز : لا والله ما نالوا أملاً ، ولا قارقوا عملاً ، ولا أذلوا رجلاً ، ولا خربوا بيتاً ، ولا هتكوا حرمة ، إلا بالمصريين ص ١٩٨ ،

ثامناً : وفي الفقرة التي تلت ذلك أخذ يصب اللوم على المصريين لا على الإنجليز . والمضربون أولى بأن يلاموا في نظره لأسباب كثيرة :

أولاً : لأن أمراءهم غارقون في الهوى والترف .

ثانياً : لأن عقلاءهم متذرعون بالصمت .

ثالثاً : لأن نبياهم أو المثقفين منهم لا يتعرضون للدين ولا للسياسة .

ثم قال :

د فإن بقي الأمراء في البيوت والنبياء في المحافل على ما هم عليه ، والعقلاء صامتين ، فلا يجوز لنا أن نعترض على برايرة إفرقية فضلاً عن الإنكليز ص ١٠٩ إذا جاءوا وأخرجونا من مساكننا وأبعدونا عن عائلاتنا الخ ، .

تاسعا : يأتي بعد ذلك فقرة كالتامة وليست بخاتمة وفيها يدعو المصريين إلى الانضمام إلى رأى الخديوى عباس في أعماله الإصلاحية والمطالبة بالحقوق الوطنية، والتقدم في التجارة والصناعة والزراعة والمعارف ، والإدارة وهكذا طفق النديم يستنهض المهتم حتى ختم كلمته بقوله « لو كنتم مثلنا لفعلمت فعلنا ، وهى الجملة التى تعود أن يحتم بها كل فقرة من الفقرات التى تألف منها المقال .

عاشراً : ويلاحظ أن النديم كان فى الجزء الأخير من هذه المقالة يضم الإنجليز إلى جناب الخديوى فى الدعوة إلى الإصلاح والمطالبة بالحقوق والعمل على تقدم التجارة والصناعة والزراعة وقد يدل ذلك على أن المقال إنما كتب فى عهد من عهد الوفاق بين السلطين الشرعية والفعلية فليرجع إلى هذا المقال بجريدة الأستاذ للتحقق من تاريخ صدوره بالجريدة .

حادى عشر : والمقال يسرف فى الطول حتى أنه ليملا عدداً كاملاً من أعداد جريدة الأستاذ (١) ويذكرنا ذلك بما فعلته المقالة الصحفية فى إنجلترا فى بعض أطوارها يوم كانت الحكومة تفرض الضرائب على الأخبار ولا تفرضها على المقالات الخ .

ثانى عشر : اعتمد السكاتب فيها على الإسهاب وطول النفس فى العبارة حتى أن الجملة الواحدة تستغرق أكثر من إثني عشر سطراً . اقرأ قوله (قدخلوا الأقطار الشرقية . . بعد ظهورها للبيان - ص ١٨٨) .

ثالث عشر : توخى النديم فى كثير من مواضع المقال أن تنتهى كل فقرة من فقراته كما قلنا بالعبارة التى صاغ فيها العنوان (لو كنتم مثلنا لفعلمت فعلنا) . وهذا يذكرنا بالطريقة التى اتبها خطباء الرومان حين كانوا يتحرون مثل ذلك فى خطبهم .

(١) هذا الذى نمرناه من كلام النديم إنما هو نصف المقال الذى نشره بجريدة الأستاذ فيلاحظ ذلك . ومعناه أن المقالة الأصلية تبلغ نحواً من ثلاثين صفحة من صفحات هذا الكتاب وهو قدر أشبه بفصل من فصول كتاب لامقال أو عمود فى صحيفة من الصحف مهما كان لونها .

رابع عشر : لغة المقال قريبة في مجموعها من لغة الحديث الراقى أى من لغة الصحافة . والنديم يمثل هذا المقال يعتبر في منزلة بين منزلتين : الأولى منزلة أديب إسحق وإبراهيم المويلحى وأمشالهما من كانوا يسعون وراء التألق في الأسلوب الأدبى حتى بلغوا به النروة ، والثانية منزلة على يوسف وطفى السيد من كانوا يكتبون بلغة الصحافة لا لغة الأدب الصرف . وكان النديم كان في الحقيقة إرهاباً حقيقياً لظهور المدرسة الثالثة من مدارس المقال الصحفي في مصر .

خامس عشر : في المقال بعض ألفاظ من ألفاظ البيئته الإسكندرية البحتة مثل لفظ « بير » جمع بيرة ، ويطلق على الأماكن التى تتبع هذا النوع .

ولكن هاهو محرر (الاستاذ) تضطره ظروف صحية ، أو على الأصح سياسية ، إلى مغادرة مصر ، وإلى مفارقة الصحيفة التى أدلى فيها بدلائمه ، وكانت خير معرض لأفكاره وآرائه . وفى الثالث من شهر يونيو سنة ١٨٩٢ ودع قراءه فى كلمة له بعنوان (تحية وسلام) شكر فيها للقراء حسن عنايتهم به وإقبالهم عليه (١) .

وذكر لم أنه صمد لطائفة من التهم التى وجهت إليه ، ومنها التعصب الدينى ، وأنه نصح لأعمال الأوربيين ، وأنه محرر ثورى ، وهو يشكر للصحف التى دافعت عنه ضد هذه التهم كجريدة المؤيد والأهرام والوطن وبعض الصحف الأجنبية فى مصر وفى أوروبا ولا ينس فى هذا المقال أن يقدم الشناء عاطراً للخد يوى عباس فهو الذى أصدر عفوه عنه ومنحه الحياة فى مصر ، فكان لواماً على (الاستاذ) أن تخلص له وتدافع عنه ، ثم هو يشكر قنصلى فرنسا والروسيا ، ويشكر جميع المصريين الذين تأثرت نفوسهم وأشفقوا على الجريدة من الضيقة ثم قال :

(١) من أجل ذلك تمكن المحرر من توزيع ٢٨٤ نسخة من كل صفحة .

وكننت أودلو دامت لى صحتى فأقوم على خدمتى ، ولكنى أصبت بضعف
فيها وأشار على جمع من الأطباء بتغيير الهواء خارج القطر المصرى ، حتى يقوى
ضعيفكم ويشفى مريضكم فيعود لخدمة وطنه وأهله وهكذا اختفى الأستاذ بعد أن
اقتنى القراء منه مجلداً فيه ألف وثلاثمائة صحيفة ، وودع النديم قراءه بقوله فى نهاية
الكلمة السابقة :

أوددكم والله يعلم أنى أحب لقاكم والخلاود لىكو
وما عن قلبى كان الرحيل وإنما وداع تبنى والسلام عليكمو

الفصل الثاني عشر

الخصائص العامة للأسلوب الصحفي عند النديم

فرغنا من عرض نماذج قليلة من أسلوب النديم ، وأن لنا أن نلخص السمات العامة لهذا الأسلوب موجزين في ذلك بقدر ما نستطيع .

ولست أدري لماذا أريد أن أتعجل القارىء وأصله بالرأى العام الذى تكون لى من قراءة الآثار الصحفية لهذا الأديب الشعبي الكبير . وخلاصة هذا الرأى هو أن محرر التنكيث ، والتبكيث ، والطائف ، ومجلة الأستاذ كان رجلاً خطيباً قبل كل شيء ، وأنه لم يستطع أن يتخلص قط من آثار الخطابة فى أسلوبه الصحفي الخالص .

ولا غرابة فى ذلك فن الأدباء من غلبت عليه صفة التدريس لجاءت كتاباته كلها على شكل دروس أو محاضرات ، وتهتم من غلبت عليه المحاماه لجاءت كتاباته تحمل هذا الطابع ، وهكذا . وليس من السهل على النفس أن تتخلص من هذه السمات .

فإذا قلنا أن الطابع العام لأسلوب النديم هو الخطابة لم يكن ذلك طعناً فيه ولا نقصاً عنده ولا تقصيراً فى العناية به .

من أجل هذا كان الفرق كبيراً جداً بين النديم الأديب والنديم الصحفي . أما النديم الأديب . فهو ذلك الرجل المفتون بالسجع والبديع إلى درجة ربما تفوق فيها على بعض القدماء . وقد كانت قنتته بالبديع مقرونة بالأيام الأولى من شبابه حين كان يكتسب الرسائل الإخوانية أو الأدبية على اختلافها . ولعلك تذكر أيها القارىء مقاله بعنوان (نار العدو ونار العدو) وكيف كانت هذه الرسالة غربية (١٣٢ - أحب المقالة ج ٢)

في بابها ، وكيف شق السكائب فيها على نفسه إلى الدرجة التي أعادت إلى الأذهان ما كان يفعله بعض كتاب النثر العربي في القرن الرابع الهجري .

ومهما يكن من شيء فقد كان السكائب في هذه المرحلة الأولى من حياته الكتابية متأثراً أشد التأثر بأسلوب المقامة العربية ، وللقامة العربية فضل كبير في الواقع على كثيرين من الأدباء منذ ظهور هذا اللون الجديد من النثر في الأدب العربي . ومن الباحثين من يذهب إلى أن هذا الغرض - وهو تعلم اللغة العربية للناشئين - كان من أجل أغراض المقامة وقت ظهورها ما لم يكن الغرض الأول والوحيد لها .

وأما النديم الصحفي فهو رجل الخطابة في عصره غير مدافع . وفي هذه المرحلة الثانية والأخيرة من حياته كانت الخطابة صفة له وسمة يعرف بها في الشعب المصري .

والخطابة نفسها نوعان مسجوع ومرسل ، ولا ريب أن الصحافة لا يناسبها إلا المرسل ومن ثم كان النديم يرسل الكلام لإرسالاً كأنه الحديث العادي . ثم لا يقف الأمر عند هذا الحد ، بل نجد الخطابة تنضح على أسلوب هذا المحرر ببعض خصائصها ومنها كثرة النداء في الكلام ، ومنها تكرار عبارة بعينها قصد التثبيت في ذهن السامع أو القارئ . وليعلم بها القارئ أنها من هذا الحديث أو ذلك (بيت القصيد) . ألا ترى أنه بسبب ذلك كان النديم حريصاً على أن يختم مقاله بنفس العبارة التي اتخذها عنواناً لهذا المقال ؟

وأكثر من ذلك - رأيت أنه كان يكرر عبارة العنوان ويجمعها نهاية لسلك فقرة من فقرات المقال - كما فعل بالكلمة التي نقلنا جزءاً كبيراً منها لتكون نموذجاً من أسلوب النديم وهي الكلمة التي عنوانها « لو كنتم مثلنا لقطمتم فملنا » .

وربما كان من سمات الخطابة أو الحديث العادي في أسلوب النديم القسم في التعبير كما في قوله :

« والعهد وذمته والشرف وحرمة إن قلبي في خدمته لمن الصادقين ولساني في

أخباره لمن الناصحين ناشدتك الحق يا شقيق الإنسانية إلا ما تأنيت على خادم
أفكارك حتى يفرغ من حديثه ... الخ (١).

وأظن القارىء كذلك لم تقمه ملاحظة أخرى ، وهي أن المحرر يوجه الكلام
للقارىء بلغة المخاطب ، وتلك خاصة من خصائص لغة الحديث أو المحاضرة أو
الخطابة ، كثيرة الظهور في أساليب المعلمين ومن إليهم من الخطباء والوعاظ
والمصلحين .

فذلك إذن هو اللون العام لأسلوب النديم أو القالب الذى يصب فيه كلامه
في الصحف . نعم كان أديب إسحق يميل كذلك إلى الأسلوب الخطابي ، ولكنه
على كل حال لا ينبغي أن يقارن بالسيد عبد الله النديم في ذلك بحال ما . كما
لا ينبغي أن يقارن به النديم في القيم الموسيقية التي وفرها أديب إسحق لعباراته
في الصحف .

من أجل هذا كان النديم في مقالاته الصحفية أقل حرصاً حتى على الزواج في
الكلام من أديب إسحق ، لماذا ؟ لأنه كان يرسل كلامه إرسالاً لا تكلف فيه إلا
حين يقصد قصداً إلى هذا التكلف ، وذلك حين يتاح له بعض الفراغ لهذا التكلف
أو حين تحم نفسه ويهفو قلمه إلى شيء منه .

بل من أجل هذا كان النديم في مقالاته الصحفية أقل عناية بالبديع أو احتفاء
بالرينة اللفظية والمعنوية ، وبأصوَر البيانية ، والأبيات الشعرية أو التسلق على
كلام الغير ، من أديب إسحق .

وليس معنى هذا أن النديم لا يحسن تكلف البديع في حين أن أديب إسحق
يحسنه ، بل معنى ذلك أن النديم أميل في صحافته إلى الحديث اللبق أو السمير الذى
يستطيع أن يقطع معك أطول وقت ممكن دون أن تمل أو تشعر بالسأم . ومن
هنا طالت فصول النديم في صحفه أحياناً إلى درجة قد لا يبلغها فصل من كتاب .
وقد تكررت حدوث ذلك من النديم بأكثر مما تكررت حدوثه من أديب إسحق .

(١) هكذا اجداً مقالا له بعنوان جرائد الأخبار مدارس الأفكار من ١٠٠ ج ٢ سلافة النديم

ثم من أجل هذا كان النديم أقرب إلى نفوس الشعب نفسه من أديب إسحق ومن سواه وساعد على ذلك أن النديم كان كما رأينا أقل ثقافة من أديب إسحق ، أو على الأصح أقل تنوعاً في ثقافته من أديب إسحق ، وهذا ما جعل الأول وهو النديم صحنى الشعب كله لا يستغنى عن قراءته رجل ولا امرأة ، بل إن النساء في مصر رجونه أن يحررهن بجملة خاصة بهن من دون الرجال وقلن له إنك وحدك القادر على ذلك ولم يحدث أن طلب النساء من أديب إسحق شيئاً من ذلك شعوراً منهن بأن لغته أعلى من مداركهن وأرفع من مستواه في ذلك الوقت .

وأخيراً من أجل هذا كان النديم أقرب إلى نفوس الغائبين بالثورة العربية وأقدر على التعبير عن رغباتهم وآمالهم حتى حقق لهم النديم كل ذلك وأكثر منه . في حين أن أديب إسحق كان في تلك الآونة من دعاة الاعتدال ، أو قل لم يكن راضياً عن الثورة والثوار بحال من الأحوال

ومع هذا وذاك فالقارىء لا يعدم أن يقع من حين لحين في أسلوب النديم على استعارة رائحة أو تشبيه جميل أو كناية لطيفة ، كما في قوله يكنى عن القلب ، ويقلد أسلوب المقامة في الرواية : دروى الواله الولوع عن الساكن بين الصلوع الخ ، (١) .

نعم كان النديم يحسن حيننا إلى البديع وذلك في أثناء اشتغاله بجريدة الأستاذ إلى درجة أنه كتب مقالا صحفياً واحداً في هذه الجريدة كله بجمع ، ردّ فيها على خصومه وحساده . بل كان فيه إلى الشعر أقرب منه إلى النثر وبدأ المقال بهذين البيتين من الشعر :

ولو أنى بليت بهاشمي خؤلته بنو عبد المدان

لهان على ما ألقى ولكن تعالوا فانظروا بمن ابتلانى

والمضحك أن النديم في هذه المقالة جعلها فصولاً كثيرة يختص كل فصل منها بموضوع مستقل فوجه الخطاب في الفصل الأول إلى أعدائه . ثم تطرق من ذلك إلى الحديث . عن أعداء الله والأنبياء ، ثم الحديث عن أعداء السلطان الأعظم

ثم الحديث عن أعداء الحضرة الخديوية ، ثم الحديث عن أعداء مصر وحكامها ، ثم الحديث عن أعداء المصريين ، ثم الحديث عن أعداء السوريين ، ثم الحديث عن أعداء إنجلترا وفرنسا ، ثم الحديث عن أعداء الصديق ، و انتهى من ذلك كله إلى فصل من المقال عنوانه قاتل الله الأعداء (١) .

(و الخلاصة) في أسلوب النديم أن القارىء له في جميع مراحل حياته يلمح فيه ثلاث شخصيات .

الأولى : شخصية الأديب المفتون بالبديع ، وذلك فيما ديج من رسائل وكتب لاصلة لها بالصحافة .

الثانية : شخصية الصحفي المفتون بالكلام المرسل لا يتكلف فيه سجماً ، وقلما يقصد منه الأنواع البديعية التي لا تتفق والمصحافة .

الثالثة : شخصية الأديب الشعبي الذى يكتب باللغة العامية ويستطيع أن يضفي على أسلوبه في هذه الحالة ما يسميه الأدباء « باللون المحلى » ، العبارة . والذى يعنينا من هذه الشخصيات الثلاث إنما هو شخصيته الثانية ، وهى شخصية الصحفي الذى يكتب باللغة العربية الفصيحة . وهنا تلمح في أسلوب النديم طائفة من الخصائص منها .

أولاً - شغفه بالاستطراد على طريقة الجاحظ وقد كان الاستطراد عند الجاحظ وسيلة من وسائل التشويق وإبعاد السأم عن القارىء . وهو كذلك عند النديم . ومن ثم كان خفيف الظل كاتباً ، وخفيف الظل خطيباً أو محاضراً . وبقى الناس في زمانه مفتونين به وبأسلوبه حتى مات .

ثانياً - ميله إلى المقابلة والطباق لا أقول بين الالفاظ ، بل أقول بين المعاني ذاتها ، وأكثر ما يكون ذلك عندما يكتب النديم عن الشرق وأحواله ، ويوازن بينه وبين الغرب وتقدمه ، أو حين يكتب عن المسلمين ويوازن بينهم وبين المبشرين المسيحيين ونحو ذلك .

(١) لعل السبب في اتباع هذه الطريقة العجيبة شعور النديم بأنه يتحدث عن نفسه وأن الصحافة ليست كالآداب في هذه الذاتية البحتة . محمول بالمقال من موضوع ذاتي إلى آخر غيري على هذا النحو .

ثالثاً - إثاره الإسهاب والإطناب على طريقة الملاحظ أيضاً. وقد لاحظنا أن النديم كان ذا نفس طويل في الخطابة والكتابة ، وكان يؤدي المعنى الواحد بعبارة كثيرة في الفقرة الواحدة ، و فقرات كثيرة في الموضوع الواحد ، وما نظن أن كاتباً استطاع مجازاة النديم في ذلك القرن الماضي ، ولا أن خطيباً . تدفق في عبارته كما تدفق هذا الرجل .

رابعاً - أما ألفاظ النديم فكانت مختارة ، وأما مادته اللغوية ، فكانت غزيرة ، ولا غرابة في هذا فقد كان النديم يعرف من بحر وكان غيره من الكتاب يتمتعون من بحر ، وإن غلب عليك الشعور بأن كتابة الجليح كانت أشبه شيء بماء الينبوع برداً وصالفاً وحلاوة وذاق .

(وبعد) فهؤلاء ثلاثة كانوا رواد النهضة الأدبية الصحفية في مصر في القرن الماضي وهم الشيخ محمد عبده ، وأديب إسحق . والسيد عبد الله النديم ، وإذا جاز لنا أن نفاضل بينهم . أو نرتبهم على حسب إجادتهم الفنية فإننا نقول - ولا نلزم أحداً بما نقول - إن أولهم وأجودهم وأقربهم إلى الفن الأدبي لا الصحفي بالمعنى الصحيح إنما هو أديب إسحق ، ثم يليه الأستاذ الإمام ، ثم يليه السيد عبد الله النديم . وأديب إسحق أول الثلاثة بمواجهه الفن ، وثقافته المنوعة ، وطريقته التي تنادى على نفسها بأنها طريقة أديب .

والأستاذ الإمام واسطة هذا العقد بقدرته على التعبير ، وبمجاسته في النقد ، بطريقة تنادى على نفسها بأنها طريقة المعلم الديني والاجتماعي .

والسيد عبد الله النديم واحد من هذه الحلبية ، ولما كان جواده لا يتقدم جوادى صاحبيه لأنه لم يجهد نفسه كثيراً في كتابة المقالات الصحفية إلا بمقدار ما يجهد الخطيب أو المحاضر نفسه في ترتيب نطق الحديث ، وفي تنظيم الأدلة والحجج ، وفي الضغط على عبارات من نوع خاص ليتأكد من ثبوتها في أذهان الجمهور . من أجل ذلك كله لم يصدر عبد الله النديم في كثير من مقالاته عن ثقافة منوعة أو دراسة متعمقة اللهم إلا في موطنين .

أولهما : موطن الدين وما يتصل به من البحث في الطرق والتصوف .
وثانيتها : التربية والتعليم وقد كان في هذه الأخيرة يستوحى تجاربه الخاصة
ويفسح المجال لأمثال على باشا مبارك ، ليحدثوا الفقراء عن هذه الأمور حديثاً
عليها في صحيفة الأستاذ ونحوها .
غير أن هناك احتياطاً لا بد من ذكره هنا قبل أن نفرغ من الحكم على
النديم أوله . وهذا الاحتياط هنا ذو شقين .

أولهما : الحديث عن الموهبة الأدبية التي اختص الله بها كل واحد من
هؤلاء الثلاثة على حدة . وهنا لا نحتاج إلى عناء كبير في البرهنة على أن الموهبة
الأدبية عند النديم كانت أعظم منها عند الأستاذ الإمام ، بل أنها لم تكن تقل عن
موهبة إسحق نفسه ،

وثانيتها : الحديث عن الأسلوب الشعبي عند النديم ، فإذا كان الأسلوب
نوعين . أرسقراطى وشعبي فن اليسير أن نلاحظ أولاً أن للنديم هذين النوعين
معاً ، في حين أن صاحبيه لم يكن لسكل منهما إلا نوع واحد فقط . والذي له
موهبتان أكبر درجة من صاحب الموهبة الواحدة ، ولهذا الاعتبار الأخير ،
ولاعتبارات أخرى سابقة تقدم النديم على أديب إسحق في ميدان الصحافة ، كما
قدمنا هذا الأخير على النديم في ميدان الأدب .

ونحن إنما وازنا بين الثلاثة فيما اشتركوا فيه جميعاً ، وهو النوع الأرسقراطى
فربناهم على النحو المتقدم ، ثم لم يمنعنا ذلك من أن نعطي للنديم حقه من
التقدم الذي له على صاحبيه .

وبعد : فقد كان النديم أقل حظاً في ثقافته ، كذلك من هذين صاحبين ،
ولكننا نعجب كيف استطاع النديم أن يبسط هذا القدر القليل من الثقافة على
أكبر عدد ممكن من الشعب المصرى ، ومن الشعوب التي كان يعنىها أن تقرأ
ما ينتجه العقل المصرى أو القلم المصرى ، وهذه القدرة على البسط إنما يمتاز بها
كذلك النديم وترفعه من هذه الناحية درجة أخرى على كل من الأستاذ الإمام
محمد عبده والأديب البارح أديب إسحق .

ذلك إذن فصل الخطاب في ثلاثة من الكتاب لا شك أنهم كانوا زعماء القرن
الماضى في مصر من حيث الصحافة ومن حيث الكتابة ، نرجو أن نكون فيه قد
وقفنا إلى الحق ، واجتنبنا الحيف أو التريد في القول .

الخاتمة

في الطابع العام للمقالة الصحفية

عند تلاميذ المدرسة الثانية في مصر

يذكر القارىء أننا أشرنا في ختام الجزء الأول من كتابنا هذا إلى المقصود من كلمة (المقالة الصحفية) ، عند إطلاقها ، ويذكر القارىء أننا قد اتهمنا من ذلك إلى أن المقالة الصحفية لا يمكن أن تكون موضوعاً إنشائياً ، ولا مقامة من المقامات المعروفة في الأدب العربي ، ولا قصة ولا حكاية . وليست المقالة الصحفية فصلاً من فصول كتاب أدبي أو علمي ، ولا محاضرة من المحاضرات العلمية ، أو الأدبية ، ولا ضرباً من هذه الأضراب الأدبية المعروفة . إنما المقالة الصحفية عبارة عن فكرة تنفقها السكاتب من البيئة المحيطة به ، وتأثر بها ، ثم عبر عن ذلك بطريقة حفظها من النظام قليل ، وحاجتها إلى الترتيب والتجيص والتدقيق والبحث العميق أقل . فإنما المقالة حديث يوشك أن يكون عادياً . يعرضه السكاتب على قرائه كما يعرض الموضوع من الموضوعات التي يزجي بها وقت الفراغ ، مع بعض جلساته ، فيحسب المحرر الصحفي أن يتحدث إلى قرائه في الأمور الخاصة والعامية حديثاً فيه سخرية حيناً ، وفيه تفكير غير عميق حيناً ، وفيه استطراد حيناً ، وفيه مراعاة لمزاج القارىء آخر الأمر .

وليس معنى هذا أن المقال الصحفي يجب ألا يكون له حظ من نظام أو ترتيب أو تعمق في التفكير ، ولكن معنى ذلك أن النظام والترتيب والتعمق في التفكير ليس شرطاً في الأدب الصحفي ، فإن توافر فيه فمعن غير قصد من السكاتب ، وعن غير إلحاح على القارىء . وعن غير رغبة في أن يتجشم هذا القارىء مشقة التفكير وعناء البحث .

من أجل ذلك خطأ البحث الحديث رجال المدرسة القديمة الذين ظنوا أن المقالة الصحفية قطعة أدبية يجب أن يكون لها مقدمة ، وموضوع وخاتمة ، كما يجب

أن تبني على عمق الفكرة وحدة العاطفة . ذلك أن الصحافة أدب غير خالد ، لأن الأدب إنما يستمد خلوده من أشياء لها بالنفس الإنسانية أوثق صلة وأقوى رابطة . أما المقال الصحفي ففضلا عن أنه وليد الساعة التي يكتب فيها ، والظرف الذي أنشئ فيه ، في فرغ القارىء من قراءته لم يشعر بحاجة إلى العودة إليه ، وفي ذلك فصلنا القول في نهاية الجزء الأول من كتابنا هذا ، فليست بنا حاجة إلى إعادته .

ولكن لمن أراد التعمق في هذا الموضوع إلى أبعد من هذا الحد أن يراجع الفصل الثاني من كتابنا (مستقبل الصحافة في مصر) وعنوان الفصل : لغة الأدب ولغة الصحافة .

فهل حققت المدرسة الصحفية الثانية في مصر شيئا من ذلك ؟ وهل يحق لنا أن ننظر إلى كتابها على أنهم صحفيون بهذا المعنى ؟ قد أشرنا في مقدمة (الجزء الأول من هذا الكتاب) إلى أن الصحافة الشعبية بالمعنى الصحيح إنما تقرن بعهد لإسماعيل ، لأن الصحافة قبل هذا كانت وفقاً على محمد على وحكراً له ، أو كانت آلة في يده يحركها كيف يشاء ، فلم تحرر الصحف في عهده شيئاً من النقد ، ولم تملك من الحرية ما يجعلها تذكر رأيها بصراحة في أى أمر من الأمور التي تتصل بسياسة الوالى الداخلية أو الخارجية ، ومضى عهد محمد على ، وتلاه عهد عباس ثم سعيد ، فلم تظهر الصحافة منهما بعناية تذكر . حتى إذا ولي عرش مصر إسماعيل ، ووقعت البلاد تحت ضغط التدخل الأجنبي البغيض ، لم ير الخديوى بدأ من الاستعانة بالصحف التي كانت (كما قلت) سلاحاً ذا حدين ، فن الصحف ما كان يؤيد سياسة إسماعيل ، وكان هذا يأجر بعضها على ذلك ؛ ومن الصحف ما كان يتصدى لنقد إسماعيل نقداً وصل إلى حد التجريح ، كما وجدنا ذلك في بعض صحف النديم .

ونخلص من هذا إلى القول صراحة بأن المدرسة الصحفية الأولى لم تتح لأفرادها الفرصة للتعبير عن آرائهم في حرية وجلاء ، فلما فر لنا من النظر إلى تلاميذ المدرسة الأولى على أنهم ناشئون في حرقة الصحافة ، وعلى أنهم كانوا يشغلون أنفسهم بشيء غير الصحافة ، وهو نشر الثقافة في البلاد ، عن طريق التأليف والترجمة .

ومن أجل ذلك جاءت صحافة المدرسة الأولى فصولاً من كتب مؤلفة ، كانت تنشر تباعاً في جريدة الوقائع حيناً ، وروضة المدارس ونحوها حيناً آخر . ومن ثم لم يظفر الباحث في نتائج المدرسة الأولى بمقال صحفى بالمعنى المراد من هذه الكلمة عند إطلاقها ، ثم إنه لم يكن للصحافة نفسها موضوع هام على يد تلك المدرسة الأولى ، ولا كان لها أسلوب يصح أن ينظر إليه على أنه صحفى بالمعنى الذى أشرنا إليه في بداية هذه الكلمة فإذا تركنا المدرسة الأولى إلى الثانية ، فثم نجد موضوعاً للصحافة ، وثم نجد فكرة تصدر عنها ، وثم نجد أسلوباً يختص به كل واحد من أفرادها ، وثم نجد طابعاً عاماً يمتاز به هذه المدرسة عن سابقتها ؛ وباختصار نجد عناصر كاملة تؤلف لنا مذهباً جديداً من مذاهب الصحافة ، وتجعلنا أمام طائفة من الصحفيين يستحقون احترامنا وتقديرنا ، لا لمجهود ثقافى كالذى بذله رجال المدرسة الأولى من لدن رفاعة الطهطاوى وأمثاله ، ولكن لمجهود صحفى بحسب بذله رجال هذه المدرسة الثانية . حين ارتفعوا بالصحافة المصرية إلى الحد الذى أصبحت فيه منافسة للصحف الأجنبية في ذلك الوقت .



على أننا ننظر إلى الطابع العام لهذه المدرسة الصحفية الثانية ، فترى أن للمقال الصحفى خصائص ويميزات آن لنا أن نذكرها في هذه الخاتمة .

الخاصة الأولى : غلبة الأسلوب الخطابى على مقالات هذه المدرسة ، وأكثر ما كان ذلك في مقالات النديم ، وللقارىء أن يستعرض النماذج التى عرضناها من كلامه ، فسيجد فيها ميلاً شديداً إلى اصطناع الأسلوب الخطابى . وسيجد في حياة النديم أصول هذا الميل .

والخاصة الثانية : أن المقالة الصحفية عند رجال هذه الحلقة أخذت كما رأينا — شكل الدرس ، وجاءت أكثر المقالات على شكل المحاضرة . وواضح ذلك في مقالات الشيخ محمد عبده ، وللقارىء أن يستعرض لذلك حياة هذا الرجل كما عرضنا لها في هذا الكتاب ، فسرى منها ومن تحليل نفسيته ، ودوافع ميله إلى التدريس ، وحسن استعداده له ، ولقد بدأ الشيخ يكتب المقالات الأولى في

الأهرام وجريدة مصر ، فجاءت هذه المقالات على شكل ملخصات للدروس التي كان يلقيها أسناده السيد جمال الدين الأفغاني ثم تصدى الشيخ محمد عبده للاصلاحين الديني والاجتماعي ، وكتب كثيراً في هذا الموضوع ، ولم تكن مقالاته في هذا الميدان أكثر من دروس منظمة ذات هدف معين ، ولا يكاد يخرج عن هذه الخاصة من كتاب هذه الحلبة غير أديب اسحق الذي غلبت على نفسه طبيعة الأديب ، كما غلبت على نفس النديم طبيعة الخطيب ، وغلبت على نفس محمد عبده طبيعة المعلم ، ومن قبل غلبت على نفس الطباطبائي وتلاميذه طبيعة الترجمة ، إن صح أن تكون الترجمة طبيعة بهذا المعنى .

الخاصة الثالثة : شيوع الجدل إلى حد الصرامة والحزن ، فقد أحاطت بمصر في القرن الماضي ظروف عصيبة ، دعت المصريين إلى ترك اللهو واللعب ، روح الضحك والسمر جانبا ، وانتهى صحن كالنديم على وجه التمثيل فوجد مدينة الإسكندرية غارقة في جدها ، تاركة طوها وأسمارها وأحاديثها الفارغة ، فحاض فيما حاض فيه القوم ، ومنذ اشتغل بالصحافة لم يفارقه طابع الجدل أو الحزن ، اللهم إلا في مقالاته التي كتبها في مجلة التنسكيت والتبكيك ، وفي اسم هذه المجلة الأخيرة ما يدل على نوع الضحك الذي كان يضحك المكاتب وزعماء الإصلاح في مصر في ذلك الحين ، والحق أننا لا نكاد نستثنى من نتائج هذه المدرسة غير ما كتبه الصحفي الإسرائيلي المعروف باسم يعقوب بن صنوع .

الخاصة الرابعة : شيوع السخرية في مقالات هذه المدرسة ، وإن جاءت هذه السخرية مزوجة دائماً بالحزن الذي أشرت إليه في الخاصة السابقة ، ومن أجل ذلك قلما انفرجت شفاه المكاتب في القرن الماضي عن ابتسامه ما في مقالاتهم الجدية لا الهزلية ، اللهم إلا في فقرات قليلة ، كالتى رأيناها عند النديم ولم نجد لها نظيراً عند صاحبيه . على أن سخرية النديم وصلت إلى حد التهكم المرير ، في مقالاته التي كتبها في نقد إسماعيل ، وقريباً من هذه الدرجة من التهكم وصلت مقالات أديب إسحق في نقد المجالس النيابية في مصر ، أما الأستاذ الإمام فكانت سخريته هادئة كل الهدوء ، خالية في الوقت نفسه من الضحك خلواً تماماً .

الخاصة الخامسة : شيوع الانفعالات في مقالات المدرسة الصحفية الثانية أكثر من شيوعها في مقالات المدرسة السابقة لها . والحق أن ميزان الحساسية يرتفع كثيراً عند أديب إسحق ومحمد عبده وعبد الله النديم ، وأن ثلاثهم كانوا يكتبون بانفعال شديد ، هو في الواقع أشد مما ينبغي للكاتب الصحفي ، فقد قلنا أن الفرق كبير من هذه الناحية بين الصحفي والشاعر ، والأديب والخطيب .

تلك أهم الخصائص التي تتصل بالفكرة أو الموضوع . أما ما كان منها يتصل اتصالاً مباشراً بالأسلوب ، فأهمه ما يأتي :

الخاصة الأولى : تخلص المدرسة الصحفية الثانية إلى حد كبير من السجع والجناس وغيرهما من الألوان البديعية التي فتن بها أكثر تلاميذ المدرسة السابقة لها وكانوا في قمتهم تلك يتأثرون كل التأثر بالميراث الأدبي الذي ورثه العصر العثماني عن العصور الأدبية التي سبقتة ، وفي تاريخ الجبرتي صورة من التراث الأدبي المصري في العصر العثماني ، نرى منها إلى أي حد أولع كتاب ذلك العصر بالبديع ، على صورة فاسدة من طريقة القاضي الفاضل ومن قبله من أدباء البرية ، كالحريرى وبديع الزمان وغيرهما ، ولكننا نلاحظ أن العيب ليس في اتباع طريقة ما من طرق الكتابة ، ولكن العيب في الكاتب المتبع لهذه الطريقة . ثم إن لكل مذهب أدبي أجله وحياته التي تشبه فيها حياة الإنسان ، فإذا وصلت حياة مذهب من المذاهب الأدبية إلى الشيخوخة تهدم وأصابه التلف ، ثم إنه لا شيء يضر بمذهب أدبي أو عقلي إلا نقص الثقافة . ونعني بذلك أنه يشترط في معتق طريقة من الطرق أن يكون فوق تحمسه لها قد أعد لها من الثقافة الواسعة والذوق المرفه والموهبة ، ما يعنيه على النبوغ في الطريقة الكتابية التي اختارها . ونحن نعرف أن الطريقة الفاضلية كانت قد شاخت ، ونهكتها المرض ، ومع ذلك بقيت في مصر إلى القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، ولم تظفر بكتاب يحسنون تقليدها . ولا كان هؤلاء الكتاب ثقافة وذوق ولا موهبة تعينهم على إيجادتها ، ولذلك زادت هذه الطريقة سقماً على سقم في نتاج الكتاب الذين ظهروا في تلك العصور المظلمة . ثم لم يكن أمام المدرسة الصحفية الأولى مثال يحتذى في الكتابة غير ذلك المثال الفاضلي . فحالكه بعض تلاميذها ، وفرضوه على أنفسهم ، وتقليدوا

به ، حتى في ترجمة الكتتب والقصص من الأوربية إلى اللغة العربية ، وظهر أثر ذلك في العنوانات التي اتخذوها لتلك الكتتب بحيث روعى فيها السجع بدقة تدعو إلى العجب ، فلما كانت المدرسة الصحفية الثانية وجدنا كل واحد من تلاميذها يفتن في مستهل حياته الأدبية بالسجع فتنة لا حد لها ، ثم لا يلبث أن يفارقه هذا السجع إلى غير رجعة على أثر اشتغاله عملياً بالصحف . فهكذا كان أديب إسحاق ولو أنه لم يبرأ من بعض السجع في حياته الصحفية كلها . وهكذا كان محمد عبده الذي ظهرت أولى مقالاته في الأهرام مسجوعة من أولها إلى آخرها ثم هكذا كان التديم الذي رأيناه في أول أمره أكثر من صاحبيه مراعاة للبديع ، ثم غدا أكثر منهما تحمراً منه في نهايته .

الخاصة الثانية : على أن أفراد هذه المدرسة قد استعاضوا عن السجع بخاصة أخرى هي الازدواج ، أو التقطيع الصوتي ، وجزالة اللفظ ، وحسن اختياره ، ووضعه في أليق مواضعه . وإن من يتبع أساليب الثلاثة الذين أتينا على ذكرهم في هذا البحث ، لتهوله هذه الظاهرة ، وهي تقدم كل واحد فيهم تقدماً محسوساً في الجزالة اللفظية من جهة وحسن انتقاء الألفاظ وقوة دلالتها على المعاني من جهة ثانية . ولاشك أنه كان للمرآة الصحفية أثر كبير في هذا التقدم الذي نلاحظه ، وأظن أن فيما أشرنا إليه من مقالات أولئك الثلاثة الرجال ما يكفي لإثبات هذه الظاهرة .

الخاصة الثالثة : تأثر المقالة الصحفية بأسلوب القرآن الكريم ، لجميع الكتاب بدون استثناء . يؤثرون ألماظ القرآن وتراكيب القرآن ، وإذا سئحت لأحدهم فرصة الاقتباس منه لم يتأخر في ذلك ، وربما تكلف في مقاله حتى يخلق الموقف البياني المناسب له . والظاهر أنهم كانوا يفعلون ذلك لإشباعاً لرغبات فنية في نفوسهم من جهة ، وتقليداً للقراء من جهة ثانية .

الخاصة الرابعة : تأثر الأسلوب الصحفي كذلك بأسلوب المقامة العربية بشكلها المعروف في الأداء ، والحق أن لهذا اللون من ألوان الأدب العربي الخالص أثراً في الأسلوب يأتي بعد أثر القرآن نفسه مباشرة . لكن لا مفر من القول بأن تأثر المدرسة الصحفية الأولى بأسلوب المقامة — وتخص بالذكر من تلك المدرسة

فارساً الشدياق - كان أقوى من تأثر المدرسة الصحفية الثانية بذلك الأسلوب ، كما أنه لا مفر أيضاً من القول بأن تأثر أدب إسحاق بهذا الأخير كان أوضح من تأثر صاحبه به . فقد كان ذلك الصحفي الأديب يتأق في ألفاظه ، ويوردها مسجوعة في بعض الأحيان ، ويحشوها بالتشبيهات والاستعارات ، ويسوق القليل منها على لسان راو يتخيله ، كما يصنع كتاب المقامات .

الخاصة الخامسة : بدأ ظهور الفرق بين لغة المقالة الصحفية من جهة ولغة الأدب الخالص من جهة ثانية . وآية ذلك ما وجدناه من أن كل صحفي من هؤلاء الثلاثة الذين درسناهم ، كان يعنى بعبارته وبتجديد هذه العبارة ، وكان هؤلاء الصحفيون أدركوا فيما أدركوه يومئذ أنه ينبغي أن يكون أسلوب الصحافة غير أسلوب الأدب . وكان كل واحد منهم إذا فرغ لنفسه ، أو وجد أمامه متسعاً من الوقت تأق في عبارته ، وأمعن في زينته ، فإذا جاء الجد وضاق الوقت ، وألحت الجريدة أو المطبعة في طلب المقال ، فهنا يسرع الصحفي في الكتابة ، ولا يجد متسعاً للإجادة الأدبية الخالصة غير أنه من الحق أن يقال إن صحافة القرن الماضي لم تفارقها كثيراً صفة الأدب ، وهنا يضطر المؤرخ الأدبي إلى الوقوف لحظة للنظر في هذه المسألة ، وهي ما الفائدة التي عادت على الأدب البحث من الصحافة ؟ وما الضرر الذي أصيب به منها ؟

والجواب عن ذلك أن الأدب أفاد من الصحافة سعة في الموضوع ، وغزارة في الأفكار ، وتنوعاً في المادة ، وحرية في التعبير ، وانبساطاً في الأساليب الخ ، غير أن الصحافة أضرت في الوقت نفسه بالأدب ضرراً يليقاً فيما وراء ذلك . ويتلخص هذا الضرر في أن الصحافة في كل زمان ومكان ، انحطت بالأساليب الأدبية إلى أدنى درجاتها الكتابية ، وذهبت بالفن الكتابي إلى حيث أحواله إلى فن باهت اللون ، لاحظ له من جمال الأصباغ التي تفتن العين . والسبب في ذلك أن الأديب يتاح له من الفراغ ، ما يمد له في أسباب التأق والتحدث والتصنع والتفنن ، على أن الصحفي وراءه مطبعة تطالبه بنذاتها كل يوم ، وصحيفة لا تقي عن مطالبته بالمقالات الكثيرة كل ساعة ، فلا مفر له إذن من الإسراع في التفكير والإسراع في الكتابة ، فالسرعة إذن هي الطابع العام للأدب الصحفي . والسرعة

إذن هي المسئولة عن إخراج الصحافة من حيز الأدب الخالد . ووضعها في حيز الأدب الذي لا يبقى أكثر من ساعة .

* * *

تلك إذن بعض خصائص المقالة الصحفية ، التي تركتها لنا هذه المدرسة ، فما مكانة هذه المدرسة الصحفية في مصر ، وما منزلة أصحابها من رجال الصحافة في بلد غير مصر ؟ الحق أن رجال هذه المدرسة الصحفية الثانية أثبتوا أنهم كفء للعبد الذي اضطلعوا به ، وأنهم أهل للاشتغال بالحرفة التي رضوا بها ، وكان عندهم من الاستعداد ما أعانهم على النبوغ فيها نبوغاً يلفت النظر ، فقد رزقوا قوة الملاحظة ، ورزقوا الانفعال إلى درجة الشهور بالنقمة . ثم بالسخرية التي صدرت عنها في جميع ما كتبوه للصحف . ثم بصدق التعبير عما أحسوا من نقمة وسخرية في وقت معاً ، وكانوا يرسلون كلامهم إرسالاً لا تقيد فيه بالمنطق ، اللهم إلا عندما يخرج مقال أحدهم على هيئة درس كما رأينا . أو عندما يكون المقال رداً على فكرة ، أو دفاعاً عنها ، وهكذا .

وإذا صح ذلك وآمنت معي بأن المدرسة الثانية حققت لنا كل ذلك ، فأنت معي إذن في القول بنجاح هذه المدرسة ، بالقياس إلى المدرسة السابقة لها ، وإذن فالفضل كل الفضل للمدرسة الأولى ، لأنها نشرت الثقافة التي ارتوى منها كثير من وضعوا أسس الصحافة في مصر في النصف الأول من القرن الماضي . ثم الفضل كل الفضل للمدرسة الثانية ، التي انتفعت بهذه الثقافة أولاً ، ثم اشتركت في بناء الصرح نفسه آخر الأمر .

ولكن ليس معنى ذلك أن المقال الصحفي ، بلغ أشده على يد هذه الطبقة التي منها أديب إسحق ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم وغيرهم ، بل ما نعنيه هو أن المقال الصحفي قطع شوطاً كبيراً . وتقدم خطوات واسعة ، ارتقت بها الطبقة الثانية على الطبقة التي سبقتها . والدليل على صحة ما تقول من أن المقال الصحفي لرجال هذه الطبقة الثانية لم يبلغ حد السكال ، هو أن هذا المقال لم يبرأ بعد من عيوب المقال عند الطبعة الأولى التي منها رفاة الطهطاوي وفارس الشدياق وغيرهما وأنت تعلم أن من عيوب المقالة الصحفية عند هؤلاء . أنها جاءت على شكل دروس

وأبحاث، وأنها طالت عند بعضهم أحيانا إلى أن بلغت حد الكتاب وذلك ما وجدناه أيضا عند محرري الطبقة الثانية بوجه عام ، وما وجدناه أحيانا - عند النديم من رجال هذه الطبقة بوجه خاص . ويذكر القارىء أننى عرضت عليه فى غضون بحثى هذا فصلا للنديم عنوانه :

« لو كنتم مثلنا لعلتم فعلنا » ، وأن هذا الفصل كان طويلا مسرفا فى الطول إلى حد أنه مالا تسع عشرة صفحة من صفحات « سلاقة النديم » ، وهو كتاب من القطع الكبير .

أفجد فى الصحف الحديثة مهما كان لونها مقالا صحفياً يبلغ هذا الطول ؟ . كلا . . بل إن هذا المقال الذى كتبه النديم ليس إلا فصلا أو بحثاً أو خطبة من الخطب الطويلة ، التى كان يقضى فى إلقائها على مسامع الجمهور ساعات طويلة ، لا يمل فى أثناءها الجمهور من استماعه .

وقد اتفقنا على أن المقال الصحفى ليس بحثاً ولا فصلا من كتاب ، ولا موضوعا من موضوعات الإنشاء ، ولا خطبة من الخطب السياسية أو الدينية أو الاجتماعية .

وإذن فلا بد أن يكون طول المقال على يد النديم عيباً صحفياً ، كالعيب الذى ظهر على يد الطبقة التى سبقته إلى ميدان الصحافة . ونعنى بها طبقة الشيخ رفاعة .

الحق أن المقال الصحفى على عهد النديم وصاحبيه أديب إسحاق ومحمد عبده إنما بلغ طور الصبا ، ولم يتجاوز بعد دور الشباب إلا بقليل ، وليست هذه الطبقة الثانية هى التى تمثل الشباب بالمعنى الصحيح ، وإنما تمثله طبقات من الصحفيين توالى على مصر تباعا منذ ذلك الحين ، وذلك إذن هو التطور الطبيعى للصحافة ، والتدرج المعقول فى نموها ونضجها ومن الإسراف فى القول أن نظفر بالصحافة ، أو نزعم لها النضوج دفعة واحدة .

فقول هذا القول ونحن لانمط فضل هذه المدرسة الثانية من مدارس الصحافة كما قدمنا ، ولا نبغسها حقها كما رأيت .

وخلاصة الرأي في هؤلاء الثلاثة الذين اشتمل عليهم البحث أن (أديباً) غلبت عليه صفة الأديب ، في حين أن النديم غلبت عليه صفة الخطيب أو النديم ، وأن محمد عبده غلبت عليه صفة المعلم .

حقاً كان أديب إسحاق أدناهم جميعاً إلى الأدب ، وكان أكثرهم لطفاً في الحس ، ووحدة في المزاج ، واضطراباً في الأعصاب ، ولقد خلقت منه هذه الظروف أديباً ممتازاً ، يعنى بعبارة ، ويتخير لها الألفاظ القوية الإيحاء ، والجرس الذي يملؤها أنفاما موسيقية تتلامم ووحدة مزاجه وانفعالاته . فإذا أتى أديب إسحاق بصورة من الصور الكتابية عنى بها عناية تامة ، وأخرج منها للقارىء لوحة من لوحات الفن ، تنقل إليه جميع المعانى التى أرادها الكاتب . وهنا يحسن أن أجيل القارىء إلى المقالات التى كتبها أديب إسحاق - وهو في باريس - بعنوان (نفثة مصدور) وفى بعضها يقول مخاطباً المصريين :

يا قوم ، ظلمتم غير معذورين ، وصبرتم غير مأجورين ، وسميتم غير مشكورين فهاكتم غير مأسوف عليكم الخ . وفى هذا المقال أنى الكاتب بهذه الصورة التى لا تستطيع لوحة رسام ماهر أن تأتى بأجود منها ، وهى قوله يصف خوف المصرى من جور حاكمه الذى د يشد رجله بيده ، ويده بعنقه ، وعنقه بالقيد ، وقيدته بتد السجن ، إلى مثال هذه الصورة التى تزعج كل الإزعاج في مواطن الإزعاج ، وتبعث البهجة والسرور في مواطن البهجة والسرور ، وهكذا .

وأما الأستاذ الإمام فرجل تغلب عليه صفة المصلح الدينى والمصلح الاجتماعى ، كما تغلب عليه صفة العالم الذى يحرص على أن يلتقى بالتلاميذ ، ويمجد فى نفسه سروراً عظيماً بإلقاء دروسه عليهم . ومن ثم جاءت مقالاته وخاصة فى الدور الأخير منها - أدنى إلى الصحافة بالمعنى الصحيح لهذه الكلمة : ألفاظ سهلة فى موضع التعليم ، جولة فى موضع الإنارة ، قليل الاكترات بالزينة اللفظية أو المعنوية ، ضعيف العناية بالاستشهاد من القرآن أو الحديث أو الأشعار أو الخطب ونحو ذلك .

وأما السيد عبد الله النديم فالخطابة هى كل صفاته ، وأظهر سماته ، والمسيطرة عليه من جميع جوانبه ؛ لا يستطيع إفلاتا منها ، ولا يملك فسكا كما عنها ، فإذا (م ١٤ - أدب المقالة - ٢)

كتب مقالا صحفياً نسي أنه يكتب في صحيفة ، وساقه الطبع إلى الكلام ، فأطال فيه . حتى لكأنه يخضب في جمع حافل ، وتستغرق خطبته ساعات متواصلة . ويريد الناقد الصحفي أن يلخص رأيه في المدرستين الصحفيتين فيرى بينهما فرقا من حيث الخبر ، وفرقا من حيث المقال .

فأما الفرق بينهما من حيث الخبر الصحفي فالظاهر أن عناية المدرسة الأولى بالأخبار كانت أكبر من عناية المدرسة الثانية بها ، على حين أن عناية المدرسة الثانية بالمقال كانت أشد وأعظم من عناية المدرسة الأولى به . وأكثر من ذلك أن المدرسة الأولى إنما شهدت ميلاد المقال الصحفي ، واقتربت بها المحاولات الأولى لكتابة المقال الذي لم ينضج بعد .

وأما المدرسة الثانية فقد خطت بالمقال خطوات واسعة موفقة ، وبلغ الأمر عند بعض الصحف أنها كانت تخرج الأعداد تلو الأعداد بحيث لا يشتمل الواحد منها أكثر من مقال واحد يملأ صفحات العدد من أوله إلى آخره .

غير أن ذلك عيب من عيوب الصحافة كما قلنا . والحقيقة أن هذه المدرسة الثانية من المدارس الصحفية في مصر — وإن خطت بالمقال الصحفي هذه الخطوات الموفقة على هذا النحو — إلا أنها لم تستطيع أن ترسم في ذهنها صورة صحيحة للمقال الصحفي كما يفهم من هذه الكلمة عند إطلاقها اليوم .

وقد سبق أن أحلت القارىء إلى فصل من فصول « مستقبل الصحافة في مصر » عنوان « لغة الأدب ولغة الصحافة » . وفي هذا الفصل أوضحت الكثير بين اللغتين ، وهو كالفرق بين الملابس التي يرتديها الناس في حياتهم اليومية ، والملابس التي يرتدونها في المناسبات الخاصة ، مثل مناسبة عرس أو حفل من الحفلات الرسمية أو الدورية . فالملابس الأولى تمثل اللغة التي تكتب بها المقالة الصحفية ، والملابس الأخيرة تمثل اللغة التي يكتب بها الأدب البحث .

فهل أدرك تلاميذ المدرسة الثانية هذا الفرق ؟

الجواب عن ذلك أنهم أدركوه إدراكا جيدا ولكنهم في تطبيقهم هذا الإدراك الجيد قطعوا مرحلة واحدة فقط ، هي المرحلة التي مهدت لظهور المدرسة الثالثة . تلك المدرسة التي سنتحدث عنها ابتداء من الكلام عن السيد علي يوسف

في صحيفة المؤيد . أو بعبارة أخرى ابتداء من ظهور الصحافة اليومية في مصر ،
وهي الصحافة التي حلت محل الصحافة الدورية كما تجتات لنا بوضوح على يد المدرسة
الصحفية الثانية التي يدور حولها هذا البحث .

ومعنى ذلك أن نوع الصحافة التي ما رسها رجال المدرستين السابقتين نحكم
في اللغة المستخدمة فيها ، ونحن نعلم أن صحافة المدرسة الثانية كانت دورية ، وأن
صحافة المدرسة الثالثة كانت يومية . فكان من الطبيعي أن تتاح لتلاميذ المدرسة
الثانية من الوقت والإجادة ما لم يتح لتلاميذ المدرسة الثالثة .

(وبعد) فهذا حديث عن ثلاثة فقط من تلاميذ المدرسة الصحفية الثانية
في مصر . وليس معنى ذلك أن هؤلاء الثلاثة لم يكن لهم نظراء في عصرهم . كلا ،
بل إن مصر في ذلك العصر كانت تنعم بطائفة كبيرة من الصحفيين الممتازين ،
وليس فيهم إلا من هو خليلق بأن يذكر ويدرس على النحو الذي مضينا فيه .
واقدر كنا نود أن يشتمل هذا البحث على مجموعة أخرى من تلاميذ هذه المدرسة
عدا الثلاثة الذين عرضنا لهم في هذا البحث ، ولكننا آثرنا أن نكتفي بهؤلاء
الثلاثة مؤقتاً ، وأن نخص رجلاً من رجال هذه المدرسة الثانية بجزء من أجزاء
هذه السلسلة . وهذا الرجل هو إبراهيم المويلحي الذي طفر بالطريقة الأدبية إلى
الغاية القصوى .

ونظرنا نحن فلم نجد من العلماء والمؤرخين من يكتب عن المويلحي الكبير
كتابة وافية إلى اليوم ، فانهزنا هذه الفرصة لنؤدى واجبنا نحو تاريخ الأدب
والصحافة في مصر من هذه الناحية .

تم الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث وموضوعه
الكلام عن إبراهيم المويلحي وجريدة مصباح الشرق

محتويات الكتاب

صفحة

٣	مقدمة
٩	الفصل الأول : ظروف عاشت فيها المدرسة الصحفية الثانية
٩	حركة التنوير
١٢	حركة الدستور
١٤	حركة المقاومة
١٨	الفصل الثاني : حياة أديب إسحاق (١٨٥٦ - ١٨٨٥)
٣٣	الفصل الثالث : أسلوب أديب إسحاق
٣٤	جريدة التقدم
٣٧	جريدة مصر
٤٣	جريدة مصر القاهرة
٤٧	نقطة مصدر
٥٦	خصائص الأسلوب عند أديب إسحاق
٦٣	الفصل الرابع : حياة الشيخ محمد عبده : ١٢٦٦ - ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ - ١٩٠٥ م
٦٤	سيرة الأستاذ الإمام
٦٥	مع جمال الدين الأفغاني
	المعلم الثاني والعقد الشريكية (٦٦) مواهب العقلية والنفسية (٦٧) الموهبة الأولى أو العقلية التطورية (٦٨) الموهبة الثانية أو طبيعة المعلم (٦٨) الموهبة الثالثة أو شجاعة الشيخ النفسية (٦٩)
٧٢	دعوة الأستاذ الإمام إلى الإصلاح

صفحة

- ٨١ : . . . : الفصل الخامس : أسلوب محمد عبده :
المرحلة الأولى (٨٢) النموذج الأول - في تقييد الأهرام
(٨٢) المرحلة الثانية (٨٦) خطأ العقلاء (٨٨) المرحلة الثالثة
(٩٢) برنامج العروة الوثقى (٩٣) القضاء والقدر (٩٩)
المرحلة الرابعة (١٠٣) العلم الأهم للأمة (١٠٤) الرسائل
الاخوانية (١٠٩)
- ١١٥ : . . . : الفصل السادس : حياة عبد الله النديم :
١٢٦١ - ١٣١٤ هـ
١٨٤٥ - ١٨٩٦ م
- ١٣٢ : . . . : الفصل السابع : الأسلوب الأدبي للنديم
حدثنا أحمد سمير في ترجمة حياة النديم قال (١٣٢) ثم قال
أحمد سمير (١٣٣) نار الغدو وتار العدو (١٣٤) لواء
النصر في أدباء العصر (١٣٧)
- ١٤٠ : . . . : الفصل الثامن : جريدة التنكيك والتبكيك
١٤١ : . . . : مجلس طي على مصاب بالأفريقي
١٤٦ : . . . : محتاج جاهل في يد محتمل طامع
١٤٩ : . . . : سهرة الانقطاع
١٤٩ : . . . : عربي تفرنج
١٥٠ : . . . : إضاعة اللغات تسليم للذات
١٥١ : . . . : هف طلع النهار
١٥٢ : . . . : تخريفة خذ من عبد الله واتكل على الله
- ١٥٦ : . . . : الفصل التاسع : الطائف
١٥٦ : . . . : سلب الأملاك من الملاك
١٥٩ : . . . : المعمعة الثانية (إن جندنا لهم الغالبون)

صفحة	
١٦١	المعمعة الثالثة (وها نزيهم من آية إلا وهى أكبر من أختها)
١٦٤	حالتنا مع الإنجليز
١٦٨	الفصل العاشر : جريدة الأستاذ
١٧٠	تربية الأبناء
١٧٣	هذا عنديكم فما مقابله عندينا
١٧٦	الفصل الحادى عشر : قضية الشرق والغرب فى صحيفه الأستاذ
١٧٦	حرب الأعلام بجيوش الأوهام
١٧٧	لو كنتم مثلنا لعلتم فعلنا
١٨٧	تحليل المقال
١٩٣	الفصل الثانى عشر : الخصائص العامة للأسلوب الصحفى عند النديم
٢٠١	الخاتمة : فى الطابع العامة للمقالة الصحفية
٢١٣	عند تلاميذ المدرسة الثانية فى مصر
٢١٣	محتويات الكتاب
٢١٦	للمؤلف

للمؤلف

٥٠	١ - أدب المقالة الصحفية الجزء الأول
٥٠	٢ - " " " " الثاني
٣٠	٣ - " " " " الثالث
٤٠	٤ - " " " " الرابع
٤٠	٥ - " " " " الخامس
٤٠	٦ - " " " " السادس
٥٠	٧ - " " " " السابع
٧٠	٨ - " " " " الثامن
٨٠	٩ - المدخل في فن التحرير الصحفي (الطبعة الثالثة)
٤٠	١٠ - مستقبل الصحافة - الأدب والصحافة
٥٠	١١ - أزمة الضمير الصحفي
٤٠	١٢ - الإعلام له تاريخ ومذاهب
٣٥	١٣ - أخبار الشرق الأوسط بالاشتراك مع الدكتور وليم الميرى

وتطلب جميعها من ملزم طبعا ونشرها

دار الفكر العربي

١١ شارع جوا دحسني (طلعت حرب سابقا) بالقاهرة

تليفون : ٥٦٤٦٧ - صندوق بريد : ١٣٠